المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
من المسرح العالمي
الطبعة الثانية

. طبول في الليل
. حياة جاليليو

تأليف:
برتولت برشت
ترجمة وتقديم:
د. عبدالرحمن بدوي

العدد الحادي عشر
سبتمبر 2009
تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



• طبول في الليل

• حياة جاليليو

تأليف:

برتولت برشت

ترجمة وتقديم:

د. عبدالرحمن بدوي

الطبعة الثانية ٢٠٠٩

المسرح العالمي

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
دولة الكويت

almasrahalaalami@yahoo.com
almasrahalaalami@gmail.com

www.kuwaitculture.org

- طبول في الليل
- حياة جاليليو

تأليف: برتولت برشت

ترجمة وتقديم: د. عبدالرحمن بدوي

الطبعة الثانية ٢٠٠٩ / الطبعة الأولى ١٩٨٩
دولة الكويت

ISBN: 978 - 99906 - 0 - 283 - 8

رقم الإيداع: (٢٠٠٩/٠٢٧)

- طبول في الليل
- حياة جالليو

برتولت برشت

الفهرس

مقدمة عامة
بقلم المترجم

برتولت برشت
حياته ومؤلفاته

برتولت برشت، واســـمه الكامل: أويجن برتولد فريدرش برشت، ولد في العاشر من شـــهر فبراير سنة ١٨٩٨ في مدينة أوجسبورج في وسط ألمانيا. وكان أبوه برتولد برشـــت (ولد في ٦ نوفمبر ١٨٦٩ في آخن Achen في الغابة السوداء) قد انتقل إلى هذه المدينة في سنة ١٨٩٣ ليعمل موظفا في مصنع للورق. واستطاع بنشاطه ومهارته أن يترقـــى فـــي المصنع حتى وصل إلى وظيفة مدير في ســـنة ١٩١٤. وكان هذا الأب كاثوليكيا، بينما كانت أم صاحبنا مسيحية إنجيلية. وعُمد الابن على مذهب الأم، أي مســـيحيا إنجيليا. وهذه الأم تتحدر من أصل أليماني اشقابني (من جنوب ألمانيا) لا من أصل بافاري. وهكذا نشأ الابن في أسرة بورجوازية ميسورة جدا.

والتحق برتولت بالمدرسة الابتدائية في أوجسبورج في سنة ١٩٠٤، ومنها انتقل إلى المدرسة الثانوية في أوجسبورج بعد أربع سنوات (سنة ١٩٠٨)، ومنها حصل على شهادة البكالوريا في سنة ١٩١٧. والتحق بجامعة منشن (ميونخ) لدراسة الأدب والطب. وكان والده يود له أن يســـلك ســـبيلا مثل تلك التي سيسلكها أخوه الوحيد (ولد سنة ١٩٠٠) فلتر WALTER، الذي أصبح أستاذا لصناعة الورق في كلية الهندسة في درمشتات.

ولكن النوازع الأدبية كانت مبكرة الظهور عند صاحبنا برتولت، فلم يشأ أن يسلك الطريق اللاحب لابن من أسرة بورجوازية ثرية، بل جذبته الحياة البوهيمية الحرة التي يحياها الأدباء والفنانون. وبدأت تظهر هذه البوادر الأدبية والفنية منذ نعومة أظفاره: فقد كان مولعا في صباه الأول بمسرح العرائس، وكان وهو في الثانوية يكتب في مجلة التلاميذ. كذلك كان لصداقته مع مصور المناظر المســـرحية (فيما بعد) رودلف كسبر نيهر R. C. Neher الذي أصبح فيما بعد من أكبر معاوني برشـــت في تصوير مناظر مسرحياته، أثر كبير، وقد بدأت هذه الصداقة في سنة ١٩١٣/ ١٩١٤.

وأخطـــر من هذا كلـــه أنه بدأ يكتب في الصحافة. وكان أول ما نشـــر له في ١٧ أغســـطس ١٩١٤ في جريدة «آخر أنباء أوجســـبورج»، وكانت كتابته في ذلك الوقت وطنية بالغة الحماسة تمجد الجيش الألماني وتحثه على الانتصار لتكوين مجد ألمانيا. وهكذا كان برشت وطنيا غيورا وداعية إلى المجد الألماني.

ولم تتغير هذه النزعة إلا ابتداء من سنة ١٩١٦. وقد ظهر ذلك في موضوع إنشائي كتبه في المدرســـة، وكان عن هذه العبارة اللاتينية المشـــهورة: Dulce et decorom est pro patria mori (مـــا أجمل وأعذب أن يموت المرء في ســـبيل الوطن). ولكن الطالب كشـــف في موضوعه الذي كتبه - عن نزعته إلى الســـلام وكراهيته للحرب، فاتهمته إدارة المدرسة «بالانهزامية» وكاد يفصل منها.

انتقل برشـــت إذن إلى منشن للدراســـة في جامعتها، فبدأ في الفصل الدراسي الشـــتوي ١٩١٧/١٩١٨، ولكنه مـــا لبث أن انقطع عن حضـــور المحاضرات، لأنه في خريف ســـنة ١٩١٨ جند للعمل في مستشفى الاحتياطي في أوجسبورج ممرضا في قسم الأمراض الجنسية.

ولقد بالغ برشت كثيرا - فيما بعد - في أثر هذه التجربة في نفسه، وادعى أنها هي التي أوحت إليه بكراهية الحروب وبالنزعة إلى الســـلام، لأنها كانت تجربة هينة لم تســـتمر طويـــلا. ومن المحتمل أن يكون قد انضم آنذاك إلى الحزب الاشـــتراكي - الديموقراطي المســـتقل (راجع وصفنا للأوضاع السياســـية فـــي ألمانيا عند نهاية الحرب، وذلك في مقدمتنا لمسرحية: «طبول في الليل». وقد أكد هو نفسه أنه انتسب إلى مجلس الجنود في أوجسبورج، الذي لم يعش طويلا).

وأخفقت الثورة التي قام بها الاسبارتاكيون (راجع مقدمة: «طبول في الليل» على النحو الذي ســـنبينه تفصيلا). واستأنف برشت دراسته في جامعة منشن، بأن سجل نفســـه أولا في كلية الآداب (قسم الأدب الألماني) ثم بعد ذلك التحق بكلية الطب من جديد. كذلك كان يحضر بعض محاضرات في العلوم الطبيعية وفي اللاهوت.

وكان فـــي تلك الفتـــرة متأثرا بجيورج بوشـــنر Bûchner وفيديكنـــد Wedekind وخصوصا هذا الأخير، وقد كان شـــاعرا وممثلا ومغنيا لبلادان Balladen، ولما مات فيديكند في ربيع ســـنة ١٩١٨ كتب عنه برشت رثاء عميقا متحمسا في جريدة «آخر أنباء أوجسبورج».

وفي ســـنة ١٩١٩ نشر برشت أول مجموعة شعرية بعنوان : Klampfenfibel . ومن جو الهزيمة والجنود العائدين، واليأس المخيم على ألمانيا بعد الهزيمة ومن روح الثورة الاجتماعية التي أضرم نارها اليهود والاسبارتاكيون، استلهم برشت أولى مسرحياته: «بعل»، كما ســـتعرف فيما بعد، تحت تأثير مشـــاهدته لمســـرحية هانز يوست بعنوان «المتوحد»، ثم خصوصا مســـرحيته التالية، «طبول في الليل»، التي تتبع من الأحداث الدامية التي جرت في ألمانيا قبيل الهدنة وفي الشهور التي تلتها .

وتعـــرف إلى الكاتب فويشـــتفانجر Feuchtwanger بين نهاية ســـنة ١٩١٨ وبداية سنة ١٩١٩ في منشن، وسرعان ما تصادقا، واستمرت صداقتهما حتى النهاية . وكانا يعمـــلان أحيانا كثيرة معـــا ، وكلاهما يلهم الآخر . كذلك تعـــرف إلى الممثلة بلاندين إبنجر Ebinger، وإلى المخرج إريش إنجل Engel، والشـــاعر الغنائي يوهانس ر . بشر Becher . وبهـــذا اندمج في الجو الأدبي الفني آنذاك في مدينة منشـــن غداة الحرب العالمية الأولى، ولهذا انصرف عن دراسة الطب والدراسة الجامعية بعامة، حتى ترك الجامعـــة نهائيا في ٢٩ نوفمبر ســـنة ١٩٢١ من دون أن يحصل على شـــهادة، لا في الأدب ولا في الطب.

وتوفيت أمه في أول مايو ســـنة ١٩٢٠ فبدأت روابطه مع أهله وبلده تنحل شـــيئا فشيئا . واستقر به المقام في منشن.

ولكن لم يكد المقام يســـتقر به فيها حتى حاول الاتصال ببرلين، فسافر إليها في ســـنة ١٩٢٠ عدة مرات للاتصال بالناشرين . وفي بيت أوتو زارك Otto Zarek المحرر فـــي «جريدة برلين اليوميـــة» Berliner Tageblatt عرف المؤلف المســـرحي التعبيري أرنولت برونن (أو برونر) فكانت علاقة وثيقة جعلت الأوســـاط الأدبية تتحدث عنهما على أنهما «الأولاد الأشقياء» في الأدب الجديد . وكان ما يجمع بينهما هو ولع كليهما بالاستفزاز والتمرد على الأفكار البورجوازية . غير أن صداقتهما لم تستمر طويلا .

وقبـــل أوتو فالكنبرج تمثيل مســـرحية «طبول في الليـــل» . فعرضت لأول مرة في ٢٩ ســـبتمبر ١٩٢٢ في مسرح Munchner Kammerspiel في منشن . فنجحت نجاحا هائلا وأسست شهرة برشت، حتى قال هربرت إيرنج Ihering : «إن الشاعر الذي في الرابعة والعشرين برتولت برشت قد غير الوجه الشعري لألمانيا بين عشية وضحـاها » .

ومُنح برشت جائزة كلاسيت Kleist. ولكن الناقد الفرد كر Kerr (وهو الاسم المستعار لـ أ. كمبنر A. Kempner) حمل على برشت وشَبَّتْ بينهما خصومة عنيفة استمرت طوال عشرين سنة بعد ذلك.

وكان برشت يشتغل في مسرحية ثالثة هي: «في أدغال المدن» Im Dickicht der Staedte، وقد استوحى فيها «ملاوة في الجحيم» للشاعر الفرنسي الرمزي الشهير أرتير رانبو Rimbaud، وفيها يصور حالة الاعتزال التام التي فيها يعيش سكان المدن ومثلت في مسرح الرزيدنتس Residenz المشهور حتى اليوم في منشن، وذلك في مايو سنة ١٩٢٣. كذلك مثلت مسرحية «بعل» في ٨ ديسمبر من العام نفسه لأول مرة في «المسرح القديم» في ليبتسك، فأثارت فضيحة وضجة عظيمة.

ونقل برشت مقره نهائيا إلى برلين في خريف سنة ١٩٢٤. وهنا تعرف إلى الشخصيات الأدبية والفنية المرموقة آنذاك في برلين: منهم جون هارتفيلد وفيلند هرتسفلده Hertzfelde وجيورج جروس Gross والشاعر كلابوند Klabund وزوجته الممثلة كارولا نيهر Carola Neher، والملاكم المحترف باول سمسون – كيرنر Samson-Kôrner الذي بدأ برشت في كتابة ترجمة حياته ولكنه لم يواصلها بعد الفصل الثالث. كذلك عرف جيورج كايزر Kaiser وألفرد ديبلن، وهما مشهوران في سماء الأدب الألماني. وأهم من هذا كله أنه صار، هو وكارل اتسكماير، من المؤلفين المسرحيين لمسرح ماكس راينهرت الشهير.

وطوال سنة ١٩٢٥ ظل يعمل في مسرحيته التي كان قد بدأها في منشن، وأعني بها الكوميديا «الإنسان هو الإنسان» Mann ist Mann، التي مثلت لأول مرة في ٢٦ سبتمبر ١٩٢٦ في مسرح Landestheater في درمشتات، وموضوعها هو دور الفرد في المجتمع الحديث، وفيها يبين المؤلف أن أي فرد يمكن أن يستبدل به غيره!

وفي هذه الفترة تأثر كل التأثر بمذهب السلوكية Behaviourism في علم النفس الذي دعا إليه واطسون Watson، والذي يقصر الدراسة النفسية على دراسة السلوك الإنساني، أي الأفعال الإنسانية. وعلى الرغم من ذلك لا نجد لهذا المذهب أثرا واضحا في مسرحياته أو قصائده عن تلك الفترة.

على أن ثم شـيئا خطيرا في التطور الأيديولوجي لبرشت جرى آنذاك، أولا، وهو دراسـته المتعمقة للماركسـية، التي بدأها على أبعد تقدير في سـنة ١٩٢٦. فحضر الدروس المسـائية والمحاضرات في مدرسـة العمال في برلين، ودرس نظريات النقد والمضاريات والمناورات في البورصة. وفي هذا المجال كان أكبرُ من أثر فيه شـخصين هما فرتس اشـترنبرج Sternberg وكارل كورش Korsch، وكانا ماركسيين متحمسين، ولكنهما كانا معدودين من المبتدعة في نظر الشيوعيين. وتحت تأثير تلك المحاضرات والدروس وقراءاته الخاصة (التي بدأها فيما يبدو بكتاب «رأس المال» لماركس) تطور فكر برشت في اتجاه الماركسية ببطء ولكن برسوخ، حتى بلغ غايته بعد سنة ١٩٣٠.

وابتداء من نهاية سـنة ١٩٢٥ أخذ برشـت ينشر مقالات نقدية عن وضع المسرح والدراما آنذاك. كذلك كتب مقالات عن شـعراء وكتاب مشهورين سابقين ومعاصرين مثل: روبرت لويس استيفنسـون، وجورج برنارد شو، وتوماس مان، والشاعر الغامض الكبير اسـتيفن جيورجيه George أكبر الشـعراء الألمان في القرن العشرين، وجورج كايزر، وغيرهم. وكان بعضها إطراء، والبعض الآخر لاذعا ناقدا، مما أثار عليه ثائرة البعـض، خصوصا مقاله السـاخر عن اسـتيفن جيورجيه، وقد لقـي ردا عنيفا من رودلف بورشرت Borchardt.

كذلك اتصل برشت بإرفن بسكاتور Erwin Piscator ومسرحه السياسي الذي كان بسـكاتور مديره، وقد جرب بسـكاتور تجارب جديدة في المسرح والأفلام والإخراج، وفي هذا المجال كان له تأثير كبير في برشـت. وشعار «المسرح الملحمي» أو «الدراما الملحمية» إنما يرجع إلى بسـكاتور، أو هو على الأقل أول من جعله ينتشـر ويشـيع. وطبق أول ما طبق على مسـرحية «الرايات» تأليـف ألفونس باكيت Alfons Paquet سنة ١٩٢٤. وساعد برشت على إعداد مسرحيات لمسرح بسكاتور. ومن هذه الأعمال وأهمها قيامه بـ «مَسْـرَحَة» قصة ياروسلاف هاشـك Jaroslav Haschek وعنوانها: «مغامرة الجندي الشـجاع سفيك»، ونص هذه «المسرحية» للقصة موجود في أرشيف برشت في برلين.

ولكن مكانة برشت بوصفه شاعرا لم ترسخ إلا في سنة ١٩٢٧، حين أصدر ديوانه بعنـــوان Hauspostille، وقد تحدثنـــا عنه في كتابنا «في الشـــعر الأوروبي المعاصر» القاهرة سنة ١٩٦٥) فنحيل إليه[١].

وفي نهاية سنة ١٩٢٧ طلق برشت زوجته الأولى، وكان قبل ذلك تعرف إلى الممثلة العظيمة هيلينه فيجل Helene Weigel، التي ولدت في فيينا في ١٢ مايو سنة ١٩٠٠، واشـــتغلت بالتمثيل في برلين من سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٢٦ أولا في «مسرح الدولة» Staatstheater، وبعـــد ذلك في «المســـرح الألماني» الذي يديـــره ماكس راينهرت Max Reinhart. ومثلت أول دور لها في مسرحيات برشت في العرض الأول لمسرحية «بعل»، وبعد ذلك مثلت دور الأرملة بجبك Begbick في مسرحية «الإنسان هو الإنسان»، ومن بعد ذلك في العروض الرئيسية في برلين سنة ١٩٣١. وقد تزوجها برشت في العاشر من شـــهر أبريل ســـنة ١٩٢٨، ووُلد لهما ولد هو اســـتيفن (ولد في ٣ نوفمبر ١٩٢٩)، وهو اليوم فيلســـوف وكاتب حر في نيويورك، ثم بنت، واسمها ماريا برباره (ولدت في ٢٨ أكتوبر١٩٣٠) وهي اليوم ممثلة في فرقة «البرلينر إنسامبل» في برلين. وقد لعبت هيلينه فيجل الأدوار الرئيسية للنساء في مسرحيات برشت، ولا يمكن أن يُنسى دورها الرائع في تمثيل الأم شـــجاعة في مســـرحية «الأم شـــجاعة وأولادها». وهي بدورها أثرت كثيرا في زوجها، حتى قيل إن برشـــت تصور كثيرا من الأدوار النسائية الكبرى في مسرحياته تحت تأثيرها ولتتناسب معها، وكأنها كُيفت من أجلها. وقد توفيت في عام ١٩٧١ في برلين.

وتعاون برشـــت مع الموســـيقي كـــورت فَيل (ولد ســـنة ١٩٠٠) لوضع موســـيقى لمسرحياته. وأثمر هذا التعاون خصوصا في «أوبرا القروش الثلاثة» التي عُرضت في «مسرح رصيف بناة السفن» في برلين في ٣١ أغسطس سنة ١٩٢٨، كما ستعرف في مقدمتنا لهذه المسرحية.

(١) خير دراسة حتى الآن عن شعر برشت هي كتاب: Klaus Schuhmann Der Lyriker Bertolt Brecht. Berlin, Ruetten & Loening, Berlin, DDR, 1964. وقد ظهر في طبعة موسعة ومنقحة في ميونخ سنة 1971 عند الناشر Deutscher Taschenbuch Verlag في ٤١٨ صفحة.

وتناول برشت في سنة ١٩٢٩ موضوع «جيش الخلاص» في مسرحية من مسرحياته الشهيرة، وهي «القديسة جان في المذابح». وتناول موضوع تضحيات الفرد في سبيل مصلحة الجماعة في مسرحيتين: «من يقول نعم»، و«الإجْراء» Die Massnahme، وكتب موسيقى هذه الأخيرة هانز إيسلر Eisler تلميذ أرنولد شينبرج، وكان ذلك أول تعاون بين برشت وبينه. ومسرحية «الإجْراء» تُصَوِّر الانشقاق الرهيب بين المساعدة المباشرة للقريب، والمساعدة النهائية للجميع، مما يخفق فيه مهيج شيوعي شاب.

وفي هذه المسرحية يقر برشت لأول مرة علنا بإيمانه بالنظرية الشيوعية إيمانا مطلقا. وقد شاع بين الناس أيضا أن برشت قد انضم إلى الحزب الشيوعي عضوا رسميا في هذا العام، عام ١٩٢٩. ولكن يظهر أن هذا الخبر غير صحيح. وبرشت في أثناء التحقيق معه في واشنطن في سنة ١٩٤٧ في مسألة نشاطه الشيوعي أنكر إنكارا تاما، وبكل قوة، أنه كان ذات يوم عضوا في الحزب الشيوعي في أي مكان!

وفي سنة ١٩٣٠ كتب مسرحية تعليمية أخرى هي «الاستثناء والقاعدة»، وفيها يبين كيف أنه في المجتمع، العمل الشرير هو القاعدة، وأنه لو وجد عمل صالح في المجتمع فمن الضروري أن يسيء الناس فهمه. ولكن هذه المسرحية لم تنشر آنذاك، بل نشرت لأول مرة في سنة ١٩٣٧.

على أن مسرحية «القديسة جان في المذابح»، وإن أتَمَّها برشت في سنة ١٩٣٠، لم تعرض آنذاك على المسرح، ولم تعرض لأول مرة إلا بعد ذلك بثلاثين سنة في ٣٠ أبريل ١٩٥٩. في هامبورج، أي بعد وفاة برشت بنحو ثلاث سنوات. وذلك أن الدولة منعت عرضها، وكان المقصود بها أن تعرض في «اللاندس تياتر» في درمشتات. ومنعت الشرطة في يناير سنة ١٩٣٣ تمثيل مسرحية «الإجْراء».

ثم جاء هتلر إلى منصب المستشار للرئيس الألماني في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣، فكان ذلك إيذانا لبرشت بأن الدنيا ستكون غير الدنيا، وأن عليه أن يمسك بعصا التشريد والنفي. وكان حريق «الريشتاج» (مجلس النواب) الألماني في ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣ آخر نذير لبرشت. فترك ألمانيا في اليوم التالي هو وزوجته. ولحق بهما ولداهما بعد ذلك بقليل.

سنوات المنفى (١٩٣٣ - ١٩٤٨)

لقد أدرك برشت أنه صار مهددا في عمله، إن لم يكن في حياته. فقد كان يعلم أن اسمه مُدّرج على قائمة المطلوب سجنهم لما قام الانقلاب الفاشل في سنة ١٩٢٣ واشترك فيه هتلر، وكان من البارزين بين المطلوب القبض عليهم غداة نجاح الانقلاب.

ولما أفلت هكذا من ألمانيا قبل أن تقع له الواقعة، اتجه القوم إلى مؤلفاته فأحرقت كلها في ١٠ مايو سنة ١٩٣٣ في الساحة القائمة أمام أوبرا برلين، وبعد ذلك بخمس سنوات تكرر التنديد بها. وفي ٨ يونيو سنة ١٩٣٥ سُحبت من برشت الجنسية الألمانية. ويظهر أن النازية أخذت عليه منذ البداية تحقيره للجيش الألماني في قطعته التي بعنوان «أسطورة الجندي القتيل»، وقد كتبها في مطلع شبابه نحو سنة ١٩٢٠.

ترك برشت ألمانيا إذن هو وهيلينه فيجل، وتوجه أولا إلى براج، ثم مرَّ بفيينا في طريقه إلى زيورخ في سويسرا، وكان فيها في ذلك الوقت جماعة من المهاجرين الألمان، على رأسهم: هيزش مان وأنّا سيجرس، وفلتر بنيامين وليونهرد فرانك.

وكانت المرحلة الثانية في حياة المنفى هي إقامته في جزيرة تورو Thuro في الدنمارك، وكانت قد دعتهما إلى هناك الكاتبة كارين ميكائيلس Michaelis صديقة هيلينه فيجل، فوصل إلى هناك في نهاية يونيو أو أوائل يوليو سنة ١٩٣٣. وفي باريس، في سنة ١٩٣٤ طبع - بالألمانية - ديوان شعره الثاني بعنوان «أغان، وقصائد وكورسات» (مع ألحان هانز إيسلر). كما نشر في أمستردام «قصة القروش الثلاثة» في سنة ١٩٣٤، وفيها استخدام موسع جديد للمادة التي قدمها جون جيي John Gay في «أوبرا الشحاذ»

وهنا في الدنمارك عاش عيشة العزلة متفرغا لعمله. فألف مسرحية «الرؤوس المستديرة والرؤوس المدببة» التي مُثلت لأول مرة في كوبنهاجن في ٤ نوفمبر ١٩٣٦، ثم عرضها مسرحيا بعنوان : «الخوف والبؤس في الرايش الثالث». وكلتا القطعتين هجوم مباشر على النازية. والواقع أن برشت اضطر إلى أن يتخذ موقف المحارب للنازية علنا كلما استطاع إلى ذلك سبيلا : في مؤتمرات الكُتّاب الدولية، وفي مسرحياته في تلك الفترة، ومقالاته، وكان في تلك الأثناء أيضا يقوم بالرحلات إلى

باريس ولندن (أبريل/ مايو سـنة ١٩٣٥). وفي موسـكو التقى بعالم المسرح الصيني، وفيه وجد تحقيقا لما كان يهدف إليه من «المسرح الملحمي».

وفي سـنة ١٩٣٨ بدأت دار النشـر Malik - Verlag نشر مجموع مؤلفات برشت بعنوان Gesammelte Werke في أربعة مجلدات. لكن لـم يظهر منها غير المجلدين الأولين فقط.

وبدأت نذر الحرب العالمية الثانية تلمع في الأفق. فسـافر إلى السـويد في ٢٣ أبريل ١٩٣٩. ومات أبوه في ٢٠ مايو سنة ١٩٣٩.

ولكـن إنتاجـه فـي سـنتي ١٩٣٨و ١٩٣٩، كان غزيرا وممتازا، فلقـد بدأ يضع التحرير الأول لمسـرحية «حياة جاليليو»، في سـنة ١٩٣٨. وفي سـنة ١٩٣٩ بدأ في كتابة مسـرحيتي « الأم شـجاعة وأولادها» و«محاكمة لوكلّـوس» وأتمهما في العام نفسـه، عام ١٩٣٩. وقد مُثلت «الأم شـجاعة» لأول مرة في ١٩ أبريل سنة ١٩٤١ في مسرح زيورخ. كما بدأ في سنة ١٩٣٨ مسرحية «الإنسان الطيب في ستسوان» وأتمها في سنة ١٩٤١، في فنلندا. وهنا في فنلندا أيضا، وكان قد وصل إليها شريدا طريدا في ١٧ أبريل سـنة ١٩٤٠، كتب مسرحية «السـيد بُنْتِلا وخادمه ماتي». واضطر إلى مغادرة فنلندا في مايو سـنة ١٩٤١. وسـافر إلى موسـكو. ولم يقم فيها، بل اخترق سـيبريا، وفي ١٣ يونيو سـنة ١٩٤١ سافر على سفينة شحن سـويدية من الساحل الشـرقي لآسيا متجها إلى أمريكا، وبعد رحلة في المحيط الهادي دامت عدة أسابيع وصل إلى سـاحل كاليفورنيا عند ميناء سـان بدرو في ٢١ يوليو. فلجأ إلى ضاحية من ضواحي لوس أنجلس هي ضاحية سانتا مونيكا، وأقام فيها مع أسرته، وهنا أقام أكثر من ست سنوات.

وفي كاليفورنيا لقي برشـت صديقه القديم ومعاونه في الإنتاج ليون فويشتفنجر Lion Feuchtwanger، وفي خلال هذه السـنوات السـت اشـتغل برشـت في كتابة مخططات أفلام من أجل السـينما في هوليوود، وسـاعده فـي ذلك لانج، وديترلي وكوتنر، وبوزنر، لكن لم ينفذ منها غير مخطط فيلم واحد هو: «حتى جلادو المشـانق يموتـون» Hangmen also die، وموضوعـه هو مقتل هيدركس في تشيكوسـلوفاكيا ومقاومة الشعب التشيكوسلوفاكي ضد الغاصب.

وفي تلك الأثناء عرض مسـرح زيورخ لأول مرة مسرحيتين لبرشت: في ٤ فبراير سـنة ١٩٤٣ عرض مسرحية «الإنسان الطيب»، وفي ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٣ مسرحية «حياة جالليو».

وغادر برشت الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٤٧. واختلف الرأي في أسباب تركه لتلك البلاد. والرأي الشـائع هو أن الذي دفعه إلى ذلك استدعاؤه أمام «لجنة النشـاطات المضادة لأمريكا» Committee on Un-American Activities ومقرها في واشـنطن، وكان من بين أعضائها رتشارد نيكسون، الرئيس الأسبق للولايات المتحدة! وذلك للتحقيق معه في صحة ما ينسب إليه من ميول شيوعية، وقد أعلن أمام اللجنة أنه لم يكن في يوم من الأيام عضوا في أي حرب شـيوعي وتبرأ من الانتسـاب إلى الماركسـية. وقد نشرت أقواله كما سُجلت في التحقيق أمام هذه اللجنة، وسبق أن عرضنا نص معظمها (في مقدمة كتابنا: «مسرحيات برشت» الجزء الأول، التصدير، القاهرة سنة ١٩٦٥). ولهذا برأته اللجنة من تهمة الشيوعية! ولكنه في اليوم التالي ركب الطائرة إلى أوروبا!

وكان هدفـه الأول أن يذهب إلى سويسـرا، فوصل إليها فـي ٥ نوفمبر ١٩٤٧، وأقـام فـي قرية هرليبـرج Herrliberg بالقرب من زيورخ، وهنا التقى بكسـبر نيهر مصور الديكور المسـرحي وصديقه القديم، وبيتر سوركمب Peter Suhrkamp ناشره المعتمد حتى الآن[٢].

وغادر سويسـرا إلى تشيكوسـلوفاكيا ومنها إلى برلـين، فوصلها في ٢٢ أكتوبر ١٩٤٨، فأقـام بقيـة حياته فيهـا. وكان أول أعماله إخراج مسـرحيته الكبرى «الأم شـجاعة»، فعُرضـت في ١١ يناير سـنة ١٩٤٩، ومثلت فيها هيلينـه فيجل دور الأم شـجاعة فأبدعت فيها أيما إبداع، وذلك في «المسرح الألماني» ببرلين الشرقية. ومن هذا العرض نشـأت فرقة «البرلينر إنسـامبل» Berliner Ensemble، التي أسسـت رسـميا في سبتمبر سـنة ١٩٤٩، وتولت رئاسـتها زوجته هيلينه فيجل، بينما اكتفى برشت بمركز «عضو في اللجنة الاستشارية للمسرح». وظلت هذه الفرقة مدة طويلة

(٢) اعتمدنا في هذه الترجمة لمسرحيات برشت على طبعة سوركمب في ثمانية مجلدات فرانكفورت – برلين Suhrkamp Verlag

ضيفة على «المسرح الألماني»، إلى أن اتخذت مقرا لها «مسرح رصيف بناة السفن» ذا التقاليد الفنية العريقة. ومنذ سنة ١٩٤٩ تركز تمثيلها على روايات برشت.

وقامت حكومة ألمانيا الشـــرقية بتهيئة كل أســـباب النجاح والتشـــجيع لهذه الفرقة ولمسرح برشت. وحظي برشت بكثير من ألوان التكريم: ففي سنة ١٩٥٠ عُين عضوا في أكاديمية الفنون، وفي ســـنة ١٩٥٣ اختير رئيســـا لمركز البن Pen (جمعية دولية للأدب: للشـــعراء، ومؤلفي المسرحيات، والناشرين، وكتاب المقالات وكتاب القصص. والحروف الثلاثـــة هي الحروف الأولى لهذه الكلمات بالإنجليزيـــة). وفي ٧ أكتوبر ١٩٥١ منحته الدولة في ألمانيا الشـــرقية الجائزة القومية من الطبقة الأولى، وفي ٢١ ديسمبر ١٩٥٤ حصل على جائزة اســـتالين الدولية للسلام، ولهذه المناسبة سافر إلى موسكو في مايو سنة ١٩٥٥.

وفي وسط هذه الألوان من التكريم فاجأه الموت في ١٤ أغسطس سنة ١٩٥٦ نتيجة نزف في عضلة القلب، ودُفن في مقبرة دوروتيا بالقرب من قبر فشته وهيجل.

* * *

فن المسْرح عند برشت

أراد برشت أن يكون ثائرا على كل ما تواضع الناس عليه من أصول المسرح منذ قعد قواعده أرسطو طاليس في كتابه «فن الشعر»[1]، ونماها النقاد والفلاسفة الجماليون في مختلف العصور حتى سنة ١٩٢٠:

١ - ففي مقابل المسرح التقليدي أنشأ ما دعاه باسم الملحمي episch، وقد سماه بهذا الاسم لأنه أراد من المسرح أن يكون كما كان يُروى في بلاط الأمراء اليونانيين والأمراء الجرمانيين وكأنه ملحمة يستمع إليها المستمع في تجرد بعيد عن الانفعال، واعيا بأن ما يمثل أمامه هو مسرح وليس واقعا حقيقيا. وبرشت يطلب إلى المشاهد ألا «يندمج» في دور الممثل، كما يطلب إلى الممثل ألا «يندمج» في الشخصية التي يمثلها، وهذا تماما عكس ما كان يجري عليه الأمر من قبل: من الحكم على براعة الممثل بالقدر الذي به «يندمج» في الشخصية التي يمثلها، ومن الحكم على المستمع المشاهد بقدر ما ينسى نفسه ويستشعر أنه أمام واقع حي يحياه كأنه أمر مشاهد في الطبيعة. إن برشت يريد من الممثل أن يكون بينه وبين الشخصية «مسافة»، ويريد من المشاهد أن يكون بينه وبين ما يمثل «مسافة».

٢ - وهذه «المسافة» هي ما نعته برشت بنعت «تأثير الأغراب» Verfremdungseffekt (ويختصر عادة إلى V-Effekt)، ويقصد بهذا أن يكون الممثل «غريبا» (أو بعيدا، أو على مبعدة، أو على مسافة) من الشخصية، وأن يكون المشاهد هو الآخر «غريبا» (أو على مبعدة) من المسرحية. وفائدة هذا «الإغراب» أو الكون على مبعدة هي أن يقف كلاهما موقفا نقديا موضوعيا من المسرحية.

وعلينا الآن أن نفصل هذين المعنيين:

---

(١) انظر ترجمتنا له في كتابنا «أرسطو طاليس: فن الشعر» القاهرة، سنة ١٩٥٣.

١ - المسرح الملحمي

ربما يكون من الخير، من أجل فهم خصائص المســرح الملحمي في مقابل المسرح الدرامـــي، أن نقـــدم هذا الجدول الشـــهير الذي وضعه برتولت برشـــت لمســرحية «مهاجوني» Mahagonny وهي الأوبرا التي مثلت للمرة الأولى في سنة ١٩٣٠.

الشكل الدرامي للمسرح	الشكل الملحمي للمسرح
المنظر «يجسد» الفعل، ويشرك الجمهور في هذا الفعل، ويستهلك نشاطه.	يروي الفعل، ويجعل الجمهور مشاهدا، لكنه يوقظ نشاطه.
الشكل الدرامي يزود الجمهور بتجارب.	الشكل الملحمي يزود الجمهور بالمعلومات.
يجعله قابلا للعواطف.	يلزمه باتخاذ قرارات.
المتفرج يجد نفسه في وسط الفعل.	المشاهد يشعر بأنه في مقابل الفعل.
المسرح يؤثر بالإيحاء.	المسرح يؤثر بالحجج.
المشاعر يحافظ عليها.	المشاعر تدفع إلى الفهم.
يفترض في الإنسان أنه معروف.	الإنسان موضوع دراسة.
الإنسان ثابت.	الإنسان متغير وقابل للتغيير.
الاستطلاع يتعلق بالحل.	الاستطلاع يتعلق بالتطور والنمو.
كل منظر متوقف على الآخر.	كل منظر مستقل بنفسه وقائم برأسه.
الأحداث تجري على هيئة خط مستقيم.	الأحداث تجري على هيئة منحنيات.
الطبيعة لا تقوم بطفرات.	الطبيعة تقوم بطفرات.
العالم كما هو.	العالم كما يصير.
ما يجب على الإنسان أن يفعله.	ما لا بد للإنسان أن يفعله.
غرائزه.	دواعيه ودوافعه.
الفكر يحدد الوجود.	الوجود الاجتماعي يحدد الفكر.

ومن هذا الجدول يتبين:

أ - أن المســـرح الملحمي يدعو إلى الفعل، ويزود بالمعارف، مســـتعينا بالحجج، محللا العواطف إلى معان عقلية.

ب - أنــه يدرس الإنســان في أحوالــه، ويجد أنه رهين بهذه الأحــوال، فيتغير إذا ما تغيرت، وبعبارة أخرى يفترض أن الإنسان ليس طبعا ثابتا، بل هو كائن قابل للتغيير إذا مــا تغيــرت ظروفه الاجتماعية أو البيئية. وواضح مــا في هذا من تأثر بمبدأ ماركس المشـــهور، وهو أن المطلوب ليس فهم الإنسان بل تغييره. وعلى هذا سنجد في المسرحيات الملحمية أن أحوال البطل وتصرفاته تتغير بتغير ظروفه الاجتماعية وأحواله المعاشـــية وملابســـات البيئة، بينما نجده في المســـرحيات الدرامية ثابت الطباع، وعن هذه الطباع الراسخة يصدر كل ما يبدر منه من أفعال وتصرفات. ولا تفسير لهذه إلا بذلك الطبع الثابت. وهذه نقطة بالغة الأهمية في مسرح برشت.

جـ - وعن هذه الخاصية تُســـتبط الخاصية الثالثة، وهي أن الأحداث ترســـم خطا مستقيما في المسرحية الدرامية، لأن طبائع الشخصيات ثابتة، بينما هذه الأحداث في المسرحية الملحمية ترسم خطوطا منحنية تتعرج وتدور وتتكسر وفقا للظروف الاجتماعية التي يحيا فيها الأشخاص.

د - وكذلــك تســـتبط الخاصية الرابعة، وهي أن المناظر، لانعــدام الاتصال الثابت، يقــوم كل واحــد منها برأس، وليس مجرد حلقة في سلســـلة كمــا هي الحال في المســـرح الدرامي. إذ إن كل منظر يعبر عن حالة برأســـها وجدت فيها الشخصية وفقــا لإحداثيات اجتماعية ترتبط بها. إن الطبيعة في المســـرح الدرامي لا تقوم بطفرات، لأن ثم منطقا باطنا نابعا من طباع الشـــخصية، أما في المسرح الملحمي فلا طبع ثابت، وبالتالي لا منطق باطن، بل ثم انتقالات مفاجئة، أعني طفرات.

هـــ - ولما كان الوضع الاجتماعـــي (الاقتصادي خصوصا) هو الحاســـم في إحداث التغيـــرات، فإن هذا الوضـــع الاجتماعي هو الذي يحدد الوجـــود، ويحدد الفكر، وعلى العكس في المســـرح الدرامي نجد الفكر هو الذي يحدد الوجود، لأن الفكر - في نظره - هو الذي يغير الواقع الاجتماعي. وفي هذه الخاصية نرى التعارض المشـــهور بين دور الفكر عند هيجل (ويتمثل هنا في المسرح الدرامي)، ودور الفكر عند ماركس (وهو الذي يمثله هنا المسرح الملحمي أو مسرح برشت).

وهذا الفكر، في المســـرح الملحمي، فكر «علمي»، بالمعنى المفهوم في الماركسية حين تتحدث عن الفكر العلمي والاشـــتراكية العلمية. ومن هنا كان الاشخاص يصدرون

فـــي أفعالهم عن دوافع، أي أســباب موضوعية، لا عــن غرائز كما هي الحال في أشخاص المسرح الدرامي.

و - وبســبب هــذه الطفرات وذلك الاســتقلال للمناظر، كثيرا ما نجد مســرحيات برشــت مؤلفة لا من فصــول actes ومناظر acenes كما في المســرح التقليدي أو غير البرشتي، بل من لوحات Tafeln tableaux : فمسرحية «ماهاجوني» تتألف من عشرين لوحة.

ز - كذلك يقوم بدور الفصل بين الفصول والمناظر بعضها وبعض: الأغاني، ولها دور هائل في مســرحيات برشت، يقرب بعض القرب من دور الكورس في المسرحيات اليونانية، ولكنه يزيد عليه كثيرا.

ح - وهنا نجد برشت يثور ضد مذهب فاجنر في دور الموسيقى في الأوبرا والمسرحيات. ذلك أن فاجنر كان يهدف من وراء الموسيقى في الأوبرا والمسرحيات إلى أن تكون عاملا فعالا في إحداث «الســحر» الذي يريد أن يلف فيه المشــاهد وينومه تنويما مغناطيســيا. وقد وضع برشت جدولا موجزا في المقدمة نفسها التي أضافها إلى مســرحية أو أوبرا «ماهاجونــي» Mahagonny بين فيه الفوارق بين مذهب فاجنر وبين أسلوب الأوبرا الملحمية. وهاك هو:

في مذهب فاجنر	في الأوبرا الملحمية
الموسيقى تنعش.	الموسيقى تبلغ.
الموسيقى تبرز ملامح النص.	الموسيقى تفسر النص.
الموسيقى تفرض النص.	الموسيقى تعد النص أمرا مفروغا منه.
الموسيقى توضح وتزين.	الموسيقى تؤكد ذاتها.
الموسيقى تصور حالة نفسية.	الموسيقى تدل على أسلوب العمل.

ولهذا يرفض برشت الموسيقى الخافتة أو المصاحبة فقط للمناظر والتمثيل، ويريد منها أن تبرز بدورها قائمة برأسها، كأنها جزء مستقل قائم برأسه في المسرحية.

وقد جعل برشــت الموســيقى في خدمة المسرح الملحمي في مسرحياته: طبول في الليــل، بعل، حياة إدوارد الثاني ملك إنجلتــرا، ماهاجوني، أوبرا القروش الثلاثة، الأم، والرؤوس المستديرة والرؤوس المحدبة. وكان إدخاله للموسيقى، خصوصا في

المســـرحيات الأولى من هذه، مصدرا لإشـــاعة التنويع والبهجة، وكما قال هو: «إن مجرد وجود الموســيقى، التي أدخلت بعض التغييـــر، كان وحده هجوما على الجو الضيق الثقيل الموجود في المسرحيات ذات النزعة الانطباعية impressionistisch وعلـــى التحيز للمســـرحيات ذات النزعـــة التعبيريـــة expressionistisch. ثم إن الموسيقى فتحت الباب من جديد لشيء لم يكن يسير على ما يرام منذ أمد طويل، ألا وهو: المسرح الشعري... ومن ثم صار الجزء الموسيقي عملا فنيا حقا، وصارت له قيمته الذاتية Selbstwerk»(٢). وفي أوبرا «القروش الثلاثة» التي مثلت في سنة ١٩٢٨ اســـتخدمت الموســـيقى لآفاق عصرية حقا. وكان التجديد الأكثر بروزا هو عزل الألحان الموسيقية. ولفت الأنظارَ إلى هذا التجديد ترتيبٌ شكلي محض هو أن الأوركســـترا الصغير وضع على المسرح بحيث يراه كل جمهور المشاهدين. وكان عزف «الأغاني» يســـبق دائما بتغيير في الإضاءة، وكان الأوركســـترا مضاء، وعلى شاشـــة نهاية المســـرح ظهر عنوان كل لحن، مثلا: «أغنية عبث المجهود الإنساني»، وبأغنيـــة موجزة أفهمت الآنســـة بولي بيتشـــم أهلها أنها تزوجـــت قاطع الطريق ماكهيث. والممثلون كانوا يغيرون في وضعياتهم من أجل الإنشاد. فكان ثم ثنائيات، وثلاثيـــات ومنفردات وخواتيم ذوات جوقات. وكانت القطع الموســـيقية، ومعظمها بلادات Balladen، أنواعا من التأملات الأخلاقية والوعظية.

ط - والمســـرح الملحمي يهتم - قبل كل شـــيء - بســـلوك الناس فيمـــا بينهم، حينما يدل هذا الســـلوك على معنى تاريخـــي اجتماعي، أعني فيما هو أخص خصائص الســـلوك. وهو يعرض مناظر فيها يعمل الناس بحيث يرى المشاهد قوانين حياتهم الاجتماعية بكل وضوح. وفي الوقت نفســـه ينبغي على المســـرح الملحمي أن يحدد العمليـــات الاجتماعية من وجهـــة نظر عملية، يحددها للتمكـــين من التدخل في الحياة الاجتماعية. ولهذا فإن اهتمامه موجه خصوصا نحو الواقع العملي. وعنده أن الســـلوك الإنســـاني ليس ثابتا، بل يتوقف الإنســـان دائما على أحوال سياسية واقتصادية في وسعه دائما أن يغير منها. ولنأخذ لهذا مثلا منظرا فيه رجل يجند ثلاثة آخرين لتنفيذ عملية غير مشـــروعة «الإنســـان هو الإنســـان». فهذا المنظر

---

(٢) Bertolt Brecht: Schriften Zum Theater, III, S. 267. Frankfurt am Main, Suhrkamp Verlag, 1963.

سيصفه المسرح الملحمي بحيث يمكن تصور سلوك آخر لهؤلاء الرجال الأربعة، وتخيل أحوال سياسية واقتصادية أخرى فيها يتكلمون لغة أخرى. وبالجملة فإن المشاهد سيوجد لديه إمكان القيام بنقد للسلوك الإنساني، من الناحية الاجتماعية، ويمثل المنظر كأنه منظر تاريخي. ويجب إذن أن يكون المشاهد قادرا على تقرير مقارنات بين ألوان مختلفة من السلوك. ومن وجهة النظر الجمالية فإن هذا الاقتضاء يعني أن «البادرة» gestus الاجتماعية هي بالنسبة إلى الممثل ذات أهمية خاصة. ومهمة الفن هي تثمير البادرة. (وطبعا المقصود هو مجموع من البوادر ذو دلالة اجتماعية، وليس محاكاة تعبيرية إيضاحية). وفكرة المحاكاة تقوم مقامها فكرة البادرة.

«وتلك ثورة كبرى في فن المسرح. وحتى اليوم لايزال فن المسرح متماشيا مع القواعد التي وضعها أرسطوطاليس من أجل إحداث «التطهير» Catharsis (أي تطهير نفس المشاهد). ووفق قواعد الفن المسرحي عند أرسطو فإن الأحداث تضع البطل في مواقف فيها يبدي عن أعمق أعماق باطنه. وكل الحوادث الممثلة تهدف إلى الدفع به في المنازعات النفسية»[٣].

أما المعنى الثاني الذي عني به برشت فهو تأثير الإغراب Verfremdungseffekt (أو تأثير V اختصارا). وقد استمده برشت من المسرح الصيني. وخلاصته أنه ينبغي منع المشاهد من «الدخول في جلد» الأشخاص الذين يجري تمثيلهم في المسرحية، على حد تعبير برشت. «إن موقف المشاهد، وقبوله أو رفضه، أمام أفعال الأشخاص وأقوالهم، ينبغي ألا ينتسب إلى ميدان اللاشعور، بل أن ينتسب إلى الشعور الواضح». (الكتاب نفسه).

ذلك أن المسرح الصيني كان يستخدم كثيرا من الرموز، مثل أن يحمل القائد على كتفه من الرايات الصغيرة بقدر ما تحت إمرته من فرق، وللإيحاء بالفقر تظهر في مواضع مختلفة من الثوب قطع من ألوان مختلفة مقطوعة في الحرير نفسه، بمنزلة رقع في الثوب، والأشخاص يصورون بالأقنعة فقط، أي باللون، وبعض حركات اليدين تمثل فتح باب بالعنف... إلخ.

---

(٣) برشت: «كتابات عن المسرح» جـ ٣ صـ ٢٧٠ و ٢٧١، فرانكفورت على نهر الماين سنة ١٩٦٣.

وحقيقة تأثير الإغراب تقوم «في أن نجعل من الشــيء، المقصود فهمه، شيئا غير متوقع وغريبا، بعد أن كان معروفا مألوفا معتادا. وما هو مفهوم بطبعه يصبح - على نحو ما - غير مفهوم، وهذا يحدث فقط من أجل أن نجعله مفهوما أكثر[٤]. ومن أجل إحداث هذا التأثير لا بد من كسر الاعتياد، أي جعل الشيء غير عادي أو غير معتاد بعد أن كان معتادا. فمثلا لو قلنا لإنسان: «هل تطلعت جيدا في ساعتك؟» ونحن نعلم أن هذا الإنســان كثيرا ما يتطلع في ســاعته، ولكن هذا الســؤال من شأنه أن يخرج الأمــر من حالة الاعتياد والألفة إلى حالة مــن عدم الألفة وعدم الاعتياد. «والتمثيل الذي ينطوي على الإغراب هو ذلك الذي يمكن من تعرف الشيء الممثل ولكن مع جعله غير مألوف. والمسارح في العصر اليوناني والعصر الوسيط قد لجأت، ابتغاء إحداث تأثير الإغراب، إلى استعمال أقنعة الناس أو الحيوان... وتأثيرات الإغراب هذه تمنع المشاهد من الدخول في جلد الأشخاص»[٥]

وخلاصــة القول أن الهدف مــن «تأثير الإغراب» هو جعل ما هو عادي يبدو غير عادي، وما هو مألوف يبدو غير مألوف، وما هو غير مدهش يبدو مدهشــا، وما هو طبيعي يبدو غير طبيعي.

وتحقيق هذا التأثير، وتأثير الإغراب ، يتم بعدة وســائل، منها: اختيار بلاد نائية مسرحا للأحداث، مثل الصين بالنسبة إلى مسرحية «الإنسان الطيب في ستسوان»، أو فنلندا في مســرحية «الســيد بنتــلا وخادمه ماتي»، وإحــداث صدوع في مجرى الحوادث بواســطة التغيير في الأماكن، وبالاســتعانة بالقصائد والأغاني، وتضخيم الأحداث تضخيما فعليا.

وينعكس مبدأ «تأثير الإغراب» على الإخراج المسرحي فيما يلي:

(أ) الإكثــار مــن الإضاءة على المســرح، حتى لو كان الوقت ليــلا. والاكتفاء في هذه الحالة من أجل الدلالة على الليل برســم قمر على الشاشــة الخلفية. ذلك - كما يقول برشــت - أن ظلال الأصيل تدعو إلى النعــاس، بينما نحن في حاجة إلى

---

(٤) برشت: كتابات عن المسرح جـ صـ ١٧٤.
(٥) برشت أورغانون موجز للمسرح برقم ٤٢.

مشـــاهدين يقظين، بل مســـتوفزين. دعوهم يحلموا في وضح النهار! والقليل من الليل الذي نحتاج إليه بين حين وآخر ستدل عليه الأقمار والمصابيح، كذلك ممثلنا ســـيتمكن من تبين في أي ســـاعة من اليوم نحن، إن كنا في حاجة إلى ذلك. إن الريف في ســـاعة الغروب قد صوره لنا المؤلف المســـرحي في عهد اليصابات في أشـــعار لن يبدع مثلها أي كهربائي، وكذلك الريف نفسه! ولهذا إذن أضيئوا ثمرة عملنا، وليتمكن المشـــاهدون من رؤية المســـتأجرة المهانـــة وهي تجلس على أرض فنلندا[٦] وكأنها أرضها![٧]

(ب) كتابة عبارات ورســـم صور على ستائر أو شاشات في خلفية المسرح، وقد كتبت عليها عبارات تتعلق بالمنظر أو الموقف الذي يجري تمثيله.

(جـ) فصل الأغاني Songs عن سائر الفصول والمناظر واللوحات.

وفي هذا يقول برشت:

«افصلوا الأغاني عن الباقي

وإشارة موسيقية، وتغيير في الإضاءة

وعنوان، وإسقاطات (لصور الأفلام)، ســـتدل على أنه الفن الشقيق[٨] هـو الـذي يدخـل الآن على المســـرح. والممثلون يصبحـون مغنـــين، ويتوجهون إلـى الجمهور فـي مواقف جديدة هم دائما أشـــخاص في المســـرحية، وهم الآن مشـتركـون مـع المؤلف علانية»[٩].

إن الممثلـــين ينبغي عليهم ألا ينتقلوا انتقالا غير محســـوس من الكلام إلى الغناء، بل عليهم بالعكـــس أن يفصلوا فصلا واضحا بين كليهما. ولإبراز هذا الفصل أو الانقطاع ينبغي اللجوء إلى بعض الحيل الفنية المســـرحية مثل تغيير الاضاءة أو العنوان المكتوب[١٠].

(٦) في مسرحية السيد بنتلا وخادمه ماتي، اللوحة السابعة.
(٧) برشت: «شراء النحاس»، الإضاءة سنة ١٩٥١ في «كتابات عن المسرح».
(٨) أي فن الرسم والتصوير.
(٩) برشت: «شراء النحاس»، الأغاني سنة ١٩٥١ في «كتابات عن المسرح».
(١٠) برتولت برشت: أورغانون موجز للمسرح برقم ٧١.

(د) وعلى الممثل نفسه أن يتجنب كل الحيل التي تدعو الجمهور إلى الدخول في جلد الأشخاص الذين يجرى تمثيلهم على المسرح. ومن أجل هذا عليه أن يحافظ على مرونة عضلاته، وأن يكون إلقاؤه خاليا من كل غمغمة كنسية ومن تلك الإيقاعات التي تهدهد الجمهور هدهدة تجعل هذا الجمهور يفقد الإحساس بمعاني العبارات. وإذا مثل دور مجنون فليتحاش أن يكشف عن انطباع بأنه هو نفسه صار مجنونا حقا، وإلا، فأنى للمشاهدين أن يتبينوا ما في المجنون من جنون؟

ولا يحق له أبدا، وفي أي لحظة، أن يسلم نفسه للتحول التام. وأسوأ نقد يمكن أن يوجه إليه هو أن يقال عنه: «إنه لم يمثل دور الملك لير Lear، بل قد كان هو الملك لير بنفسه». وعليه أن يقنع بإظهار الشخص الذي يمثل دوره، أو بعبارة أدق ألا يقنع بأنه يعيشه. لكن ليس معنى هذا أن يظل باردا حين يمثل أشخاصا انفعاليين متحمسين. وكل ما هنالك هو أنه ينبغي على عواطفه ألا تختلط أبدا بعواطف الشخصية التي يمثلها حتى لا يعتنقها الجمهور تلقائيا وآليا. وفي هذه النقطة ينبغي أن ينعم الجمهور بكامل حريته[١١]

* * *

(١١) برتولت برشت: أورغانون موجز للمسرح برقم ٤٧و٤٨

طبول في الليل

تأليف

برتولت برشت

ترجمة وتقديم

د. عبدالرحمن بدوي

العنوان الأصلي للمسرحية :

Bertolt Brecht:
Frühe Stücke
Trommeln in der Nacht

Deutscher
Taschenbuch
Verlag
dtv

مقدمة مسرحية «طبول في الليل»

بقلم المترجم

- ١ -

لفهم هذه المســرحية لا بد من الإحاطــة بالظروف التاريخية التي تجري أحداث المسرحية في إطارها، ظروف ألمانيا عند نهاية الحرب العالمية الأولى في نوفمبر سنة ١٩١٨، وحتى ربيع سنة ١٩١٩.

لمــا أيقنت ألمانيا بالهزيمة، بدأت القوى الثورية اليســارية في إثارة الفتنة، وعلى رأسها الاشتراكيون اليساريون المتطرفون، واليهود. ففي ٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ اندلعت الحركــة الثورية في مدينة كيــل Kiel وابتدأت بتمرد رجال الأســطول. وفي ليلة ٧ إلــى ٨ نوفمبر اندلعت الثورة في منشــن (ميونخ)، وكان كورت إيســنر Kurt Eisner الاشــتراكي المستقل قد طالب في اجتماع حاشد باســتقالة الإمبراطور فلهلم الثاني (غليوم الثاني)، وأعلن سقوط الأســرة البافارية، وكون «مجلس عمال وجنود». وكان لينــين قد بعث بالداعية الشــيوعي يوفه Joffe إلى برلين لإثــارة الجماهير. وأثرت هذه الدعاية في الشــعب الألماني، لأنه ظل طوال أربع سنوات يعاني الحرمان ويبذل أغلى التضحيات بالنفس والمال، طمعا في الانتصار، ولكن ها هي الهزيمة قد حاقت بالجيوش الألمانية في مختلف الجبهات: فالجيوش التي تحت إمرة الأمير روبرشــت البافاري قد انســحبت في نهاية شــهر أكتوبر إلى خط جاندو فالنسيين، والجيوش التي تحت قيادة ولي عهد بروســيا تدافع عن خط لسرَّ La Serre، وفوش يهاجم في جبهة الفلاندر بمســاعدة فرق أمريكية جديدة، وفي موبيج Maubeuge تحاول قوات المارشال البريطاني هيج Haig أن تخترق الجبهة الألمانية. ولئن أفلح الألمان في حركة الانســحاب إلى جبهة تمتد بين أنفرس وبروكسل وشارلروا ومزيز، فإن الخطر كان لايزال مســتمرا. فإن فوش اســتعد لحملة على اللورين، واتجهت حملتان إلى ميونخ من النمسا: إحداهما عن طريق وادي إن Inn والثانية عن طريق زالتسبورج.

ولم تجد الحكومة الألمانية بدا من التسليم بأن الهزيمة النهائية على الأبواب. وطالب شيدمان، الاشتراكي في الحكومة، باستقالة الإمبراطور. وأمام انهيار الجيش الألماني، سنده الرئيسي، اضطر الإمبراطور إلى الاستقالة في ٩ نوفمبر. وفي اليوم نفسه أعلن شيدمان الجمهورية، وفر الإمبراطور فلهلم الثاني إلى هولندا. وتوالت استقالات اثنين وعشرين أميرا. وفي صبيحة يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٨ كون الحزبان الاشتراكيان الألمانيان مجلسا موقتا، مؤلفا من ستة مندوبين عن الشعب، وكلهم من الاشتراكيين: فمن الاشتراكيين أصحاب الأغلبية كان إيبرت Ebert وشيدمان Scheidemann، ومن المستقلين كان هازه Haase الذي اغتيل بعد ذلك ببضعة أشهر. ولم يدخل الحكومة الثورية الجديدة كارل ليبكنشت Karl-Liebknecht زعيم الحركة السرية التي أطلقت على نفسها اسم «جماعة اسبارتاكوس»[1] Spartakusbund في سنة ١٩١٦، وأخذت تبث الدعاية لوقف الحرب. وقد أعلن مندوبو الشعب هؤلاء حق التصويت للألمان من الرجال والنساء الذين يتجاوزون العشرين، وأن مدة العمل اليومي هي ثماني ساعات، وأعلنوا اشتراكية الصناعات، وتشكيل مجالس عمال تشارك في إدارة الأعمال والمصانع.

غير أن حالة من الفوضى الشاملة قد عمت أرجاء ألمانيا: فاندلعت الثورات وانهارت النظم، ولم يتعد سلطان حكومة برلين برلينَ نفسها. وصارت ألمانيا، على حد تعبير شيدمان نفسه، مجرد «مستشفى مجانين». وفي شرق ألمانيا وقعت المصادمات مع البولنديين، وفي بوزنان وبروسيا الشرقية ثار البولنديون ضد السيطرة الألمانية، ومنذ نهاية شهر ديسمبر سنة ١٩١٨ أعلن ضم هذه المناطق الشاسعة إلى جمهورية بولندا. وفي الغرب والجنوب ثار الناس على «سيطرة برلين»، وصاحوا: «لنتحرر من برلين»! Los von Berlin، وظهرت حركات انفصالية في مناطق الرين والألب.

(١) اسبارتاكوس Spartacus: زعيم الأرقاء الثائرين في إيطاليا. وقد جمع حوله في سنة ٧٣ قبل الميلاد جماعة من المصارعين من كابوا، وانضم إليه جيش حقيقي من العبيد المتمردين. وأصله من تراقيا، قد ولد حرا، لكنه صار عبدا نتيجة لفراره من الفرقة التي كان يخدم فيها. وقد احتاج أمر إخماد هذه الثورة إلى عدة سنوات. ولم تخمد إلا بعد معارك طاحنة خاضتها الجيوش الرومانية بقيادة كراسوس، وانتصرت نهائيا على هذه الثورة في سنة ٧١ قبل الميلاد في معركة قتل فيها اسبارتاكوس.

وفـــي الغرب من ألمانيا عادت فلول الجيوش الألمانية من فرنســـا وبلجيكا، ولكنها بدأت في التمزق: فراح الجنود يتركون فرقهم من دون انتظار أوامر التسريح الرسمي. وتشـــكلت في كل مكان «مجالس جنود» إلى جانب «مجالس العمال»، واســـتولوا على السلطات والمسؤوليات. وفي برلين تشكلت «اللجنة التنفيذية للمجالس»، وادعت أنها الحاكمة في كل ألمانيا، وتدخلت في شـــؤون الحكم من دون أن يحســـب أي حســـاب للحكومة في برلين. ودب الشقاق بين المجموعات الاشتراكية.

هنالك تحركت حكومة إيبرت لتخمد هذا الاضطراب الشامل. فتفاهم إيبرت Ebert سرا مع الجنرال جرينر Groener الذي خلف الجنرال لودندورف، بقصد القضاء على الحركة الثورية. وفي هذا السبيل رأى دعوة الجمعية التأسيسية الوطنية لتحل محل مجالس العمال والجنود. واســـتعان في هذا أيضا بالنقابات، وكانت تضم الملايين من العمـــال. وهذه النقابات انضمت إلى موقف المعتدلين ضد الثوريين المتطرفين، وبدلا من الدعوة إلى «صراع الطبقات» نادت بـ «المشاركة في العمل»، بالتعاون بين الأجراء ورأس المال. ومنذ ١٥ نوفمبر نشـــأ تنظيم هائل، اجتمع فيه ممثلو النقابات العمالية وأصحاب الأعمال، وقد قصد منه إلى استمرار النشاط الاقتصادي العادي.

لكن «جماعة اســـبارتاكوس» بزعامة ليبكنشـــت، وروزا لكســـمبورج، هذه المهيجة المثيرة للفتن، عارضوا دعوة جمعية تأسيســـية من شـــأنها أن تأتي بنظام بورجوازي معاد للثورة الاجتماعية. وطالبـــوا بالدكتاتورية الكاملة لطبقة الأجراء (البروليتاريا) وتشييد نظام من «مجالس العمال» على غرار نظام السوفييتات.

وأفلحت الاشتراكية الديموقراطية (أو الديموقراطية الاشتراكية) في دعوتها إلى انتخـــاب جمعيـــة وطنية، واجتمعت هذه في ١٩ يناير ســـنة ١٩١٩. لكن كان الدم قد بدأ قبل ذلك يســـيل بغزارة. ففي ٦ ديســـمبر سنة ١٩١٨ نشبت معركة في برلين قُتل فيها ستة عشر. وفي ٢٣ و ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٨ وقع الصدام بين الجيش الرسمي والبحارة الثائرين. غير أن الاشـــتراكيين المستقلين فزعوا من العنف الذي لجأت إليه الحكومة، فانســـحبوا من «مجلس مندوبي الشـــعب»، ولم يبق فيه غير الاشتراكيين الديموقراطيين، وعلى رأســـهم نوســـكه Noske– وكان في الأصل نجارا – الذي صار حاكما لبرلين. وقام نوسكه هذا بإثارة حمية البقية الباقية من الجيش الألماني القديم من أجل القضاء على حركة الاسبارتاكيين.

ثم كان «الأسبوع الأحمر» في برلين من ٦ إلى ١١ يناير سنة ١٩١٩. وفيه انطلقت كل القوى الثورية المتطرفة وعلى رأسها الاسبارتاكيون والمستقلون الذين احتلوا مقار الصحف الكبرى (حي الصحافة كما يسمى في مسرحية برشت هذه). لكن تولت الحكومة بمعونة الجيش القضاء على هؤلاء الثوريين المتطرفين، فسقط منهم المئات العديدة في معارك في الشوارع. ثم كان اغتيال ليبكنشت وصاحبته روزا لكسمبورج بعد ذلك ببضعة أيام هو النهاية لهذه الحركة الثورية. وهكذا وبعد شهور قليلة انزاح نهائيا خطر الشيوعية، بعد أن كان لينين، وقد انتصر في ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ في روسيا، يمني نفسه أوسع الأماني من انتصار الشيوعية في ألمانيا، ومن ثم يمتد ثم يمتد إلى سائر أوروبا[٢].

- ٢ -

وهذه الأحداث كلها تفترضها هذه المسرحية التي تصور جنديا عائدا من الحرب بعد أن انقطعت أخباره طوال أربع سنوات عن خطيبته «أنا»، فيئست هي الأخرى، وانعقدت أواصر العلاقة بينها وبين فتى يدعى فريدرش مورك، كان عاملا، واستطاع الاستفادة من ظروف الحرب حتى كون ثروة كبيرة. وعلى الرغم من أن «أنا» Anna لم تكن تحمل له أي حب، فقد تطورت العلاقة بينهما إلى حد أنها أثمرت جنينا في أحشائها. وكان لا بد من عقد الزواج. وتم الاتفاق على عقد الخطبة في مساء يوم به تبدأ المسرحية. لكن في الليلة ذاتها عاد أندرياس كراجلر، الجندي الحبيب المفقود منذ أربع سنوات، وحضر إلى بيتها. وعلم أنها ستعقد خطبتها بعد قليل في بار

(٢) لمزيد من الاطلاع راجع عن هذه الفترة:

a. M. Baumont et Marcel Berthelot: L'Allemagne. Lendemains de guerre et de révolution, Paris, 1922;
b. Albert Rivaud: Le relévement de l'Allemagne 1918-1938; Paris, 1938.
c. Hohfeld: Geschichte des deutschen Reiches, 1871-1926; Leipzig, 1926.
d. M. Baumont: La Faillite de la paix, 1918-1939. Coll. Peuples et civilisations. PUF, 1951, Paris.

بيكادلي، فراح إلى هناك. وهناك شـــاهدته أنا، ودارت مناقشات حامية بين كراجلر وبينهـــا وبين الخطيب الجديد مـــورك. وعلى الرغم من أن «أنــــا» مالت إلى حبيبها القـــديم، فقد رأت أن ثم ما يحول بينهما، هو هذا الجنين الذي تحمله في بطنها من ذلك الشـــخص الآخر، مورك. فيُســـقَط في يد كراجلر، ويهيم على وجهه. وفي تلك الليلـــة، ولا بد أن ذلك كان في «الأســـبوع الأحمر» (٦ - ١١ يناير ســـنة ١٩١٩)، كان الاسبارتاكيون يحتلون حي الصحافة. فلم يجد كراجلر مخرجا، وهو اليائس البائس، إلا أن ينضم إلى الثوار - في أي صف، لا يخبرنا المؤلف. و«أنا» من ناحيتها لم تشأ الاستمرار في خطبة لا يهفو قلبها إليها، فراحت تبحث عن كراجلر، ويلتقيان أخيرا، فيصرفه هذا اللقاء عن الإقبال على مغامرته الثورية، لأنه لا يريد أن يكون مرة أخرى ألعوبة في أيدي الآخرين، وكفاه تجربته الأولى ألعوبة في أيدي مثيري الحروب، «لقد جاء الآن دور السرير، السرير الواسع الكبير الناصع البياض» كما قال داعيا «أنَّا» إلى الذهاب معه للعيش بسلام، والمحافظة على سلسلة نسبه.

- ٣ -

والمســـرحية إذن سياسية تتعلق بأحداث جارية ساخنة، وقد ألفها في أوجسبورج مســـقط رأسه، في ســـنة ١٩١٩، وهو في الحادية والعشـــرين. ومُثلت لأول مرة في منشـــن، في ٢٩ فبراير سنة ١٩٢٢، بإخراج فالكنبيرج O. Falkenberg، ومثل إ. فابر E. Faber دور كراجلر.

وكان برشـــت يريـــد أن يكـــون عنوانهـــا «اســـبارتاكوس»، ولكنـــه عدل عـــن ذلك. والعنوان الجديد «طبول في الليل» يدين به برشـــت لصديقه ليون فويشـــتفانجر Lion Feuchtwanger القصصي والمؤلف المســـرحي الذي كان يكبره بأربع عشرة سنة، وكان برشت قد تعرف إليه في نهاية سنة ١٩١٨ وبداية سنة ١٩١٩ في منشن، فتصادقا صداقة استمرت حتى النهاية، وكثيرا ما كانا يعملان معا، ويلهم كل منهما الآخر أو يستلهمه.

ولما أراد برشـــت أن ينقح المســـرحية من أجل طبعتها النهائية بعد ظهورها بأربع وثلاثين سنة، كتب يقول:

«مسرحية طبول في الليل هي من بين مسرحياتي الأولى أشدها التباسا. فالتمرد ضد اصطلاح أدبي مذموم قد أدى، في هذه الحالة، إلى إدانة حركة اجتماعية كبيرة. لقد كان من شأنه التسيير العادي، أي الاصطلاحي، للحكاية، أن يجعل الجندي العائد من الحرب، والذي انضم إلى الثورة، لأن حبيبته خُطبت إلى شخص آخر، إما أن يسترد حبيبته أو يتخلى عنها نهائيا، وفي كلتا الحالتين يستمر منخرطا في الثورة. وفي مسرحية طبول في الليل، مع ذلك، يسترد الجندي كراجلر حبيبته، على الرغم من أنه أهين، ويدير ظهره إلى الثورة ويتخلى عنها. ويبدو هذا أخسَّ الأوضاع الممكنة، خصوصا أنه يمكن أن يستدل منه على أن هوى مؤلف المسرحية هو مع هذا الحل.

وهأنذا أرى اليوم، أن روح المناقضة عندي قد أفضت بي إلى حدود اللامعقول، وإني لأكبت الرغبة في أن أنعت هذه الروح بأنها الشباب، لأني آمل أن تكون لاتزال لدي حتى اليوم من دون نقص.

والتصورات الدرامية في ذلك العهد، بدعواتها العريضة «للإنسان»، وحلولها المصطنعة غير الواقعية، كانت كريهة إلى نفس طالب البيولوجيا الذي كنته آنذاك. وكانوا يبتكرون من الهواء مجموعة من الناس «الطيبين» غير المحتمل وجودهم، ولا أثر لهم على كل حال، لأنها كانت تزعم، بنوع من الإدانة الأخلاقية، أنها قادرة على القضاء نهائيا على الحروب، والحروب في الواقع ظواهر معقدة مغروزة بعمق في النظام الاجتماعي.

ولم تكن لدي عن الثورة الروسية غير معلومات غامضة جدا... ويبدو أن معلوماتي لم تكن كافية كي تمكنني من فهم أهمية الثورة البروليتارية التي وقعت في شتاء سنة ١٩١٨ - سنة ١٩١٩ (في ألمانيا): وإنما كنت أرى فقط أن مشاركة فتاي «البطل» في هذه الثورة لم يكن بالأمر الجاد. والذين بدأوا الصراع كانوا من الأجراء (البروليتاريا)، وهو استفاد منها. وهم، من أجل الثورة، لم يحتاجوا إلى فقد أي شيء، وهو كان يمكن تعويضه. وكانوا مستعدين لحل مشكلته بواسطة مشاكهلم، ولكنه تخلى عن قضيتهم... كل هذا كنت قد أدركته آنذاك، لكنني لم أفلح في إبراز الثورة للمشاهد إلا بعيني «بطلي» كراجلر، ثم إن الثورة كانت مغامرة رومانتيكية...

ولم يكن من حقي (وأنا أعيد النظر في المسـرحية) أن أمس بالتغيير شـخصية كراجلر، الذي يجسـد البورجوازي الصغير. وكان لا بد أيضا من الاحتفاظ بالاطراد النسـبي الذي ظفر بـه موقفه... غير أني قويت الجانب المعـارض، بأن أضفت إلى صاحب الحانة جلوب ابن أخ، كان عاملا شـابا ثوريا سـقط صريعا في أحداث أيام نوفمبر. وهذا الشـخص، وإن كان باهت الشـخصية هنا، هـو بمنزلة مقابل موازن للجندي كراجلر.

وأرجو أن يتمكن القارئ أو المشـاهد من أن يحوّل إلى كراهية ما استشـعره من عطف نحو بطل المسرحية، من دون أن يساعده على ذلك تأثير الإغراب».

وقد اعتمدنا في هذه الترجمة على هذه الرواية المنقحة للمسـرحية، كما أقرها برشـت في مارس سنة ١٩٥٤، حين أعدها للطبع لدى الناشر سوركامب Suhrkamp (فـي فرانكفورت). على أن هذه الصورة المنقحة لا تختلف عن الصورة الأصلية التي ألفها برشت في سنة ١٩١٩ إلا في بعض جمل قليلة في الحوار الأخير، هي تلك التي تشير إلى ابن أخي جلوب. وإذن فالتعديلات هينة جدا.

وقد حصل برشت على جائزة كليست عن هذه المسرحية.

* * *

شخصيات المسرحية

أندرياس كراجلر	Andreas Karagler
أنا باليكه	Anna Balicke
كارل باليكه: أبوها	Karl Balicke
أماليا باليكه: أمها	Amalie Balicke
فريدرش مورك: خطيبها	Friedrich Murk
بابوش: صحافي	Babusch
رجلان	
جلوب: تاجر خمور	Globb
مانكه: نادل في بار بيكادلي	Manke
أخوه ويدعى: مانكه - حب - العنب	
رجل مخمور	
بولتروتر: بائع صحف ينادي عليها	Bulltrotter
أوجستا، ماريا: مومسان	Augusta, Marie
لار: فلاح	Laar
عامل	
خادمة	
الممثل نفسه يمثل دوري الأخوين مانكه	

(الكوميديا تجري أحداثها خلال ليلة من ليالي شهر نوفمبر، من الغروب حتى الفجر).

الفصل الأول

(أفريقيا)

في بيت آل باليكه

(غرفة مظلمة. في النوافذ ستائر من التُّل. وقت الغروب)

باليكه : (يحلق ذقنه أمام النافذة) مضت أربع سنوات منذ أن اعتبر مفقودا. لن يعود الآن. لا ندري ما يخبئه لنا المستقبل. الرجل يساوي الآن وزنه ذهبا. وأنا منذ عامين كنت سأبارك ذلك. لكن عاطفتك اللعينة غلبتني على أمري. والآن عليّ أن أمشي على جثث.

السيدة باليكه : (أمام صورة فوتوغرافية لكراجلر بزيّ جندي المدفعية، وهي معلقة على الحائط) لقد كان رجلا طيبا، لطيفا، طفلا حقا.

باليكه : إنه الآن يتحلل.

السيدة باليكه : آه لو عاد!

باليكه : لا أحد يعود من السماء.

السيدة باليكه : بحق كل القديسين في النعيم، ستلقي بنتنا أنًّا بنفسها حينئذ في الماء!

باليكه : إذا كانت تقول هذا، فهي إوزة، وأنا لم أشاهد حتى الآن إوزة في الماء.

السيدة باليكه : إني أراها في ذبول(*).

(*) الترجمة الحرفية: تبدو لي كأنها تبصق في بحر.

باليكه : مــا عليها إلا أن تكف عن التهام لدائن التوت والرنجة على طريقة بســمرك! إن مورك Murk شاب ممتاز، وعلينا أن نحمد الله راكعين على أنه بعث إلينا به.

السيدة باليكه : إنه يكســب أموالا، هذا حق. لكنه لو قورن بالآخر! عيناي تغروروقان بالدموع!

باليكه : لو قورن بجثة؟ أكرر لك: إما الآن، أو أبدا. ماذا تنتظر هي. البابا؟ ربما تنتظر زنجيا؟ شبعت من هذه القصة.

السيدة باليكه : ولــو عادت هذه الجثة التي تتحلل، كمــا تقول، لو عاد من الجنة أو من النار؟

(اسمي كراجلر) فمن ذا الذي سيقول له حينئذ إنه ليس إلا جثة، وإن خطيبته تنام في سرير شخص آخر؟

باليكه أنا ســأكلمه، أنا! وإلى أن يقع شيء من هذا القبيل اذهبي أنت وقولي لتلك البنية: كفــى هــذا. وســنعزف مــارش الزفاف، وزفافها ســيكون إلى مورك. لو قلت أنا لها هذا، لأغرقتنا بالدموع. حسن، الآن أشعلي النور، من فضلك!

السيدة باليكه : أنا ذاهبة لإحضار المشَــمّع. بدون نور أنت تجرح نفســك دائما.

باليكه : الجرح لا يكلف شيئا، أما النور... (ينادي) أنَّا!

أنّا : (عند عتبة الباب) ماذا تريد يا أبتاه؟

باليكه : أرجوك أن تصغي إلى ما ستقوله لك أمك، ولا تأخذي في النحيب في أجمل يوم في حياتك.

السيدة باليكه اقتربي يا أنّا. أبوك يلاحظ عليك أنك شاحبة جدا، كأنك لا يغمض لك جفن طوال الليل.

أنّا بلى، أنا أنام.

السيدة باليكه اسمعي، الأمر لا يمكن أن يستمر هكذا إلى الأبد. الآن هو لن يعود.

(تشعل شموعا)

باليكه : ها هي ذي بدأت تبدي عن عيني التمساح!

السيدة باليكه : كان أمرا فظيعا بالنسبة إليك، ولقد كان رجلا طيبا، لكنه الآن مات.

باليكه : دُفِن وتحلل.

السيدة باليكه : كارل! ولديك الآن مورك، وهو رجل مجتهد، سعيد الحظ.

باليكه : ماذا تريدين أكثر من هذا؟

السيدة باليكه : إذن عليك، في نظري، أن تقولي «نعم» أمام الله.

باليكه وخصوصا لا نريد منك أن تمثلي أمامنا هزلية.

السيدة باليكه عليك أن تتخذيه زوجا أمام الله.

باليكه (غاضبا هائجا لأنه لا يستطيع أن يلصق المشمع على صدغه) بحق الشيطان، هل تحسبين أن من الممكن اللعب بالكرة هكذا مع الفتيان؟ قولي «نعم» أو «لا». أما أن ترفعي بصرك نحو السماء فهذا بلاهة.

أنّا : إي، بابا!

باليكه : (متذمرا) هكذا! والآن خذي في البكاء، هَيّا، قد فتحت السدود، سأضع حالا طوق النجاة.

السيدة باليكه : مورك هذا، ألا تشعرين نحوه بأي حُب؟

باليكه : هذا بكل بساطة يتنافى مع الأخلاق الحميدة.

السيدة باليكه : اسمع يا كارل! قولي لي يا أنّا، ألا تستشعرين ذرة من الحب لفريدرش هذا؟

أنّا بلى! لكنكما تعلمان جيدا حقيقة الأمر، ثم إني أشعر بتقزز...

باليكه أنا لا أعلم شيئا. وإني أكرر لك: الشاب تحلل وأكله الدود، وهيكله العظمي انقسم إلى قطع صغيرة! ثلاث سنوات!

وكل طاقم المدفعية الذي كان فيه قد طار! في الهواء! وتمزق إربا إربا! مفقود! وسيكون عجيبا من يخبر أين ذهب! كل هذا ناشئ عن خوفك اللعين من الأشباح. اتخذي إذن زوجا، وهنالك لن تخشي من أي شبح، إبّان الليل. (يذهب ناحية أنّا، ويصيح بصوت مرتفع) هيّا، هل أنت فتاة شجاعة، نعم أو لا؟ اقتربي قليلا.

(يسمع قرع)

أنّا : (مرتاعة) إنه هو.

باليكه : احتجزيه في الخارج وهيئيه!

السيدة باليكه (عند الباب، وفي يدها سلة الغسيل) أليس عندك شيء للغسل؟

أنّا بلى. كلا. كلا، أعتقد أنه ليس عندي شيء.

السيدة باليكه : ولكن اليوم هو اليوم الثامن.

أنّا : الثامن، حقا؟

السيدة باليكه : طبعا، الثامن.

أنّا : ثم ماذا؟ وحين نكون في اليوم الثامن عشر؟

باليكه : فيمَ تثرثران هكذا عند الباب؟ تعالي هنا.

السيدة باليكه : فتّشي عما إذا كان عندك شيء للغسل.

(تخرج)

باليكه : (يجلس، يضع أنّا على ركبتيه) امرأة بدون رجل، هذه معصية في حق الله. هذا الفتى الذي أرسلوه إلى الجبهة أنت في شوق إليه. ليكن. لكن هل أنت تتذكرين وجهه؟ ليست لديك عنه أي فكرة، يابنيتي. موته جعل منه مانيكان احتفالات. ازداد جمالا طوال ثلاثة أعوام، وإذا لم يكن قد مات، فسترين أنه يختلف تماما عما تتخيلينه. على أنه

تحلــل، وأؤكد لك أن منظره كريه: لم يعد لعشــيقك أنف. لكنك تفتقدينه. حســن، إذن اتخــذي رجلا آخر. الطبيعة تريد هذا. أترين؟ ستشعرين، حين تستيقظين، في الصباح، بأنك مثل الأرنب في حقل كرنب. وأنت لاتزال لك أطراف سليمة وشهية! وليس في هذا معصية لله، أؤكد لك.

أنّا : لكنني لا أســتطيع أن أنســاه! أبدا! أنت تريد أن تقنعني، لكني لا أستطيع!

باليكه : خذي مورك، وسينسيك الفتى الآخر.

أنّا : أنــا أحبه، وذات يوم لن أحب غيره، أما الآن، فإني لم أصل إلى هذا الحد.

باليكه أوه، ســيجعلك تغيريــن فكرك، بشــرط أن يكون له عليك ســلطان كامل. أتفهمينني؟ وهذه الأمــور خير حل لها هو الــزواج. لا أســتطيع أن أشــرح لك هذا، فأنــت لاتزالين صغيرة.

(يدغدغها) إذن: اتفقنا؟

أنّا : (تضحــك مع شــيء من التكلــف) لا أدري هــل فريدرش يريد.

باليكه : يا امرأتي، تعالي.

السيدة باليكه : تفضل، في الصالون. ادخل، أرجوك، يا سيد مورك.

باليكه : مساء الخير، يامورك! ماذا بك؟ يبدو عليك كأنك جثة على الماء!

مورك الآنسة أنّا.

باليكه ماذا بك؟ هل حدث لك حادث أليم؟ كيف يكون المرء شاحبا كل هذا الشــحوب، ياصاحبي؟ ربما كان الســبب طلقات النار التي تســمع في الهواء في الســماء. (صمت). يا أنّا، اهتمي به.

(يخرج هو وزوجته بانطلاق)

أنّا : ماذا بك يافريدرش؟ أنت شاحب اللون جدا .

مورك : (مستتشقا) أهذا الشراب من أجل الخطبة؟ (صمت). هل جاء أحد؟ (يذهب ناحية أنّا) قولي لي، هل جاء أحد؟ لماذا صرت بيضاء كالغسيل؟ من الذي أتى؟

أنّا : لا أحد . لم يأت أحد . لكن ماذا بك أنت؟

مورك : إذن لماذا كل هذه العجلة؟ لا تروي لي حكايات. إن كان هذا يسره! لكني لا أخطب في مثل هذا المحل.

مورك : العجوز. عين السيد تجعل المواشي تسمن! (يتجول في الغرفة في قلق) آه، ثم ماذا؟

أنّا أنت تتصرف كأن أبويّ هما الحريصان عليها. والله يعلم أنهما غير حريصين عليها أبدا. هذا، لا! فاهم؟

(تقرقع بأظافرها)

مورك : قولي لي، متى قمت بأول تناول؟

أنّا : أريد فقط، أن أقول إنك تأخذ الأمور بنوع من الاستخفاف.

مورك : آه، صحيح! الآخر؟

أنّا : أنا لم أتكلم عن الآخر.

مورك : لا ، لكنه دائما حاضر، في مكان ما، يتجول حولنا .

أنّا : معه كان الأمر مختلفا تماما . إنك لا تستطيع أن تفهم. لقد كان الأمر معه على المستوى الروحي.

مورك وبين كلينا نحن، ماذا هو؟ جسديّ؟

أنّا بيننا لا يوجد شيء أبدا .

مورك لكن الآن، هناك شيء مع ذلك!

أنّا ماذا تدري عن هذا؟

مورك	:	آه عمّا قليل سأجعلك تغنين أغنية أخرى.
أنّا	:	مجرد كلام.
مورك	:	لكني سأطلب يدك.
أنّا	:	هل هذا تصريحك؟
مورك	:	لا، سيأتي بعد.
أنّا	:	على كل حال، إن كل ما لديك لتقدمه إليّ هو مصنع سلال ذخيرة.
مورك	:	يا لك من عفريتة! ألم يشعروا بشيء في الليلة الماضية؟
أنّا	:	أوه! فريدرش! إنهما ينامان نوما عميقا. (تلتصق به)
مورك		أما نحن.. فلا.
أنّا		يا شقيّ!
مورك		(يجذبها إليه ويقبلها، لكن بغير حرارة) يا عفريتة!
أنّا	:	صه، اسكت! قطار يسير في الليل. أتسمعه؟ أحيانا أخشى أن يأتي. وهذا يسبب لي عرقا باردا يسيل على ظهري.
مورك	:	من؟ المومياء؟ أنا كفيل به. لكني أقول لك: لا محل لهذا الفتى فيما بيننا. لا أريد أن يكون بيننا على السرير جيفة. أنا لا أحتمل أي منافس، فاهمة؟
أنّا	:	لا تغضب. يا فريدرش، اصفح عنّي.
مورك	:	دائما صاحبك أندرياس؟ رُؤى! حين نتزوج سيكون ميتا مثلما كان في يوم دفنه. أتراهنين؟ (يضحك) أنا أراهن: ولد.
أنّا		(وهي تخفي وجهها في صدره) أرجوك! لا تقل مثل هذه الأشياء.
مورك		(بصراحة) سأشعر بالضيق! (نحو الباب) تستطيعين الدخول يا ماما! مساء الخير يا بابا!

السيدة باليكه (وهي عند الباب) يا أولاد! (تأخذ في التنهد) هكذا، بدون تحفظ!

باليكه ولادة عسرة، أليس كذلك؟ (عناق وانفعالات عامة)

مورك توأمان. والزفاف، متى؟ الوقت من ذهب.

باليكه بعـــد ثلاثة أســـابيع، لو أردتما! الســـرير جاهـــز، يا ماما، العشاء.

السيدة باليكه حالا، حالا! لكن دعني آخذ نَفَســـي (تخرج). هكذا، بدون تحفظ!

مورك اسمحا لي بأن أدعوكما إلى الشراب في بار «بيكادلي». أنا من أنصار الخطبة الفورية. وأنت يا أنّا؟

أنّا إذا لزم الأمر!

باليكه لكن يمكننا عمل هذا هنا! لماذا الذهاب إلى بار «بيكادلي»؟ ما هذه الفكرة الغريبة؟

مورك (قلقا) لا، ليس هنا. هنا، لا يمكن.

باليكه ما معنى هذا؟

أنّا إنه غريب الأطوار. تعالوا إذن إلى بار «بيكادلي»!

باليكه في ليلة كهذه؟ المرء يخاطر هكذا بحياته!

السيدة باليكه (تدخـــل مع الخادمـــة التي تحضر الحســـاء) نعم يا أولاد! أي مفاجأة! لكن كل شـــيء يجوز أن يحصل. إلى المائدة يا سادة!

(يأكلون)

باليكه (رافعا رأسه) على صحة الخطيبين! (تُقرع الكؤوس) الأيام لا أمـــان لها. الحرب انتهت. يا أماليا، هذا الخنزير المحمَّر كثير الدهن! تسريح الجنود يؤدي إلى مزيد من الاضطراب، والنهب، والحيوانية في واحات العمل الهادئ.

مورك : تحيا سلال الذخيرة! على صحتك يا أنّا!

باليكه : عدد العناصر القلقة في تزايد مستمر. صيّادون في الماء العكر! والحكومة غير حازمة في مكافحة مستغلّي الثورة! (يفتح صحيفة) الجماهير الهائجة ليست لها مثل عليا. لكن أسوأ الجميع هم الجنود العائدون من الجبهة، أستطيع أن أقول هذا هنا. إنهم مغامرون، ودواب بلا أخلاق، قد فقدوا عادة العمل ولم يعد عندهم شيء مقدس. حقا إن عصرنا هذا عصر عصيب: والزوج، في هذه الأيام، يساوي وزنه ذهبا. يا أنّا، استندي إليه بشدة. واعملوا على اجتياز العقبة، ولكن كتفا إلى كتف. لا بد من اجتياز العقبات. على هناءة حبكم!

(يأخذ في ملء الفونوغراف)

مورك (وهو يجفف جبينه الرطب) برافو! حين يكون المرء رجلا، فإنه يستطيع التخلص دائما. آه! لا بد للمرء من أن يتقن المزاحمة بالأكتاف، وانتعال الأحذية الحديدية، والرؤية بوضوح، من دون النظر إلى ما يدوس عليه. نعم، يا أنّا! أنا أيضا بدأت من لا شيء، أنا من أصل وضيع بسيط: صبي مراسلة، صبي ميكانيكي. عملية هنا، تدبيرة هناك. ويتعلم الإنسان شيئا عن يمين وعن شمال. وألمانيا كلها قد ارتفعت بهذه الطريقة. آه! لم يحمل الكل قفازات في أيديهم، ولكن يعلم الله كم بذلوا من جهود ومشقة. والآن صرت في أعلى السلم. على صحتك يا أنّا!

(الفونوغراف يعزف: «أيها الحب، حين تستولي علينا!»)

باليكه برافو! حسن، يا أنّا، ماذا بك؟

أنّا (قامت واستدارت نصف دورة) لا أدري. كل هذا جرى بسرعة جدا. إني أسائل نفسي يا أماه عمّا إذا كان هذا هو الطريق السليم...

السيدة باليكه: ماذا تقصدين يا ابنتي؟ يا لك من إوزة! على العكس، عليك أن تكوني راضية. ما الشيء الذي ليس بالسليم؟

باليكه: اجلسي! أو مادمتِ واقفة فاملئي الفونوغراف.

(أنّا تجلس. صمت)

مورك: إذن على غرامياتك! (يقرع كأسه بكأس أنّا). لكن ماذا بك؟

باليكه: وبمناسبة شغلتك يافرتز، شغلة سلال الذخيرة، أتعرف أنها لن تساوي شيئا بعد قليل. كلها ثمانية أيام أو خمسة عشر يوما من الحرب الأهلية، ثم ينتهي كل شيء! وأقول لك عن جد، أنا في ذهني شغلة عظيمة وهي: عربات للأطفال. المصنع لم يسر خيرا من هذا، من كل النواحي. (يمسك بمورك من ذراعه ويقتاده إلى العمق. يزيح ستائر النافذة) المبنى الجديد رقم ٢، والمبنى الجديد رقم ٣. صناعة ثابتة وحديثة. يا أنّا، املئي الفونوغراف! إن هذه الأسطوانة تهز كياني. (الفونوغراف يعزف: «ألمانيا، ألمانيا، قبل كل شيء»)

مورك: هناك رجل في فناء المصنع، من هو؟

أنّا: لكن هذا مروع. يخيل إليّ أنه يتطلع إلى هنا.

باليكه: يحتمل أن يكون الحارس. لماذا يضحكون يا فرتز؟ إن في ذهنك شيئا. إن السيدات كلهن شاحبات.

مورك: خطر ببالي شيء غريب: الاسبارتاكيون...

باليكه: هذا تغفيل! هذا لا يوجد عندنا! (ومع ذلك يتلفت متضايقا) هذا هو المصنع إذن. (يعود إلى المائدة، بينما أنّا تسدل الستائر). نعم، الحرب هي التي وضعتني على الغصن الأخضر الزاهر! كان الثراء مطروحا في عرض الطريق، فلماذا لا ينحني المرء ليلتقطه؟! إذن سيكون ذلك حماقة وغفلة. ولو لم ألتقطه أنا، لالتقطه غيري. إن شقاء البعض هو الذي يصنع سعادة البعض الآخر. ولو حسبنا

حساب كل الاعتبارات، لقلنا إن الحرب كانت فرصة مواتية لنا. لقد كدّسنا الأرباح، وملأنا الجيوب، ونحن في أمان. ونستطيع بكل اطمئنان أن نصنع عربات أولا. وبدون استعجال! موافق؟

مورك : موافق كل الموافقة يا بابا! على صحتك!

باليكه : وأنتما تستطيعان أن تتفرغا لصنع أطفال! ها! ها! ها!

الخادمة : حضر السيد بابوش، يا سيد باليكه.

بابوش : (يدخل باندفاع وإسراع) يا جماعة! أنتم في مأمن من سبت الجن الأحمر! اسبارتاكوس يعبئ رجاله. المفاوضات قطعت. وبعد أربع وعشرين ساعة سيزأر المدفع في برلين.

باليكه (ولاتزال الفوطة حول رقبته) لكن هؤلاء الناس لم يقنعوا إذن! يا للشيطان.

السيدة باليكه المدفع؟ يا إلهي! يا إلهي! يا لها من ليلة. آه! يا لها من ليلة! سأنزل إلى المخبأ يا باليكه!

بابوش : في وسط المدينة لايزال كل شيء هادئا، لكن يظهر أنهم سيحتلون مطابع الجرائد.

باليكه : ماذا؟ ونحن الذين نحتفل بالخطبة؟ يعملون هذا في هذا اليوم بالذات؟ يا لهم من مجانين!

مورك : لا بد من لصق هذا في الجدار!

باليكه : كل أولئك الساخطين في الجدار!

بابوش أأنت الذي تخطب. يا باليكه؟

مورك بابوش، خطيبتي!

السيدة باليكه هكذا! فجأة! بغير تحفظ! لكن متى سيضربون بالمدافع؟

بابوش (يصافح يدي أنّا ومورك) الاسبارتاكيون خزنوا أسلحة بكميات. هؤلاء الرعاع يعملون في الظلام. آه يا أنّا! لا تلقي

بالا! هنا لن يحدث شــــيء. هذا بيت هادئ! الأســـرة! نعم! الأسرة الألمانية! بيتي قلعتي(*) my home is my castle

السيدة باليكه: فـــي عصرنا! في عصرنا! وبالـــذات في أجمل يوم من أيام حياتك، يا أنّا.

بابوش: تعرفون يا جماعة أن الأمور غاية في التشويق.

باليكه: قليلا جدا بالنسبة إليّ! قليلا جدا!

(يمسح فمه بالفوطة)

مورك: ألا تعرف؟ تعال معنا إذن إلى بار بيكادلي! من أجل خطبتي

بابوش: والاسبارتاكيون؟(**)

باليكه: سينتظرون، يا بابوش. دعهم لتطلق عليهم النار. تعال معنا إلى بار بيكادلي! يا نساء، البسن ثيابكن.

السيدة باليكه: إلى بار بيكادلّي؟ وفي الليل؟

(تجلس على كرسي)

باليكه: بار بيكادلّي، هذا الاسم القديم. الآن يسمى «مقهى الوطن». فريدرش يدعونا! وماذا يهم أن يكون الوقت ليلا؟ العربات، من أجل ماذا؟ هيا البسي ثيابك، يا عجوز!

السيدة باليكه: لن أخطو خطوة واحدة خارج البيت. ماذا جرى يافرتزي!

أنّا: إرادة الإنســـان هي جنته! مادام فريدرش يريد... (الجميع يتطلعون في مورك)

مورك: لا، ليس هنا. بأي ثمن. أنا أريد موسيقى، وأضواء. إنه محل ممتاز. كما سترون. أما هنا فالمكان مظلم جدا. لقد لبست ثيابي لهذا الغرض. ماذا تقولين في هذا إذن، يا حماتي؟

السيدة باليكه: لا أستطيع أن أفهم السبب.

(*) بالإنجليزية في الأصل الألماني.

(**) كان سبارتاكوس زعيما للعبيد المتمردين ضد روما، وقد قتل في سنة ٧١ ق. م.

(تخرج)

أنّا : انتظرني يا فريدرش، سأكون جاهزة في دقيقة.

بابوش : عجيب كل ما يجري الآن. كل الجهاز يطير. أيها الوُضعَاء، نَظِّموا أنفسكم! وبهذه المناسبة أقول لكم إن المشمش الأصفر، الناضج، المملوء بالعصارة يساوي الرطل منه خمسة ماركات. أيها المتعطلون، لا تستجيبوا للاستثارة! في كل مكان، في المقاهي ذات الضوء الباهر يشاهد عصابات من الأشخاص المشبوهين، يَصْفِرون بوضع أصابعهم في أفواههم. وقد اتخذوا ما يسمونه جلودهم القديمة رايات! بينما صفوة المجتمع ترقص الفالس في المراقص! هيا، على نخب زواجك!

مورك لا حاجة بالسيدات إلى تغيير زينتهن. الآن لا أهمية لشيء من هذا. بالزينة البراقة تلفتن النظر إليكن.

باليكه : هذا صحيح تماما. الأيام عصيبة. أقدم ملابس مستعملة تكفي لمثل هؤلاء الأوباش. انزلي حالا يا أنّا.

مورك : سنذهب نحن قبلكم. لا تغيري شيئا من ملابسك.

أنّا : جلف!

(تخرج)

باليكه : إلى الأمام، سِرْ! الاتجاه: الجنة بالموسيقى. عليّ أن أغير قميصي.

مورك : الحقي بنا أنت وأمك. وسنأخذ معنا بابوش باعتباره وصيفة، أليس كذلك؟ (يغني) بابوش، بابوش، بابوش يهرول في الصالة.

بابوش دائما تكرر الكلام نفسه الصادر عن فتى مجنون، ألا تستطيع أن تتخلى عنه نهائيا؟

(يخرج معه متأبطا ذراعه)

مورك : (يســتمر في الغناء في الخارج) يا صبيان، مصوا إبهامكم، هذا أوان العريدة. أنّا!

باليكه : (وحده، يشــعل ســيجارة) الحمــد لله، خلصنــا من هذه المســألة! أوه، هذه البنت كم أرتنا العجب! لا بد من دفعها إلى الســرير بالقوة! وحبها الأبله لجيفــة! لقد بلّلت فيها قميصــي النظيف. والآن ليكن ما يكون. شــعارنا: عريات للأولاد. (يخرج) يا امرأة، هاتي قميصا.

أنّا : (من الخارج) فريدرش، فريدرش! (تدخل كالريح العاصفة) فريدرش!

مورك (عند عتبة الباب) أنّا! (يتكلم بجفاف، إنه قلق، وعليه سيما الشمبانزي وذراعاه معلقتان وتهتزان) هل قررت، أولا؟

أنّا ماذا بك؟ لو شاهدت نفسك في المرآة!

مورك هل تأتين، نعم أولا؟ أنا أعلم ما أقول. دعي الحركات! ليكن الأمر واضحا تماما.

أنّا : نعم، نعم! هذا شيء جديد!

مورك : حســن، حسن. لســت متأكدا تماما من نفســي بعد. لقد عانيت الويلات وأنا أســكن طوال عشــرين سنة في غرفة الخادمات، واستشــعر البرد ينخر عظامي، والآن أنا ألبس أحذيــة ذات أزرار، انظــري إليها. وســال العرق مني في المــاء، على ضوء مصباح غاز رديء، وكلفني هذا الكثير من بصري. الآن يصنع ملابســي خياط. غير أني لســت بعدُ راسخا على قدميّ. ثم تيار من الهواء البارد، تيار من هواء مثلج عند الأرض يجمد الأقدام. (يذهب ناحية أنّا، من دون أن يمســها، ويظل واقفا أمامها وهو يتأرجح على قدميه). والآن يزدهــر النبات، الآن الخمــر يجري أمواجا. الآن أنا هناك. بلّني العرق، والعيــون مغلقة، والكف مقبوضة إلى

حد دخول الأظافر في لحم الكتف. انتهى هذا كله! شيئا من الأمان! شيئا من الحرارة! لنخلع الأسمال البالية! سرير واسع، وثير، وفرش أبيض. (حين يمر عند النافذة يلقي نظرة سريعة إلى الخارج) تعالي هاهنا: أنا أفتح القبضة، وأجلس تحت الشمس لابسا القميص، أنا الآن أملكك.

أنّا (طائرة بين ذراعيه) حبيبي!

مورك حبيبتي.

أنّا الآن أنت تملكني، أليس كذلك؟

مورك وأنت، لا شيء دائما؟

بابوش (في الخارج) إذن يا جماعة؟ هل تأتون؟ هل تنسون أنني مرافقكم الأمين؟!

مورك (يملأ الفونوغراف مرة أخرى. صوت يتغنّى بقوة الحب العارمة) أنا أحسن رجل في العالم، بشرط أن يتركوني أعمل.

(يخرجون وهم يمسكون بعضهم بأذرع بعض)

السيدة باليكه (تدخل بحماسة. تلبس ثوبا أسود وتسوّي قبعتها كبوت. أمام الصوان ذي المرآة) القمر كبير، وأحمر اللون!.. إلهي! يا أولاد! نعم... آه! في هذه الليلة نستطيع أن نحمد الله مرة أخرى.

(في هذه اللحظة يظهر في فتحة الباب رجل يلبس السترة العسكرية الرسمية لجندي مدفعية، لونها كحلي، وهي قذرة جدا. وفي يده غليون صغير)

الرجل اسمي كراجلر!

السيدة باليكه (تمسك بمنضدة الزينة حتى لا تسقط، وركبتاها ترتعدان) الله!

كراجلر : ماذا؟ لماذا تحملقين هكذا كأنك في عالم آخر؟ ضاعت نقود في الهواء من أجل التاج؟ يا للخسارة! أنا أقدم تقريرا عن نفسي: لقد أقمت في الجزائر شبحا. غير أن الجيفة صارت لها شهية عارمة. أشعر بأنني قادر على ابتلاع دود الأرض. لكن ماذا أصابك يا سيدة باليكه؟ هذه الأغنية سخيفة. (يقف الفونوغراف. السيدة باليكه لا تنطق بعد بأي كلمة. بل تستمر في التحديق فيه بشدة، وعيناها مفتوحتان تماما)

كراجلر : لن يغمى عليك، على الأقل؟ هذا كرسي. يمكن إحضار كوب ماء لك.

(بصوت خفيض وهو ذاهب إلى البوفيه) إني أسترد ذكرياتي الآن هنا تقريبا. (يصب خمرا في كأس). خمر! من نوع ريسلنج. لاتزال فيّ حيوية وإن كنت شبحا.

باليكه : (يدور في تلطف حول السيدة باليكه)

(من الخارج) هيّا، يا عجوزتي، تعالي! هيا بنا! نعم، أنت جميلة، يا ملاكي العزيز!

(يدخل ويتوقف مذهولا، ونظرته جوفاء) ماذا؟

كراجلر : مساء الخير، يا سيد باليكه! زوجتك تشعر بانقباض. (كراجلر يحاول أن يجعلها تشرب خمرا، لكنها تدير رأسها، وقد استولى عليها الرعب. باليكه ينظر إلى المسرح لحظة، وهو غاية في الحيرة)

كراجلر اشربي إذن! لا؟ ستتحسن حالك فورا. حسبت أنك كنت تتذكرينني جيدا. ذلك أني قادم من أفريقيا فورا! عن طريق إسبانيا. مجهود كبير للاحتيال على جواز السفر والباقي. والآن، أين أنّا؟

باليكه : بحـــق اللـــه إلا تركـــت زوجتي في هـــدوء. ألا تـــرى أنك ستخنقها؟

كراجلر : لا!

السيدة باليكه : (تلوذ بالقرب من باليكه وقد ظل واقفا) كارل!

باليكه : (بلهجة جادة) يا ســـيد كراجلر، إذا كنت حقا من تزعم أنه أنت، هل أستطيع أن أرجوك أن تخبرني بما جئت من أجله هاهنا؟

كراجلر : (مقطوع النّفَس) لكني كنت أسيرا في أفريقيا.

باليكه يـــا لله! (يتوجـــه ناحية صوان صغير فـــي الحائط ويصب لنفســـه كمية صغيرة من ماء الحياة ويبتلعها). حسن. هذه ضربة من ضرباتـــك. مصيبة من المصائب. لكن ماذا تريد حقا؟ ماذا تريد؟ ابنتي خُطبت هذه الليلة بالذات، منذ أقل من نصف ساعة.

كراجلر : (يتردد متضايقا قليلا) ما معنى هذا؟

باليكه : لقد بقيت غائبا أربع ســـنوات. وهـــي انتظرتك طوال أربع ســـنوات. ونحن انتظرنا أربع ســـنوات. والآن قضي الأمر، ولم يعد لك ما تأمله هنا.

(كراجلر يجلس)

باليكه : (غيـــر واثق تماما من نفســـه، لكنه يحـــاول أن يظل رابط الجأش) يا سيد كراجلر، عندي التزامات في هذه الليلة.

كراجلر : (يرفع عينيه) التزامات...؟ (ساهما) نعم.. (يعود إلى حال اليأس)

السيدة باليكه يا سيد كراجلر، لا تحمل الأمور محمل المأساة. ففي الدنيا فتيات كثيرات. هكذا حال الدنيا. تعلّم كيف تتألم، من دون أن تشكو!

كراجلر : أنّا...

باليكه : (بلهجة ســـريعة) يا امرأة! (تذهب نحـــوه بخطوة مترددة.
باليكـــه يقول بلهجة حازمة فجأة) آه! ثم إن هذا كله مجرد عواطف!

(يخرج مع زوجته. عند الباب تظهر الخادمة)

كراجلر : هِمّ!

(يهز رأسه)

الخادمة : السيدة والســيد ذهبا. (صمت) السيدة والسيد ذهبا إلى بار بيكاديلي للاحتفال بالخطبة.

(صمت. هزيم الريح)

كراجلر : (يرفع عينيه نحوها ببطء) هِمّ!

(ينهض بثقل، يتأمل الغرفة، يخطو بضع خطوات، منحنيا، يلقي نظرة من النافذة، يعود، يخرج ببطء بخطوات صغيرة، ورأسه عار، وهو يصفر صفيرا خفيفا)

الخادمة : هيه! يا سيد، طاقيتك! لقد نسيتَ طاقيتك.

* * *

الفصل الثاني

(الفلفل)

في بار بيكادلي

(فتحة كبيرة في العمق. موسيقى. من النافذة يشاهد قمر كبير أحمر. في كل مرة يُفتح فيها الباب تدخل الريح بقوة في الغرفة)

بابوش : هيـــا، ادخلوا الزريبـــة يا أولاد! هناك قمـــر للجميع! يحيا اسبارتاكوس! كل هذا مجرد ترهات! ها نبيذ أحمر!

مورك : (يدخل تتأبط ذراعـــه أنّا، يخلعان معطفيهما) ليلة كما في القصص. صيحات في حي الصحافة، خطيبان في عربة.

أنّا : لا أدري ماذا بي اليوم. كل فرائصي ترتعد. أشـــعر بغثيان، ولا أستطيع التخلص منه.

بابوش : إذن على نخب غرامياتك، يا فريدرش!

مورك : هنا أشـــعر بأني فـــي بيتي. مع طول الإقامـــة يقل الأنس، ولكنه محل ممتاز! انظر إذن يا بابوش، ماذا يصير إليه أمر الجيل الماضي!

بابوش : حسن! (يخرج) وأنت، اهتم بالجيل المقبل. (يشرب)

أنّا : قبّلني.

مورك : هل أنت مجنونة؟ إن نصف برلين يتطلع إلينا.

أنّا : وماذا يهم! أنا، حين أريد شـــيئا، فما عداه يســـتوي عندي! وأنت ألست كذلك أيضا؟

مورك : أبدا. وأنت أيضا كذلك.

أنّا : كم أنت جلف!

مورك : لكن الأمر هكذا!

أنّا : جبان!

(مورك يضغط على زر الجرس (يدخل نادل)

مورك : انتباه!

(ينحني من فوق المائدة، ويقلب الأكواب ويقبِّل أنّا بالقوة)

أنّا : أنت الآخر!

مورك : كفى! (النادل يخرج) إذن أنا جبان؟ (ينظر تحت المائدة) الآن لم تعودي في حاجة إلى ركلي بقدمك.

أنّا : ما حكايتك؟

مورك وسيكون سيّدك ومولاك.

باليكه : (يدخل مع بابوش والسيدة باليكه) آه! هاهما! الزوجان!

أنّا : أين ذهبتم؟

السيدة باليكه : القمر أحمر تماما. وهذا يقلقني. أن أراه أحمر هكذا. ولاتزال تُسمع صيحات آتية من حي الصحافة!

بابوش : ذئاب!

السيدة باليكه : ابقيا معا أنتما خصوصا.

باليكه : معا في سرير واحد، أليس حقا يا فريدرش؟

أنّا : ماما، أتشعرين بعدم ارتياح؟

السيدة باليكه : متى ستتزوجان؟ قولا.

مورك بعد ثلاثة أسابيع، يا أماه!

السيدة باليكه كان من الواجب أن ندعو إلى الخطبة عددا أكبر من الناس. لا يعلم أحد. ومع ذلك ينبغي أن يكون هذا معلوما للناس.

باليكه : ترهــات! ترهات! وكل هــذا لأن الذئب أخذ فــي العواء! دعيــه يعوِ! إلى أن يلتصق لســانه الأحمر بالتراب! أما أنا فسأقضي عليه بضربة قاضية.

بابوش : يــا مورك، ســاعدني على فتــح هذه الزجاجــة. (بصوت خفيــض) إنه موجود هنا. جاء مع القمر. وصل الذئب مع القمر. عاد من أفريقيا.

مورك : أندرياس كراجلر؟

بابوش : نعم، الذئب! بليّة، أليس كذلك؟

مورك : لكنه قد تم دفنه. أسدلوا الستائر إذن!

السيدة باليكه ونحن قادمون، توقف أبوك في كل الحانات. والآن هو غاية في الســكر. هذا رجل! آه! نعم، وأي رجل! إنه يسكر حتى الموت من أجل أولاده.

أنّا : ولماذا يفعل هذا؟

السيدة باليكه : لا تلقي بأســئلة، يابنيتي. وخصوصا لا تسأليني عن شيء. كل شيء انقلب ظهرا على عقب. هذه نهاية العالم. بسرعة، أنا في حاجة إلى كأس من الكيرش Kirsch.

باليكه : الغلطة ببســاطة هي غلطة.. هذا القمر الأحمر! أســدلوا إذن الستائر.

(النادل يسدل الستائر)

بابوش هل كنت تعرف هذا؟

مورك أنا متأهب لهذا إلى أقصى درجة. هل حضر إلى البيت؟

بابوش نعم، منذ قليل.

مورك إذن سيأتي إلى هنا.

باليكه هــل تتآمرون مــن وراء الزجاجات، تعاليا واجلسـا هاهنا! ولنحتفل بالخطبة. (الجميع يجلسون حول المائدة) وبسرعة! فليس عندي وقت للتعب!

أنّا : هوه! والفَرس! كم كان عجيبا! لقد توقف في وسط الطريق. نــزل فريدرش، ولكن الفَرَس لم يعبأ. بقي واقفا هناك في وســط الشارع. وكان يرتعد. لكن عينيه كانتا تشبهان عيني الذئــب، فغمزه فريدرش في عينيه بطــرف عصاه، فوثب الفَرَس. كما لو كنا في السيرك.

باليكه الوقت من ذهب. الجو حــار جدا هنا. العرق يتصبب مني من جديد - لقد بللت اليوم قميصا من عرقي.

السيدة باليكه إذا اســتمرت الأمور على هذا النحو، فســتفلس من أجور الغسل.

بابوش : (يأكل قراصيا استخرجها من جيبه) في هذه الأيام، الرطل من المشــمش يساوي عشــرة ماركات، ليكن! سأكتب مقالا عن ارتفاع الأسعار. وبهذا أستطيع شراء مشمش. لو كانت هذه هــي نهاية العالم لكتبت بحثا عــن نهاية العالم. لكن الآخرين، ماذا ســيفعلون؟ أنا، لــو أن حيّ حديقة الحيوان دمرّ، ونُسف، فأنا كالسمكة في الماء. أما أنت؟

مورك : نحــن نتحدث عن القمصان، وعن المشــمش، وعن حديقة الحيوان. ولكن الزفاف، متى سيكون؟

باليكه بعد ثلاثة أسابيع! الزفاف بعد ثلاثة أسابيع! مرحى! ولتكن السماء شهيدة على ما أقول. ألسنا متفقين على هذا نحن جميعــا؟ الكل موافقون على الزفاف، حســن، إذن هيا بنا إلى الخطبة! (تقرع الكؤوس. فتح الباب. كراجلر واقف في فتحة الباب. الريح تزعزع شعلة الشموع)

باليكه : لكن! لماذا ترتعدين يا أنّا أنت وكأسك؟ هل تصنعين صنع أمك؟ (أنّا، وكانت جالسة في مواجهة الباب، شاهدت، وفي الحال انهارت على نفسها، أنها تحدق فيه)

السيدة باليكه : يسوع، مريم، يوسف! ماذا جرى لك يا ابنتي؟

مورك : من أين تأتي هذه الريح؟

كراجلر : (بصوت مبحوح) أنّا!

(تصيح، تطلق صيحة خفيفة.. الكل يلتفتون، ويقفون فجأة. هياج واضطراب)

باليكه : يا لله! (يبتلع كأسا من الخمر) الشبح!

السيدة باليكه يسوع! كرا ...

مورك اخرج! اخرج!

(بقي كراجلر لحظة مترددا عند عتبة الباب، ووجهه مكتئب. وفي أثناء هذه اللحظة من الاضطراب اتجه بسرعة، ولكن بثقل، نحو أنّا، وكانت هي الوحيدة التي لم تقف. وكراجلر ينتزع الكأس من يدها المرتعدة أمام وجهها، ويحدق فيها مستندا إلى المائدة)

باليكه : لكنه سكران!

مورك : يا جارسون! انتهاك لحرمة المكان. أخرجه من هنا! (هو يجري على طول الحائط، يجعل الستارة تنزل. القمر)

بابوش : انتبه! إنه إنسان تحت قميصه لحم فج! وهذا يلدغ، لا تمسسه! (يضرب على المائدة بعصاه) لا تحدث فضيحة هنا! اخرج بهدوء! اخرج بنظام!

أنّا (نهضت من كرسيها في تلك الأثناء، وألقت بنفسها حول أمها) أماه، النجدة! (كراجلر يدور حول المائدة، ويمشي مترنحا ناحية أنّا، والأقوال التالية يُنْطَق بها في الوقت نفسه تقريبا)

السيدة باليكه	:	لا تعتدِ على حياة بنتي! ستوضع في الحديد، في السجن المؤبد! يا يسوع! يا مريم! إنه سيقتلها.
باليكه	:	(من بعيد، وهو يضخم صوته) هل أنت مخمور يا صعلوك! يا فوضوي! يا مسرَّح! يا قرصان! يا شبح! أين تركت مفرش سريرك؟
بابوش	:	إذا كنت مصابا بالسكتة القلبية، فلتعلم أنه هو الذي سيتزوجها! أغلق فمك! إنه هو الخاسر هنا. اخرج! له الحق في أن يقول كلمة. نعم له الحق في هذا. (مخاطبا السيدة باليكه) أليس لك قلب؟ لقد كان غائبا منذ أربع سنوات. المسألة عاطفة وقلب..
السيدة باليكه		إنها لا تكاد تقف على ساقيها، إنها شاحبة مثل المفرش.
بابوش		(مخاطبا مورك) انظر مع ذلك إلى وجهه! إنها لاحظت ذلك! وهو الذي كانت بشرته مثل اللبن وخداه مثل الخوخ! أما اليوم فيبدو كأنه بلح مجفف. لا تقلق إذن.
		(يخرجون)
مورك	:	إذا كنت تعني بكلامك الغيرة، فلا محل للغيرة عندي.
باليكه	:	(يبقى لحظة.. في منتصف المسافة بين الباب والمائدة، وهو سكران قليلا، وساقاه متعانقتان، وفي يده الكأس، وهو يقول) هذه العربة الزنجية! وجه مثل... مثل فيل هرم! مقضي عليه تماما، هذا! لا حياء! (ثم يخرج بخطوات بطيئة، ولا يبقى على المسرح غير الجارسون، عن يمين الباب، وفي يده صينية، الموسيقى تعزف: «سلام لكِ يا مريم!» من موسيقى جونو Gounod. الظلام يغشى المكان)
كراجلر		(بعد برهة) امّحى كل شيء في رأسي. كأنما لم يَبْقَ بعدُ غيرُ العرق. لست أفهم بعدُ شيئا.
أنّا		(تأخذ شمعة وتضيء بها أمام وجهه) ألم يأكلك السمك؟

كراجلر	:	لا أفهم ماذا تقصدين.
أنّا	:	ألم يقذف بك في الهواء؟
كراجلر	:	لا أفهمك.
أنّا		ألم تصبك رصاصة في وجهك؟
كراجلر	:	لماذا تتطلعين فيّ هكذا؟ هل يُرى شيء من هذا على وجهي؟ (صمت. يطل من النافذة) لقد حضرتُ إليك كحيوان عجوز. (صمت) بشرتي كلها سوداء، كأنها جلد سمك القرش. (صمت) وقديما كانت بشرتي بيضاء كاللبن، وفي خدودي تجري الدماء. (صمت) والآن أنا أنزف، دمي لا يكف عن المسيل، وأنا أشعر به وهو يسيل، يسيل...
أنّا	:	أندريه!
كراجلر	:	نعم.
أنّا	:	(تذهب نحوه، مترددة) أوه، أندريه! لماذا تغيبت كل هذه المدة الطويلة؟ هل أمسكوك بمدافعهم وسيوفهم؟ والآن لا أستطيع أن ألحق بك.
كراجلر	:	هل كنت غائبا حقا؟
أنّا	:	في البداية بقيت طويلا بالقرب مني، وكان صوتك لايزال حيا. وحين كنت أمرّ في الدهليز، كنت أمَسُّك، وفي البرج كنت تدعوني خلف أيكة الإسفنديان. وعبثا كتبوا أنك أصبت برصاصة استقرت في رأسك، وأنك دُفنت بعد ذلك بيومين. لكن في ذات يوم تغير هذا. لما مررت في الدهليز، شعرت بأنه ليس هناك أحد، وبقي الإسفنديان صامتا. وحين كنت أنهض من حوض الغسل، كنت لا أزال أرى وجهك، ولكن حين كنت أنشر الغسيل على المرج، لم أعد أراك، وفي هذه الأثناء لم أعد أعرف كيف أتذكر صورتك. لكن كان ينبغي عليّ أن أنتظر.

كراجلر : كان لا بد لك من صورة فوتوغرافية.

أنّا : كنت خائفة. وكان ينبغي عليّ أن أنتظر، برغم مخاوفي، لكنني شريرة. اترك يدي، فكل شيء فيّ شرير.

كراجلر : (وهو يتطلع ناحية النافذة) لا أفهم ما تقولين. لكن ربما كانت الغلطة غلطة هذا القمر الأحمر. لا بد لي من التفكير كيما أفهم كلماتك. إن لي كفين منتفختين وكأنهما ذواتا أصابع متلاصقة.. لست رجلا من أهل الخير، وحين أشرب أكسر الكأس التي أمسك بها. لا أستطيع بعد أن أتكلم معك كما ينبغي. لقد بقيت لهجة العبيد الزنوج في حلقي.

أنّا نعم.

كراجلر هاتي يدك. أتعتقدين أنني شبح؟ تعالَي بالقرب مني. هاتي يدك. ألا تريدين أن تأتي بالقرب مني.

أنّا : أتريد يدي؟

كراجلر : هاتيها. الآن لم أعد شبحا. أتذكرين وجهي؟ هل بشرتي كجلد التمساح؟ إن سحنتي قبيحة. لقد بقيت وقتا طويلا في ماء الخل. دائما هذا القمر الأحمر!

أنّا : نعم.

كراجلر : خذي يدي، أنت أيضا - لماذا لا تضغطين عليها؟ قربي وجهك. هل الأمر خطير إلى هذا الحد؟

أنّا : كلا! كلا!

كراجلر (يمسكها من كتفيها) أنّا! زنجي عجوز! هذا هو أنا! في حلقي طين! أربع سنوات! هل تريدينني، يا أنّا؟

(يجعلها تدور معه في الغرفة، ويلمح الجارسون ويحدق فيه هازئا، وجسمه منحن إلى الأمام)

الجارسون : (لدهشته تسقط منه الصينية ويأخذ في الفأفأة) المهم... هــو... أن نعرف هل احتفظت بزنبقتها... هل لاتزال معها زنبقتها...

كراجلر : (بدون أن يترك أنّا، يأخذ في الصهيل) ماذا قال؟ زنبقتها؟ (الجارسون يخرج وهو يعدو). لكن قف، يا قارئ الروايات. زنبقتها! اســمعي الكلمة التي خرجت منه! أسمعتها؟ لقد قالها بعاطفة مشبوبة!

أنّا : أندريه!

كراجلر : (يتطلــع فيها، منحنيا إلى الأمام. لقد ترك أنّا) قوليها مرة أخرى! إني أســتعيد الآن صوتك. (يعدو ناحية اليمين) يا جارسون! تعال هنا، أيها الصديق!

بابوش (من عنــد الباب) ما أعجب ضحكتــك! ضحكة من لحم. ضحكة مثل بركة دم! هل تحسّ بأن حالتك أحسن؟

السيدة باليكه : (خلفه) أنّا، يا ابنتي! كم تثيرين فينا القلق عليك.

(في الغرفة المجاورة يعزف «فتاة بيرو»)

باليكه : (يدخل مســرعا وقد خف سكره) اجلســوا! (يعيد إسدال الســتائر، يســمع صوتُ حديدٍ). القمر الأحمــر أمامكم، والبنــادق من ورائكم في حيّ الصحافة. لا بد من الاعتماد عليكم. (يعيد إشعال كل الشموع) اجلسوا!

السيدة باليكه : كم وجهك مقطب! عاد الارتعاد إلى فرائصي. يا جارسون! يا جارسون!

باليكه أين مورك؟

بابوش فريدرش مورك يرقص رقصة بوسطن.

باليكه (برقــة) اعمل على إجلاســه. فحين يكون جالســا يكون نصف مملوك لنا. وإذا جلس، لم يعد هناك مجال للعبارات الطنّانة! (بصوت عال) اجلســوا جميعا! صمت! يا أماليا،

اضبطي نفسك! (مخاطبا كراجلر) بحق الله إلا جلست أنت أيضا.

السيدة باليكه : (تأخذ زجاجة من شراب الكيرش كانت على صينية الجارسون) شيئا من الكيرش، وإلا متّ (تفلح مع ذلك في الوصول إلى المائدة ومعها زجاجتها. وقد جلس كل من السيدة باليكه، باليكه، وأنّا. وبابوش دار حول المائدة لإجلاسهم. والآن أمسك كراجلر، وكان قد بقي واقفا لا يتحرك، أمسكه من كتفيه وأرغمه على الجلوس على كرسي)

بابوش : اجلس، فأنت غير ثابت على قدميك! أتريد قليلا من الكيرش؟ من أين لك هذه الطريقة في الضحك؟ (كراجلر ينهض. بابوش يرغمه على الجلوس. يبقى جالسا)

باليكه : يا أندرياس كراجلر، ماذا تريد؟

السيدة باليكه : يا سيد كراجلر! إمبراطورنا قال: يجب أن يعرف المرء كيف يتألم من دون أن يشكو!

أنّا : ابق جالسا.

باليكه : أنتِ، اسكتي. دعيه يتكلم. ماذا تريد؟

بابوش : (يقف) ربما تريد جرعة من الكيرش؟ تكلم!

أنّا : فكّر جيدا، يا أندريه! لا تقل شيئا قبل أن تفكر!

السيدة باليكه : آه! أتريدين إذن موتي! أمسكي عليك لسانك. أنت لا تفهمين شيئا في أي شيء.

كراجلر : (يريد أن يقف، لكن بابوش يمسكه جالسا على كرسيه. بجهد كبير) لو سألتموني، فليس من السهل الجواب. ولا أريد أن أشرب كيرش. الأمر مهم جدا.

باليكه : دعك من هذه الترهات! قل ما بدا لك. وبعد ذلك، أقذف بك إلى الخارج.

أنّا : لا، لا.

بابوش	:	يجب عليك أن تشرب. أؤكد لك. أن ريقك جاف. صدقني. سيتحسن حالك، بعد أن تشرب!
		(في هذه اللحظة يتقدم فريدرش مورك وهو يرقص مع ماريّا، المومس)
السيدة باليكه	:	مورك!
بابوش	:	هناك قواعد حتى بالنسبة إلى العبقري. اجلس.
باليكه	:	برافو يا فرتز Fritz! بيّن لهذا الشخص من هو الرجل. فرتز لا يرتعد. فرتز يرفّه عن نفسه. (يصفق)
مورك	:	(بطلعة حزينة، لقد شرب. يترك ماريّا واقفة، ويقترب من المائدة) ألم تنته بعدُ هذه المهزلة القذرة؟
باليكه		(يجره على كرسي) اسكت!
بابوش		استمر يا كراجلر! لا تتأثر بهذا.
كراجلر		إن له أذنين ضامرتين.
أنّا	:	لقد كان مراسلة!
مورك	:	في رأسه بيضة.
كراجلر	:	فليذهب!
مورك	:	وقد ضربوه على جمجمته.
كراجلر	:	يجب عليّ أن أحتاط في الكلام.
مورك	:	وهذا ما يجعله الآن في رأسه بيضة مخفوقة.
كراجلر	:	صحيح! لقد ضربوني على جمجمتي. وكنت غائبا عن هنا طوال أربع سنوات. ولم أكن أستطيع الكتابة. ولم تكن في مخيّ بيضة. (صمت) كان ذلك منذ أربع سنوات، وعليّ أن أحتاط تماما. وأنت لم تتعرفيني بعد، ولاتزالين تترددين ولا تشعرين بذلك بعد. لكني أتكلم كثيرا.
السيدة باليكه		مخّه تصلّب تماما.
		(تهز رأسها)

باليكه : تريد أن تقول إن حياتك لم تكن بالميسورة؟ لقد حاربت من أجل الإمبراطور والريّش Reich؟ متأسف من أجلك. هل تريد شيئا؟

السيدة باليكه : والإمبراطور قال: يجب أن يكون المرء قويا في الألم. اشرب جرعة، خذ!

(تدفع الكيرش إليه)

باليكه : (وهو يشرب، محاولا إقناعه) لقد صمدت أمام نار المدافع، أليس كذلك؟ كالصخر؟ هذا عظيم. جيشنا صنع المعجزات. وقد واجه الموت ببطولة، والابتسامة على الشفاه. اشرب! ماذا تريد؟

(يقدم إليه علبة السيجار)

أنّا أندريه ! ألم تلبس بزة رسمية أخرى؟ ألا تزال تلبس الأزرق، ذلك الذي كان عندك قديما؟ لم يعد أحد يلبسه بعد!

السيدة باليكه : النساء كثيرات! يا جارسون! هات كيرشا آخر!

(تقدم إلى كراجلر من الكيرش)

باليكه : ونحن هنا أيضا لم نبق متعطلين لا نفعل شيئا. إذن، ماذا تريد؟ ليس في جيبك مليم؟ أنت في الشارع؟ الوطن ألجأك إلى الغناء في الأفنية بأرغن الشحاذين؟ لا. هذه أمور يجب ألا تحدث. ماذا تريد؟

السيدة باليكه : لا تخف، لن تعزف بأرغن الشحاذين في الأفنية.

أنّا : في الليل تهزم الريح، والبحر عال، مرحى!

كراجلر : (وقد نهض) لما كنت أشعر جيدا بأنني ليس لي أي حق هاهنا، فإني أرجوك، من أعمق أعماق قلبي، أن ترحلي معي، بجانبي.

باليكه ما معنى هذه الثرثرة؟ ماذا يقول؟ من أعمق أعماق قلبي! بجانبي! ما هذه العبارات؟

(الآخرون يضحكون)

كراجلر	لأنه ليس من حق أحد في العالم... ولأنني لا أستطيع أن أعيش من دونك... من أعمق أعماق قلبي.
	(قهقهة كبيرة عالية)
مورك	(وقد وضع قدمه على المائدة. بلهجة باردة، وشريرة، وهو سكران) غُسِل غَسْلا. التُقِط. والطين في فمه. انظر إذن إلى حذائي! قديما كانت عندي نعال مثل نعالك! اذهب إذن واشترِ مثل حذائي! وعُدّ بعد ذلك! أتعرف من أنت؟
ماريا	(بسرعة، فجأة) هل كنت في الجبهة؟
الجارسون	هل كنت في الجبهة؟
مورك	وأنت، أغلق فوهتك! (مخاطبا كراجلر) لقد سحبت نمرة خاسرة، لقد مررت تحت الأسطوانة؟ لست الوحيد في هذا، فالكثيرون مروا بالشيء نفسه. حسن! لسنا نحن الذين حركنا الماكينة. لم يعد لك وجه؟ هل تريد أن يُدفع لك ثمن وجهه؟ هل نلصق ثلاثة على جلدك؟ أمن أجلنا انحدرت هذا المنحدر؟ أتريد أن يقال لك من أنت؟
بابوش	شيئا من الهدوء، هيا.
الجارسون	(وهو يتقدم) هل كنت في الجبهة؟
مورك	لا. أنا من أولئك المكلفين بدفع ثمن مغامراتك. الماكينة فسدت.
بابوش	دعوكم من هذه الحكايات! فهذا شيء يبعث على الضيق. لأنك على كل حال كسبت أموالا. أليس كذلك؟ دعك إذن من حذائك.
باليكه	ومع هذا فإن هذا هو المهم. هنا مربط الفرس. ليست هذه حكايات. هذه هي الواقعية السياسية. وهذا ما نفتقر إليه، خصوصا في ألمانيا. المسألة غاية في البساطة. هل عندك الوسائل لإطعام زوجة؟ أوليس عندك غير كفيك المنتفختين الملتصقتى الأصابع؟

السيدة باليكه	:	سامعة يا أنّا؟ ليس عنده شَرْوى نقير.
مورك	:	أنا مستعد لأن أتزوج أمه، لو كان عنده شيء. (يقفز) إنه مجرد محتال على الزواج، مبتذل.
الجارسون	:	(مخاطبا كراجلر) قل شيئا! تكلم؟
كراجلر	:	(وقف، يوجه الكلام إلى أنّا وهو يرتعد) لا أدري ما يجب عليّ أن أقوله. حينما لم يكن عندنا غير جلدنا الذي يغطي عظامنا، ومن أجل أن نقدر على الاستمرار في تكسير الحصى على الطريق كنا نعبّ من الكحول عبا. كثيرا ما كان يحدث ألا يكون عندنا من وسيلة غير أن نتطلع إلى السماء، في المساء، لكن هذا مهم جدا، لأننا في أبريل بقينا معا، راقدين في الأدغال. كنت أقول هذا للزملاء. لكنهم كانوا يتساقطون كالذباب.
أنّا		كالخيول، أليس كذلك؟
كراجلر	:	لأن الجو كان حارا جدا، ولم نتوقف عن الشراب. لكن هل لي أن أحدثك عن السماء في المساء؟ لم تكن تلك نيتي، ولا أدري...
أنّا	:	ألم تكف عن التفكير فيّ؟
السيدة باليكه	:	أتسمعينه؟ إنه يتكلم كالطفل! المرء حين يسمعه يخجل له.
مورك	:	ألا تستطيع أن تبيعني حذاءك؟ من أجل المتحف الحربي. أنا مستعد لأن أدفع فيه أربعين ماركا.
بابوش	:	استمر يا كراجلر. هذا ما ينبغي أن يقال.
كراجلر		ولم يكن عندنا قمصان. كنا في أسوأ حال، صدقيني. أتعتقدين أن أسوأ شيء ألا يكون عندنا قمصان؟
أنّا		أندريه! نحن نصغي إليك .
مورك		إذن أنا أعرض عليك ستين ماركا. بع!

كراجلر نعم، الآن أنت تخجلين لأجلي، أليس كذلك؟ لأنهم يجلسون هناك على طول الحائط كما في السيرك حين يستولي الفزع على الفيل إلى درجة أنه يبول على الأرض. ومع ذلك فإنهم لا يفقهون شيئا.

مورك ثمانين ماركا.

كراجلر ومع ذلك فلست قرصانا. ماذا يهمني من هذا القمر الأحمر؟! لا أستطيع أن أفتح عيني، هذا كل ما في الأمر. أنا كتلة من اللحم، وألبس قميصا نظيفا. ها أنتم أولاء ترون أنني لست شبحا.

مورك (يقفز) إذن مائة مارك.

ماريا يجب عليك أن تخجل حتى أعماق نفسك.

مورك وهذا الوغد لا يريد أن يتخلى لي عن حذائه مقابل مائة مارك!

كراجلر أنّا، هناك شيء يتكلم. أي صوت هذا؟

مورك أصابتك ضربة شمس! هل أنت قادر على الخروج وحدك؟

كراجلر يا أنّا، الصوت يقول إنه لا حق لنا في سحقه.

مورك هل هو وجهك حقا الذي نراه الآن؟

كراجلر يا أنّا، ومع ذلك فإن الله الحكيم هو الذي خلقه.

مورك هل أنت حقا الماثل أمامنا هنا؟ ماذا تريد بالضبط؟ لكنك لست إلا جثة! متعفنة بالفعل! (يسد أنفه) أليس عندك أي إحساس بالنظافة؟ أتريد أن يضعوك في هيكل، لأنك تشربت شمس أفريقيا؟ أنا، أنا اشتغلت! تعبت حتى امتلأت أحذيتي بالدم! انظر إلى يديّ! أنت تحظى بالعطف العام، لأنك حاربت وضُربت. لكن لست أنا الذي ضربتك. أنت بطل، لكني أنا شغّال. وهي، هي خطيبتي.

بابوش ولكن يا مورك، حتى وأنت جالس، أنت شغّال! يا كراجلر، كان تاريخ العالم سيتغير لو ظلت الإنسانية جالسة على عجيزتها.

كراجلر لا أستطيع أن أقرأ شيئا على وجهه، كأنه جدار الكنيف: مملوء بالكتابات الفاحشة! والجدار لا يملك لهذا دفعا. يا أنّا، هل تحبين هذا الشخص؟، هل تحبينه؟

(أنّا تقهقه ضحكا وتشرب)

بابوش هذا هو صد للهجوم بواسطة قلبك، يا كراجلر.

كراجلر لا، بل هذا انتزاع لزوائده بضربة من الأسنان، لأنه يثير في نفسي أشد التقزز. أتحبينه؟ هذا الوجه الأخضر مثل البندقة غير الناضجة؟ أمن أجل هذا الشخص تريدين طردي؟ إنه يلبس بذلة من الصوف الإنجليزي المحشوة عند الكتفين والصدر، وفي حذائه دم. وأنا ليس عندي غير بذلتي العتيقة، التي أكلتها العثة. قولي إنك لا تستطيعين أن تتزوجيني بسبب بذلتي، قولي هذا إذن. أنا أفضّل هذا!

بابوش اجلس إذن، باسم الله! الآن بدأت الرواية.

ماريا (تصفق) هو هكذا تماما! وقد رقص معي وهأناذي أشعر بالخزي منه، ومن كونه قد حك فخذيه ببطني!

مورك أنتِ، لا دخل لكِ! ولا تحاولي أن تخدعي عالمك! (مخاطبا كراجلر) ألا توجد معك سكّينة في حذائك لتقطع بها رقبتي، لأن الشمس في أفريقيا قد ضربتك على رأسك، وأحدثت أوراما في مخك؟ هيّا، أخرج سكينتك، لقد ضقت ذرعا، هيا اقطعها!

السيدة باليكه أنّا، كيف تستطيعين سماع أشياء مثل هذه!

باليكه يا جارسون! هات أربع كؤوس من الكيرش! الآن يستوي عندي كل شيء!

مورك : حذار ألا تخرج السكّين! اضبط نفسك، ولا تحاول أن تمثل دور البطل. فهذا يؤدي بك هاهنا إلى السجن.

ماريا : هل كنت في الجبهة؟

مورك : (خارجا عن طوره، يرمي بكأس في اتجاهها مخاطبا كراجلر) لماذا لم تكن موجودا؟

كراجلر : الآن وصلت.

مورك : ومن الذي دعاك إلى المجيء؟

كراجلر : الآن أنا هنا موجود.

مورك : وغد!

أنّا أنت، الأولى بك أن تسكت.

(كراجلر يدخل رأسه بين كتفيه)

مورك قاطع طريق!

كراجلر : (بصوت خفيض) لص!

مورك : شبح!

كراجلر : حذار!

مورك : وأنت، حذار من سكّينك. هذا يدغدغك، أليس كذلك؟ شبح! شبح! شبح!

ماريا : الوغد هو أنت! هو أنت!

كراجلر : أنّا! أنّا! ماذا أصنع؟ أمر وأنا أترنح على بحر من الجثث فلا يبتلعني. وأرحل إلى الجنوب في عربات المواشي السوداء، فلا يحدث لي شيء يحترق في جحيم النيران هذه، ونار أشد حرارة تشتعل في نفسي. رجل يصير مجنونا تحت لسعة الشمس، وليس هو أنا. اثنان آخران يسقطان في جحر ماء، وأنا أستمر في النوم أطلق النار على الزنوج. آكل من العشب. أنا شبح. (في هذه اللحظة.. يندفع

الجارسون إلى النافذة، ويزيح الستائر. وتتوقف الموسيقى فجأة. وتُسمع صيحات ونداءات: «إنهم قادمون». صمت. الجارسون يطفئ الشموع. وبعد ذلك، في الخارج، يسمع صوت نشيد «الدولية»)

رجل (يدخل من الباب الذي على يسار) أيها السادة، نطلب إليكم أن تحتفظوا برباطة الجأش. والرجا منكم عدم الخروج من المحل. اندلعت اضطرابات معركة في حي الصحافة، الموقف غامض.

باليكه (يجلس بثقل): الأسبارتاكيون! أصحابك، يا سيد أندرياس كراجلر! أصحابك المشبوهون! رفاقك الذين يصيحون في حي الصحافة، وينشرون رائحة الحريق والجريمة! أنتم دواب مفترسة! (صمت) دواب! دواب! لماذا أنتم دواب؟ لأنكم تأكلون اللحم الطازج! لابد من إبادتكم!

الجارسون بواسطتكم أنتم يا من سمنتم!

مورك أين سكينك؟ اسحبها إذن.

ماريا والجارسون (يذهبان نحوه) أنت اسكت؟

الجارسون هذا ليس كأنّا إنسانا، بل دابة، هذا هو..

مورك أسدلوا الستائر! أشباح!

الجارسون لعلنا نحن الذين ينبغي إلصاقهم بالجدار؟ هذا الجدار الذي بنيناه بأيدينا، والذي في حماه تملأون كروشكم بالكيرش!

كراجلر هذه هي يدي وهذه عروقي. افتحوها إذا مت. فسترون أنها ستدمى.

مورك شبح! شبح! من أنت بالضبط! أعليَّ أن أتنازل لك عن مكاني لأن لك بشرة أفريقي؟ ولأنك تتبح في حي الصحافة؟ وما شأني أنا إذا كنت أنت قد كنت في أفريقيا؟ ما شأني، إذا كنت أنا لم أكن هناك؟

الجارسون: لا بد أن يسترد زوجته! هذا ليس من الإنسانية في شيء!

السيدة باليكه: (أمام أنّا وقد خرجت عن طورها) لكنهم جميعا مصابون بأمراض! مصابون بداء ما! الزهري! الزهري! كلهم مصابون بداء الزهري.

بابوش: (يضرب بعصاه على المائدة) لم يكن ناقصا غير هذا!

السيدة باليكه: أتريد أن تدع بنتي في سلام؟! أتريد أن تدع بنتي في سلام؟!

مورك: يا ضبع! يا سافل!

أنّا: يا أندريه، لا أريد! أنت تقتلني.

ماريا: السافل هو أنت!

الجارسون: هذا ليس من الإنسانية في شيء! لا بد أن يتساوى الجميع في الحقوق.

السيدة باليكه: اخرس! يا خادم! يا صعلوك! أنا طلبت كيرشا، سامع! أنا أطردك!

الجارسون: هذه مسألة إنسانية. وهي تهمنا جميعا. لا بد أن زوجته...

كراجلر: هيّا، كفاني الآن! ما الشيء الإنساني؟ وماذا تريد هذه المرأة المخمورة؟ لقد بقيت وحدي، وأنا أريد زوجتي. هذا الملاك المتباكي، ماذا يريد؟ أتريدين أن تبيعي بالمزاد العلني بطن ابنتك كما يباع رطل من البن؟ لو حاولتم أن تنتزعوا منّي أنّا بكلاليب من الحديد، فلن تفلحوا إلا في تمزيق قلبها.

الجارسون: أنتم تمزقونها.

ماريا: نعم، مثل رطل من البن.

باليكه: وليس معك ولا مليم من النقود؟

بابوش	أنتم تضربون أسنانه بقبضات أيديكم، وهو يلفظها لكم في وجوهكم.
مورك	(مخاطبا أنّا) لماذا سحنتك تشبه اللبن المستفرغ؟ وتدعين عينيك يلتهمهما هذا الشخص؟ وجهك يبدو وكأنك تبولت في الشوك!
باليكه	أهكذا تتكلم عن خطيبتك؟!
مورك	خطيبتي! هل هي خطيبتي؟ هل هي خطيبتي حقا؟ ألم تتخل عنّي فعلا؟ ها هو ذا قد عاد. هل تحبينه؟ هل يهمك هذا؟ هل ترغبين في الإحساس بأفخاذ أفريقية؟ أليس الأمر هكذا؟
بابوش	لو كنت جالسا، ما نطقت بهذا الكلام.
أنّا	(وقد انجذبت إلى كراجلر أكثر فأكثر، تنظر إلى مورك باشمئزاز. بصوت خفيض تقول) لكنك مخمور!
مورك	(يجذبها بشدة إليه) أريني وجهك! أريني أسنانك! مومس!
كراجلر	(يمسك بمورك، ويرفعه عن الأرض. أزيز الكؤوس على المائدة. ماريا لا تكف عن التصفيق بيديها) لست مستقرا على قدميك، هيا اخرج، امش من هنا! لقد أفرطت في الشرب. أنت لا تمسك نفسك.
	(يدفعه)
ماريا	ناوله، ناوله!
كراجلر	دعيك منه! يا أنّا، تعالَي بقربي! الآن أريدك لي. لقد أراد أن يشتري حذائي، ولكني سأخلع الجاكتة. الطّلّ الثلجي قد نفذ في جلدي حتى صار جلدي أحمر، وتحت الشمس الزاهية ينفجر. وخُرّجي فارغ، وليس معي مليم. أنا أريدك، وأنا لست جميلا. وكان عليّ حتى الآن أن أتمالك نفسي، ولكني سأشرب الآن. الآن. (يشرب) وبعد هذا نرحل. تعالَي!

مورك : (وقد انهار تماما، وكتفاه التوتا، يقول لكراجلر بصوت شبه هادئ) لا تشـــربـ! أنت لا تعرف كل شـــيء! انس هذا كله. كنت مخمورا، صحيح هذا. لكنك لا تعرف كل شيء، يا أنّا، (وهو في صحو تام) أخبريه! ماذا تريدين أن تفعلي؟ وأنت في هذه الحال؟

كراجلر : (لا يستمع إليه) لا تخافي يا أنّا! (وفي يده كأس من الكيرش) لن يصيبك شيء، لا تخافي! سنتزوج. وسأستطيع التخلص من المأزق.

الجارسون : برافو!

السيدة باليكه أوباش!

كراجلر من لديه ضميـــر مفرط ينتهي بأن يصبح ديكا روميا. ومن يصبر صبـــرا مفرطا يدع الآخرين يأكلـــون الصوف الذي على ظهره. هذا قانون الغابة.

أنّا : (تندفع فجأة وتســـقط على المائدة) يا أندريه، ســـاعدني! النجدة يا أندريه.

كراجلر : (ينظر إليها مندهشا) ماذا جرى؟

أنّا : أندريه، لا أدري، أنا بائســـة جدا يا أندريه! لا أســـتطيع أن أقول لك شيئا. لا تلق عليّ أسئلة. (ترفع عينيها) لا أستطيع أن أكون لك. الله يعلم ذلك. (تفلت الكأس من يد كراجلر). وأتضرع إليك أيضا أن تذهب يا أندريه!

(صمـــت. في الغرفة المجاورة يُســـمع صـــوت الرجل الذي عرفنـــاه منذ قليل، وهو يقول: «ماذا يجري؟» الجارســـون، ملتفتا ناحية الباب الذي عن يسار، وهو يتكلم إلى الخارج، يجيب عليه)

الجارسون العاشق القادم من أفريقيا، والذي جلده مثل جلد التمساح، انتظر أربع ســـنوات، والخطيبة لاتـــزال الزنبقة في يدها.

لكن العاشـــق الآخر، وهو رجل يلبس حذاء بأزرار، لا يريد أن يتخلى عنها، والخطيبة، وهي تمسك دائما بالزنبقة في يدها، لا تدري إلى أي ناحية تميل.

صوت : هذا كل ما في الأمر؟

الجارسون : والثورة المشـــبوبة في حي الصحافة تمارس دورها، وهناك ســـر تكتمه الخطيبة، سر لم يطلع عليه العاشق القادم من أفريقيـــا، الذي انتظر أربع ســـنوات. المســـألة لاتزال غير معلومة تماما.

الصوت : ألم يُتخذ قرار؟

الجارسون لا ندري أبدا إلى أي شيء ستنتهي هذه الحكاية.

باليكه يا جارسون! هؤلاء الأوباش؟ ألا نستطيع التخلص من هذا البقّ، واحتساء شرابنا بهدوء؟

(مخاطبا كراجلر) هل ســـمعت الآن؟ ســـعيد؟ اخرس إذن! كانت الشـــمس محرقة جدا؟ كانت أفريقيا هي الســـبب. هذا مكتوب في كتاب الجغرافيا. وكنت بطلا؟ سيكتب ذلك في ســـجل التاريخ. لكن في السجل الكبير لا شيء. ولهذا فإن البطل ســـيعود إلى أفريقيا. هـــذا كل ما في الأمر. يا جارسون! أخْرِج هذا الشخص!

(الجارســـون يمســـك بكراجلر ويجره. كراجلـــر يأخذ في السير بتثاقل وبطء. وعن يساره ماريا المومس، تتبعه)

باليكه : أي مهزلة قرود هذه! (يأخذ في الصياح وراء كراجلر لكسر الصمت) لقد أردت شـــراء لحم؟ ليس هاهنا سوق الدواب! احـــزم قمـــرك الأحمـــر واذهـــب لتعزف لحنـــا صغيرا لشـــمبانزياتك. إنـــي أهـــزأ بنخيلك، أنا! ثم إنك لســـت غـــير شـــخصية في روايـــة. أبـــرز إذن شـــهادة مـــيلادك؟ (كـــراجلر خرج)

السيدة باليكه : كُفَّ عن الصياح! لكن ماذا بك هكذا، أتريد أن تشرب تحت المائدة مع الكيرش(*)؟

باليكه : لكن أي سيماء عليه! كأنه ورق ممضوغ!

السيدة باليكه : لا، لكن انظر إلى هذه البنت المسكينة! ماذا جرى لك إذن؟ آه، كفى الآن!

(أنّا جالســـة إلى المائدة صامتة، شبه غائصة بين الستائر. وأمامها كأس)

مورك : (يذهب ناحيتها، ويتشـــمم الكأس) فلفل، وأيم الله! (تنتزع منه الكأس بازدراء) آه، حســـن، أنا فاهم. ماذا تريدين إذن أن تفعلـــي بهذا الفلفـــل؟ ألا تريدين أيضـــا حمام مجلس ســـاخن؟ أنت يجب تعليمك كيف تسيرين سيرا مستقيما. أنت تثيرين الاشمئزاز في نفسي.

(يبصق، ويرمي بالكأس على الأرض. أنّا تبتســـم. يُســـمع إطلاق مدافع المترليوز)

بابوش : (عنـــد النافذة) لقد بدأ؛ الجماهير ثارت؛ الاســـبارتاكيون ثاروا. الجريمة تستمر. (الكل مُسَمَّرون، وآذانهم مرهفة)

* * *

(*) أي هل ستشرب حتى تتمرغ تحت المائدة.

الفصل الثالث

(ركب الفالكيري)

شارع في حي الصحافة

(سور من القرميد الأحمر لثكنة، يعترض المسرح وينزل من اليسار ناحية العمق إلى اليمين. من ورائه تشاهد المدينة في الضوء المتحلل للنجوم. الوقت وقت الليل. ريح)

ماريّا	إلى أين تعدو إذن؟
كراجلر	(بدون طاقيـــة، والياقـــة واقفة، ويداه فـــي جيبيه، يدخل المسرح وهو يصفر) ما هذا الشيء الأحمر؟
ماريّا	لا تجر هكذا.
كراجلر	ألا تستطيعين متابعتي؟
ماريا	هل أنت خائف من أن يطاردوك؟
كراجلر	أنت تريدين كسب نقود؟ أين غرفتك؟
ماريا	كلامك هذا ليس لائقا.
كراجلر	نعم.
	(يريد أن يواصل مسيرته)
ماريا	أنا مصابة في رئتي.
كراجلر	لست ملزمة بمتابعتي!
ماريا	ولكن هذه...
كراجلر	أف! سيمحى هذا! سيغسل! سيشطب!
ماريا	وماذا أنت صانع الآن حتى باكر صباحا؟
كراجلر	توجد سكاكين.
ماريا	يا يسوع! يا مريم!

كراجلر	:	هدئي من روعك: لا أحب أن أسمعك تصيحين هكذا، يوجد أيضا كحول. مـــاذا تفضلين؟ يمكنني محاولة الضحك، إذا كان هذا يســرك. قولي لي هل أُلقي بك في عرض الشارع قبل تناولك الأول؟ أتدخنين؟ (يضحك) هيا بنا بعيدا!
ماريا	:	الرصاص يطلق في حي الصحافة.
كراجلر	:	ربما كانوا في حاجة إلينا في الناحية.
		(يخرجان. ريح. يدخل رجلان يسيران في الاتجاه نفسه)
الرجل الأول		أعتقد أن الأحسن أن نفعله هاهنا.
الثاني		من يدري هل هناك يمكن أيضا...
		(يبولان على الجدار)
الأول	:	المدفع.
الثاني		يا الله! في شارع فريدرش.
الأول	:	هناك حيث كنت تبيع خمورا مغشوشة.
الثاني	:	هذا القمر يكفي كي يجعلك مجنونا!
الأول	:	خصوصا حين يبيع المرء في السوق السوداء دخانا متعفنا!
الثاني	:	نعم، لقد تاجرتُ في دخان متعفن، لكنك كدّست أناسا في جحور فئران.
الأول	:	فيم يفيدك هذا الكلام؟
الثاني		لن أشنق وحدي!
الأول		أتعــرف ماذا صنــع البلشــفيك؟ أرني يديــك! ليس فيها انتفاخات!
		بــف، بــاف، (الآخــر ينظر فــي يديــه) بف، بــاف! إنهم يستشعرونه!
الثاني	:	يا إلهي!

الأول	سـيكون جميـلا أن تعـود إلى بيتـك وعلى رأسـك قبعة أسطوانية!
الثاني	وأنت أيضا تلبس القبعة نفسها.
الأول	نعم، ولكنها منبعجة ياعزيزي.
الثاني	أستطيع أنا أيضا أن أبعج قبعتي.
الأول	ياقتك الصلبة أسوأ من حبل مغسول بالصابون.
الثاني	إنهـا تصيـر طرية من كثـرة عرقي، ولكنـك تلبس حذاء بأزرار!
الأول	وكرشك!
الثاني	وصوتك!
الأول	ونظرتك، ومشيتك، وطريقتك في عرض نفسك!
الثاني	نعم، كل هذا سيسبب شنقي في أول عمود نور، ولكنك أنت عليك سيما المثقف!
الأول	عفـوا، أذني على شـكل القنبيط، وشـحمة أذني خرقتها رصاصة، يا سيدي العزيز.
الثاني	يا لله!
	(كلاهمـا يذهب. ريح. ركب الفالكيـري(*) يدخل من ناحية اليسـار: وأنّا يبدو أنها تهرب. وبالقرب منها مانكه Manke الجارسـون في بـار بيكادلي، وهو ملتف بمعطف المسـاء، وسلوكه سلوك مخمور. وخلفهما يأتي بابوش وهو يجر مورك السكران كل السكر، ووجهه شاحب، وملامحه منتفخة).

(*) Walkyrie: كلمة شمالية الأصل، من الكلمتين: فال Wal = ساحة المعركة + كيريا Kyria = التي تختار. وتطلق على ثلاث إلاهات (أو فتيات إلاهات) يفصلن في أمر المحاربين ويحددن من ينبغي أن يموتوا في ساحة القتال، ويسقنهم إلى القلهلا، وهي قاعة الإله أودين التي ترسل إليها أرواح الأبطال الذين قتلوا في ساحة الحرب.

مانكه	:	لا تتــرددي! لا تفكري! لقد رحل! حملته الريح! ربما ابتلعه حي الصحافة. الرصـــاص يطلق في كل مكان، وفي ناحية حي الصحافة يحدث كل شـــيء، خصوصا في هذه الليلة، وليس من المســتحيل أن يردَى قتيـــلا بالرصاص. (يحاول إقناع أنّا، على طريقة الســكارى) حـــين يطلق الرصاص، يمكـــن المرء النجاة، ويمكنه أيضـــا ألا ينجو. على كل حال، بعد ساعة، لن يجده أحد. سيذوب مثل الورق في الماء. لقد أصابه القمر. ويتبع أي ناعق. هيَّا! أنقذيه، وهو الذي كان، لا، وهو الذي لايزال عاشقك وحبيبك.
بابوش	:	(يتوقــف أمام أنّا) فقي، كل ركــب الفالكيري! إلى أين أنت ذاهبة؟ الجو بارد، والريح تعصف، وهو قد استقر في حانة من الحانات. (مقلدا الجارســون) هذا الـــذي انتظر أربع سنوات، لا أحد الآن يستطيع أن يعثر عليه بعد!
مورك	:	لا أحد، لا أحد أبدا.
		(يجلس على حجر)
بابوش	:	انظر إلى هذا!!
مانكه	:	وماذا يهمني منه! قدم إليـــه معطفا! لكن لا تضيع الوقت. وهذا الذي انتظر أربع ســـنوات، ها هو ذا الآن يعدو أسرع من هذه السحب! لقد اختفى أسرع من هذه الريح.
مورك	:	(بعدم اكتراث) كان في «البونش»(*) لون. ثم إن كل شيء كان جاهزا! جهاز العرس كامل، والشـــقة تم استئجارها. تعال بالقرب مني، يا باب(**)!

(*) شراب مؤلف عادة من الكحول وعصير الليمون والتوابل والشاي والماء.
(**) ترخيم لاسم بابوش.

مانكه	(مخاطبا أنّا) لماذا تبقين واقفة هكذا مثل زوجة لوط؟ هنا ليست عُمُورة(*)! هل يعجبك هذا الشخص المخمور البائس؟! فات الأوان لعمل شيء آخر. أهو بسبب جهاز العرس؟ أهذا سيمنع السحب من الجري؟
بابوش	لكن، قل، هل هذا من شأنك؟ هل السحب من شأنك؟ ما أنت إلا مجرد جارسون في مقهى، أليس كذلك؟
مانكه	كيف يهمني هذا؟! في كل مرة يشهد امرؤ عملا خسيسا من دون أن يتحرك، فإن النجوم تخرج عن مسالكها. (يمسك برقبته بين يديه) وأنا أيضا أطاحت بي هذه الدوامة. إنها تمسك بمخنقي! يجب ألا يكون المرء خسيسا، حين يشاهد إنسانا يغرق.
بابوش	ماذا تقول؟ يغرق؟ من الذي يتحدث عن الغريق؟ أنا أقول لك: سيُسمع صراخ وخوار ثيران، في حي الصحافة، من الآن حتى الصباح. وسيصبح الأمر في أيدي الغوغاء الذين يعتقدون أن الوقت قد حان لتسوية حسابات قديمة!
مورك	وقد نهض، ينوح. مخاطبا أنّا) لماذا تجرينني هكذا في الريح؟ أرغب في القيء، لماذا ترحلين؟ ماذا جرى؟ أنا في حاجة إليك. ليس هذا من أجل جهاز العرس.
أنّا	لا أستطيع.
مورك	لا أستطيع أن أمسك نفسي على ساقيّ.
مانكه	إذن اجلس! لست الوحيد في هذا. هذا يُعْدِي. سيصاب الأب بنوبة قلبية، والأم، هذه الكانجورو المخمورة، لا تكفّ عن البكاء. لكن البنت تنزل إلى الأحياء الوضيعة، بحثا عن حبيبها الذي انتظر أربع سنوات.

(*) قرية النبي لوط.

أنّا : لا أستطيع.

مورك : جهاز عرسك على التمام. والأثاث موجود في الشقة.

مانكه : والبياضات مطوية، ولكن العروس لا تحضر.

أنّا : جهاز عرسي اشتُري، وقد رتبته في الصوان، قطعة بعد قطعة، ولكني لا أحتاج إليه الآن. والشقة استؤجرت، والستائر وضعت. ولا تنقص حتى سجادة واحدة. لكن وصل هذا الذي لا يملك غير بذلة مزقتها العثة ولا يلبس حذاء.

مانكه : وحيّ الصحافة ابتلعه! والحانة تترصده! الليل! البؤس! الغوغاء! أنقذيه!

بابوش وكل هذا يؤلف مسرحية: ملاك المراقص الشعبية.

مانكه نعم، الملاك.

مورك : وتريدين أن تذهبي إلى مدينة فريدرش؟ لا شيء يمنعك؟

أنّا : لا، أرى مانعا.

مورك : لا شيء؟ ألا تريدين أن تفكري قليلا في «الشيء الآخر»؟

أنّا : الحبل هو الذي شدّني.

مورك : وهو لا يحجزك؟

أنّا : لقد انقطع الآن.

مورك : ولا تكترثين لولدك؟

أنّا : لا أكترث له.

مورك لأنه وصل من ليس له بذلة؟

أنّا لم أكن أعرفه قبل ذلك.

مورك لكنه لم يعد هو هو! لم يكن ممكنا أن تكوني قد عرفته!

أنّا لقد كان ماثلا هناك كالحيوان في وسط دائرتك. ثم ضربتموه كما يضرب الحيوان!

مورك وأخذ ينوح كما تنوح المرأة العجوز!

أنّا وأخذ ينوح كما تنوح المرأة العجوز!

مورك ثم مضى وتركك هناك.

أنا ومضى وتركني هناك.

مورك لقد انقضى أمره!

أنّا لقد انقضى أمره!

مورك لقد رحل...

أنّا لكن في اللحظة نفسها التي رحل فيها، وانقضى أمره...

مورك لم يحدث شيء، لم يحدث أي شيء.

أنّا حدثت وراءه دوامة وحركة نسيم خفيف، لكنه قوي جدا، أقوى من كل شيء. وحينئذ ذهبت أنا، والآن وصلت، وانقضى أمر كلينا معا هو وأنا. أين ذهب؟ الله وحده يعلم أين هو! العالم واسع، فأين عساه هو؟ (تتطلع في مانكه بهدوء وتقول له بلهجة خفيفة) ارجع إلى حانتك، أشكرك، وأعده إلى هناك! أما أنت يا بابوش، فتعال معي!

(تخرج وهي مهرولة من ناحية اليمين)

مورك (باكيا) أين ذهبت؟

بابوش الآن، يا عزيزي، ركب الفالكيري، موجود في البحيرة.

مانكه اختفى الحبيب، لكن المحبوبة تطير إليه على أجنحة الحب. عرف البطل السقوط، لكن صعوده يتهيأ الآن.

بابوش لكن الحبيب سيلقي بالحبيبة في النهر وسيفضل السماء على النزول إلى العالم السفلي. آه! يا لك من رومانتيكي!

مانكه : لقد اختفت، وهرولت إلى حيّ الصحافة. ولاتزال تُرى هناك، شبيهة بالشراع الأبيض، والفكرة الطاهرة، والمقطوعة الأخيرة من قصيدة، والبجعة الأنيقة وهي تنساب على الأمواج...

بابوش : وماذا سيحدث لهذا المرج المبتل بالكحول؟

مورك : سأبقى هاهنا. الجو بارد. فإن زادت البرودة، عادوا. أنت لا تفهم في هذا شيئا، لأنك تجهل الباقي. دعهم يجروا. إنه لن يأخذ اثنتين! لقد ترك واحدة، وإن اثنتين لتجريان وراءه.

(يضحك)

بابوش ها هي ذي، والله، تطير كالمقطوعة الأخيرة من قصيدة!

(يمضي في الاتجاه نفسه)

مانكه : (يصيح فيه) مقهى جلوب Glubb، في شارع الشوسيه! المومس التي كانت معه محلها المختار هو في مقهى جلوب! (يمد ذراعيه، بصوت فخم) الثورة تبتلعهم، فهل سيلتقون؟

* * *

الفصل الرابع

(ينبلج فجر)

حانة صغيرة

(جلوب، صاحب الحانة، يلبس ملابس بيضاء، ويغني شكوى الجندي القتيل، بمصاحبة الماندولين. لار laar ورجل أسمر سكران لا يتوقفان عن النظر إلى أصابعه. رجل قصير ربعة، اسمه بولتروتر Bulltrotter يقرأ الجريدة. مانكه الجارسون يشرب مع أوجستا، وهي مومس. الجميع يدخنون)

بولتروتر	:	أريد ماء حياة، ولا أريد جنديا قتيلا، وأريد أن أقرأ الجريدة، ومن أجل هذا لا بد لي من شرب ماء الحياة، وإلا فلن أفهم ما أقرأ، بحق الله!
جلوب	:	(بصوت بارد لا معنى له) ألست راضيا هنا ؟
بولتروتر	:	نعم، لكن الآن توجد الثورة.
جلوب	:	ما الفائدة؟ عندنا حثالة المجتمع سعداء، ولازارس يغني.
الرجل المخمور	:	الحثالة هي أنا، وأنت لازارس.
عامل	:	(يدخل ويذهب إلى الكونتوار) نهارك سعيد، يا كارل.
جلوب	:	مستعجل؟
العامل	:	الساعة الحادية عشرة، في ميدان السجن.
جلوب	:	تروى أشياء كثيرة.
العامل	:	فرقة الحرس تحتل منذ الساعة السادسة المحطة. وفي «إلى الأمام» كل شيء يسير سيرا حسنا. في يوم كهذا اليوم نفتقر إلى باول. (صمت)
مانكه	:	هنا، عادة، لا يتحدثون عن باول.
العامل	:	اليوم ليس يوما عاديا. (يخرج)

مانكه : (يخاطب جلوب) وفي نوفمبر كانت الحال عادية؟ ما يفتقرون إليه هو قطعة من الخشب في اليد، وشعور يلصقها في الأصابع.

جلوب : (ببرود) هل تريد شيئا يا سيدي؟

بولتروتر : الحيوية!

(يخلع سترته ويحل ياقته)

جلوب : بناء على تعليمات الشرطة ممنوع الشرب بدون السترة.

بولتروتر : رجعيّ!

مانكه حاول إذن أن تغني نشيد الدولية، بأربعة أصوات، مع التريمولو! الحُرّية! وفي هذه اللحظة سيّد بأكمام نظيفة يكلّف بتنظيف الكنيف، أليس كذلك؟

جلوب أنت تفسد الرخام: إنه من خشب.

أوجستا : وذوو الأكمام البيضاء ليس عليهم إذن أن ينظفوا الكنيف؟

بولتروتر : أنت، ياصغيرتي، سيلصقونك على الحائط.

أوجستا : في هذه الحالة يرجى من ذوي الأكمام البيضاء أن يضعوا غطاء على مخارجهم

مانكه : يا أوجستا، أنت مبتذلة.

أوجستا : عليكم أن تشعروا بالخزي والعار، يا عصابة من خنازير. ما يلزم هو انتزاع أحشائكم، ومكانكم، يا من تلبسون أساور قميص، هو على عمود النور. يا آنسة، رخّصي الأجرة، فقد خسرنا الحرب! ما عليك إلا أن تمتنع عن الجنس إذا لم يكن معك نقود، وأن تمتنع عن خوض الحرب إذا لم تكن قادرا عليها. وأنت، ارفع رجليك من فوق المنضدة، حين يكون ثم سيدات! هل أنا ملزمة باستنشاق رائحة أقدامكم الكريهة، يا قليلي الأدب!

جلوب	لكن أكمامه ليست بيضاء أبدا.
الرجل المخمور	ما الذي نسمعه يتدحرج على الأسفلت؟
مانكه	مدافع!
الرجل المخمور	(ينظر إلى الآخرين بتهانف، وهو شاحب) ما هذا الذي يسمع هكذا وهو يتدحرج على الأسفلت؟
	(جلوب يسرع إلى النافذة ويفتحها دفعة واحدة. تسمع أصوات المدافع وهي تدرج في الشارع. الجميع يذهبون إلى النافذة)
بولتروتر	هؤلاء هم الخنافس، فرقة الحرس!
أوجستا	بحق العذراء المقدسة، إلى أين هم ذاهبون؟
جلوب	إلى حي الصحافة، من غير شك. إنهم قراء!
	(يغلق النافذة)
أوجستا	بحق العذراء المقدسة، من هناك عند الباب؟
	(كراجلر عند المدخل، يترنح كأنه سكران، ويضع قدما على قدم)
مانكه	ها أنت بسبيل أن تبيض بيضة؟
أوجستا	من أنت؟
كراجلر	(بتهانف شرير) لا أحد.
أوجستا	لكن العرق يتصبب على رقبتك! هل أنهكك الجري إلى هذا الحد؟
الرجل المخمور	هل أنت مصاب بإسهال؟
كراجلر	لا، ليس عندي إسهال.
مانكه	(وقد ذهب إليه) إذن، أيَّ جريمة ارتكبت، يا رجل، أنا أعرف هذا النوع من السحنات.

ماريا (تظهـر خلفه) لم يرتكـب جريمة. بل أنا التـي دعوته، يا أوجستا. إنه لا يدري إلى أين يذهب. إنه عائد من أفريقيا! (مخاطبـة كراجلـر يظل واقفا عند عتبة (كراجلـر) اجلس (الباب)

مانكه أسير؟

ماريا نعم، ومفقود.

أوجستا ومفقود أيضا؟

ماريا وأسير. وفي تلك الأثناء اختطفوا منه خطيبته.

أوجستا إذن تعـال هاهنـا بالقرب مـن ماما. اجلس، يـا مدفعي. (مخاطبة جلوب) خمس كاسـات مزدوجـة مـن الكـيرش، يا كارل!

(جلـوب يملأ خمس كؤوس، ومانكه يصفها على الكرسـي المستدير)

جلوب وقد خطفوا مني في الأسبوع الماضي دراجة.

(كراجلر يتوجه ناحية الكرسي المستدير)

أوجستا حدثنا عن أفريقيا.

(كراجلر لا يجيب، ولكنه يشرب)

بولترونر تسـتطيعين الذهاب إليها. افرغي حقيبتك: صاحب المحل احمر.

جلوب أنا ماذا؟

بولترونر أحمر.

مانكه شيئا من الأدب، يا سيد، لا شيء هنا أحمر، يا سيد.

بولترونر حسن. أنا لم أقل شيئا.

أوجستا وماذا فعلت هناك؟

كراجلر : (مخاطبــا ماريا) أطلقــت الرصاص على بطــون الزنوج، وغطيت الطرق بالأحجار.

(هي تسعل) إذن دائما رئتاك؟

أوجستا وكم بقيت هناك؟

كراجلر (يخاطب دائما ماريّا) سبعة وعشرين.

ماريا : شهرا.

أوجستا : وقبل ذلك؟

كراجلر : قبل ذلك؟ كنت في جحر مملوء بالطين.

بولتروتر : وماذا كنت تعمل فيه؟

كراجلر : لأتعفن فيه؟

جلوب : أجل، كان في مقدورك ألا تعمل شيئا كما تشاء.

بولتروتر : وفي أفريقيا، كيف الفتيات؟

(كراجلر يسكت)

أوجستا : لا تكن مبتذلا هكذا.

بولتروتر : وحينمــا رجعت، لم تكن هي فــي البيت، أليس كذلك؟ لقد كنت تظن أنها في الصباح ستأتي إلى الثكنة في انتظارك، وسط الكلاب؟

كراجلر : (مخاطبا ماريّا) هل ألكمه لكمة على شدقه؟

جلوب : لا، ليس بعد. لكنك يمكنك أن تجعل الأوركسترا الميكانيكي يعزف. هذا، نعم.

كراجلر : (ينهض مترنحا، ويحيي التحية العسكرية) تحت أمرك.

(يشغل الأوركسترا الميكانيكي)

بولتروتر : عاطفيات!

أوجستا : ليس عنده شــعور أكثر ممــا عند الجيفة، إنــه في عداد الموتى.

جلوب : أجـــل، أجل، أجـــل. لقد أهين بعض الإهانة. لكن العشـــب سينمو على هذه الحكاية.

بولتروتر : إذن، قل له، ألســـت أحمر؟ يا جلوب، ألم يجر الحديث عن ابن أخ؟

جلوب : نعم، جرى الحديث عن هذا. ولكن ليس في هذا المقهى

بولتروتر : لا، ليس في هذا المقهى. عند سيمنس.

جلوب : ليس من وقت بعيد.

بولتروتر : عند ســـيمنس، ليـــس من وقت بعيـــد. كان عاملا على آلة تشـــكيل، ولكن ليس لمدة طويلة. كان عاملا على آلة تشكيل حتى شهر نوفمبر، أليس كذلك؟

الرجل المخمور : (الذي لم يفعل حتـــى الآن غير أنه كان يضحك، يأخذ في الغناء)

مات إخواني ولم يفلت أَحَدٌ

وأنا كدتُ ألاقي مصرعي.

كنتُ في تشرين أحمر،

غير أنّا في يناير.

جلوب : يا ســـيد مانكه، هذا السيد لا يريد أن يضايق أحدا. اعمل الواجب.

كراجلر : (وقد أمسك بأوجستا من خصرها وأخذ يقفز معها)

دخل الكلب إلى المطبخ

واستلّ من الطبّاخ بيضة

فأتى الطبّاخ بالسّاطور

وانقض على الكلب فقدّه.

الرجل المخمور : (وقـــد تمزق من الضحك) عامل على آلة تشـــكيل لمدة غير طويلة.

جلوب أرجوك ألا تفسد عليّ الكؤوس، يا مدفعي!

ماريا الآن هو سكران. آلامه أقل.

كراجلر آلامه أقل؟ عَز نفسك دائما، يا أخي العربيد، قائلا لنفسك: كل هذا غير موجود.

أوجستا اشرب أنت.

الرجل المخمور ألم يجر الحديث عن ابن أخ؟

كراجلر ما الخنزير في نظر الله الآب، يا أختي المومس؟ لا شيء.

الرجل المخمور لكن ليس في هذا المحل.

كراجلر ولم لا؟ هل يمكن إلغاء العسكريين أو الله الرحمن؟ هل تملك أن تلغي التعذيب أيها المالك الأحمر، وألوان التعذيب التي علّمها البشر أنفسهم للشيطان؟ لست قادرا على هذا. لكن أن تقدم ماء حياة، فهذا في وسعك. إذن اشرب وأغلق الباب، لا تدع الريح تدخل، الريح التي تشعر بالبرد هي الأخرى، لكن أسدل الستائر الخشبية.

بولتروتر صاحب المحل يقول إنه وقعت إهانة، وظلم، ولكنه يقول إن العشب سينبت من فوقها.

كراجلر سينبت؟ قلت: ظلم، يا أخي صاحب المحل، ياصاحب المحل يا أحمر؟ ما أضحك كلمة: ظلم. إنهم يخترعون كثيرا من الكلمات الصغيرة هكذا. ويلقون بها في الهواء، وبعد ذلك يستطيعون أن يذهبوا للنوم وأن ينتظروا أن يمر هذا. والأكبر يضرب وجه الأصغر، والسمين يصنع زبدته. هنالك ينبت العشب جيدا.

الرجل المخمور على ابن الأخ، الذي ليس موضوعا للحديث.

كراجلر فأتى باقي الكلاب،
حفروا للمَيِّت قبرا،

وعلى الشاهد خطوا

دخل الكلب إلى المطبخ...

ولهذا ينبغي علينا أن نتفاهم فيما بيننا على خير وجه ونحن في هذا الكوكب الصغير، الجو بارد هنا ومظلم شيئا، أيها المالك الأحمر، والعالم أشد شيخوخة من أن يكون له مستقبل أفضل، والسماء قد استؤجرت، يا أعزائي.

ماريّا : ماذا سنفعل؟ هو يقول إنه يريد أن يذهب إلى حي الصحافة. لكن ماذا يجري هناك؟

كراجلر : عربة تذهب إلى بار البيكادلي.

أوجستا هل هي فيها؟

كراجلر إنها فيها. نبضي عادي جدا، أمسكي.

(يبسط يده اليسرى، ويشرب باليد الأخرى)

ماريا : اسمه أندرياس.

كراجلر : أندرياس. نعم، أندرياس كان هو اسمي.

(يستمر في جس نبضه، وكأنه ذاهل)

لار : كانت خصوصا أشجار صنوبر، صغيرة.

جلوب : آه! هاهو ذا الحجر الذي أخذ في فتحه.

بولتروتر : وهنالك بعت، يا مغفل.

لار : من؟ أنا؟

بولتروتر : آه! حكاية البنك! شائقة، يا جلوب، ولكن ليس في هذا المقهى.

جلوب أهانوك؟ لكنك قادر على ضبط نفسك. إذن، إذن ما عليك إلا أن تضبط نفسك! لو نزعوا منك جلدك، فلا تتحرك يا مدفعي، وإلا انشق بالطول، وليس عندك غيره (يستمر في غسل الكؤوس) آه! أجل، لقد أهانوك إهانة بسيطة،

ضربوك بالسيف، وأطلقوا عليك دانات المدفع، واستولوا عليك، وبصقوا عليك. ثم ماذا بعد ذلك؟

بولتروتر : (وهو يرى الكؤوس) ليست نظيفة بعد؟

الرجل المخمور : اغسلني ياربي حتى أصير أبيض! اغسلني حتى أصير أبيض كالثلج! (يغني)

مات إخواني ولم يفلت أحد،

وأنا كدت ألاقي مصرعي،

كنت في تشرين أحمر،

غير أنّا في يناير.

جلوب كفى.

أوجستا يا عصابة الجبناء!

بائعة جرائد (تدخل) الاسبارتاكيون في حي الصحافة! روزا الحمراء تخطب في الهواء الطلق بحديقة الحيوان! هل نتحمل وقتا طويلا انفجارات الغوغاء؟ أين الجيش؟ عشرة ملاليم، يا مدفعي، أين الجيش؟ عشرة ملاليم.

(لما لم يشتر أحد الجريدة تخرج)

أوجستا : وليس ثم باول!

كراجلر : استؤنف إطلاق الرصاص؟

جلوب : (يغلق بالمفتاح صوان زجاجات الليكير، ويجفف يديه) سنغلق المحل.

مانكه لنسرع يا أوجستا! لك يقال هذا الكلام، فلنسرع! (مخاطبا بولتروتر) وأنت يا سيدي؟ ماركان وستون بفنج.

بولتروتر شهدت معركة جتلند. ولم يكن الأمر سهلا.

(الكل ينهضون)

الرجل المخمور : (معانقا ماريّا) وغدة جميلة، ملاك ناعم، سبح معه في بحر الدموع هذا .

كراجلر : إلى حي الصحافة معنا!

دخل الكلب إلى المطبخ،

واستل من المطبخ بيضة،

فأتى الطباخ بالساطور،

وانقض على الكلب، فقَدّه.

(لار، الفـــلاح، يذهب مترنحا إلى الأوركســـترا الميكانيكي، وينتزع منه الطبلة، ويتبع الآخرين وهو يقرع الطبلة)

* * *

الفصل الخامس

(السرير)

جسر من خشب

(صيحات، قمر أحمر كبير)

بابوش : كان الواجب عليك أن تعودي إلى بيتك.

أنّا : لا أستطيع بعد. وما الفائدة؟ لقد انتظرت أربع سنوات بصحبة صورته الشمسية، ثم أخذت شخصا آخر. كنت أخاف في أثناء الليل.

بابوش : لقد فرغت سيجاراتي. ألا تُريدين العودةَ إلى بيتِك أبدا؟

أنّا : اسمع!

بابوش : إنهم يمزقون الجرائد، ويلقون بها في برك الماء، ويسبون المترليوزات، ويطلقون الرصاص على الوجود، ويحسبون أنهم يبنون عالما جديدا. وها هي ذي عصابة أخرى قد قدمت.

أنّا : ها هو ذا!

(كلما اقتربت الجماعة نشأ اضطراب كبير في الأزقة المجاورة. طلقات النار تندفع في اتجاهات عديدة)

أنّا : الآن، سأخبره.

بابوش : سأغلق فمك.

أنّا : لست بلهاء. الآن، سأصيح.

بابوش : وأنا الذي ليس معه بعد سيجار!

(ينبثق من بين البيوت جلوب، ومانكه والامرأتان، وأندرياس كراجلر)

كراجلر	أنا مبحوح. أفريقيا تخرج من ثقوب أنفي سأشنق نفسي.
جلوب	ألا يمكنك أن تشــنق نفسك غدا، وتأتي معنا الآن إلى حي الصحافة؟
كراجلر	(وهو يحدق في أنّا) بلى!
أوجستا	أترى رؤيا؟
مانكه	ماذا جرى لك يا صاحبي؟ إن شعرك يقف على رأسك!
جلوب	أهي؟
كراجلر	نعم، ماذا هناك، أتتوقفون؟ ســأذهب بكم إلى حيث تقتلون رميا بالرصاص! إلى الأمام، إلى الأمام، دائما إلى الأمام!
أنّا	(تتقدم للقائه) أندريه!
الرجل المخمور	ارفع الساق فالحب ينادي!
أنّا	يا أندريه، توقف. إنه أنا. أردت أن أقول لك شيئا. (صمت). أردت أن ألفت انتباهك إلى شــيء. توقف قليلا، أنا لست سكرى. (صمت). ليس على رأسك شيء، والجو بارد. لا بد أن أهمس في أذنك بشيء.
كراجلر	هل أنت سكرى؟
أوجستا	العروس تجري وراءه، والعروس سكرى!
أنّا	نعم، ماذا تقول؟ (تخطو بضع خطوات). أنا حامل.
	(أوجستا تقهقه بضحكة حادة. كراجلر يترنح، يحدق ناحية الجســر، يأخذ في رفع قدمه كأنه يبدأ من جديد في تعلم المشي)
أوجستا	لستَ سمكة حتى تستنشق الهواء هكذا!
مانكه	أوه! أتحسب أنك تحلم؟
كراجلر	(وإصبعه على خط خياطة البنطلون) تحت أمرك!
مانكه	إنها حامل. الحمل بأطفال، هذه مهنتها. تعال الآن!

كراجلر : (بتشدد) تحت أمرك. إلى أين؟

مانكه : لقد صار مجنونا.

جلوب : ألم تكن في أفريقيا؟

كراجلر : مراكش، الدار البيضاء، الثكنة!

أنّا : أندريه!

كراجلر : (مرهفا أذنه) اسـمعي، يا عروسي، يا عاهرة! لقد جاءت، ها هي ذي، بطنها مملوء.

جلوب : إن فيها فقر دم، أليس كذلك؟

كراجلر صه! لم أكن أنا، لم أكن أنا الذي فعلته.

أنّا أندريه، هناك ناس!

كراجلر هل الهواء هو الذي نفخ بطنك، أو أنت صرت مومسـا؟ لم أكـن موجودا، ولم يكن في مقدوري مراقبتك. كنت مغروزا في الطين؟

ماريا : ينبغي ألا تتكلم هكذا. ماذا تعرف إذن؟

كراجلر : وأنت التي أردت أن أراها من جديد. وإلا، لكنت ممددا في مكاني الحقيقي، والريـح تهزم في جمجمتي، والتراب في فمي، ولن أعرف شيئا. لكن هذا أيضا هو ما أردت أن أراه. كان لا بد لي أن أدفع ثمنه. لقد أكلت الكُسْـبَ، وكان مُرّا. وزحفـت على قدمي ويديّ لأخرج من جحري. آه! كان ذلك خبثا! يـا ويلتاه! لقد كنت خنزيرا! (يفتـح عينيه) أتظنون أنكم تشاهدون مسرحية؟ هل دفعتم ثمن التذاكر؟

(يمسك بقطع من الطين على الأرض ويرمي بها حواليه)

أوجستا امنعوه!

أنّا استمر يا أندريه، استمر! ارم في هذه الجهة، ارم!

ماريا أبعدوا هذه المرأة، إنه سيقتلها.

كراجلر : اذهبوا إلى الشيطان! عندكم كل ما رغبتم فيه. يمكنكم أن تفتحوا أفواهكم. هذا كل شيء، لا أكثر.

أوجستا : الرأس منكس إلى أسفل! في التراب، الرأس! (الرجال يمسكون برأس كراجلر في مواجهة الأرض)

أوجستا : والآن، اذهبي يا آنسة، أرجوك.

جلوب : (مخاطبا أنّا) نعم، اذهبي إلى بيتك الآن! هواء الصباح مفيد للمبايض.

بابوش : (يتقدم نحو كراجلر وهو يخترق ساحة القتال بميل، ويقول له، وهو يستمر في مضغ طرف سيجار) الآن تعرف أين استقرت القذيفة. أنت الله الآب. وقد فجّرت رعدك. أما هذه المرأة، فهي حامل، ولا تستطيع أن تستمر جالسة على هذا الحجر، والليالي باردة، وربما تستطيع أن تقول شيئا...

جلوب : نعم، ربما تستطيع أن تقول شيئا.

(الرجال يدعون كراجلر ينصب قامته. صمت. الريح تهب. يمر رجلان مسرعان)

أحدهما : لقد استولوا على بيت أولّشتين Ullstein.

الآخر : وأمام محل موسّه Mosse أحضروا المدافع.

الواحد : نحن قلة قليلة جدا.

الآخر : كثيرون قادمون في الطريق.

الواحد : بعد فوات الأوان، بعد فوات الأوان بكثير.

(مرّا)

أوجستا هل سمعتم؟ هيّا، لننه المسألة الآن.

مانكه ألقوا بالجواب في فمه، هذا البورجوازي وفاجرته!

أوجستا (تريد أن تجر كراجلر) تعال معنا إلى حي الصحافة، يا

فتى، سترى أنك سينبت لك شعر الوحش!

جلوب : ما عليك إلا أن تتركها في حالها عند حدها! في الساعة السابعة ستأخذ أول «مترو».

أوجستا : لن يسير «المترو» اليوم.

الرجل المخمور : إلى الأمام، لندخل في الرقص!
(أنّا نهضت)

ماريا : (وهي تتطلع فيها) بيضاء مثل الغسيل.

جلوب : شاحبة قليلا، ونحيلة قليلا.

بابوش سيغمى عليها.

جلوب يبدو عليها هذا، لكن الضوء هو الذي يصورها هكذا.
(ينظر إلى السماء)

أوجستا هؤلاء قادمون من فدنج Wedding.

جلوب : (وهو يفرك يديه) وأنت أيضا أتيت في الوقت نفسه مع المدافع. لعلك من الاتجاه ذاته؟ (كراجلر يعتصم بالصمت) أنت لا تقول شيئا، وهذا عين العقل. (يلف حول كراجلر) سترتك مزقتها طلقات الرصاص، وأنت ممزق مهلهل. ولكن هذا لا أهمية كبيرة له. ربما فقط حذاؤك هو الذي يضايق، لأنه يزقزق. لكن تستطيع أن تشحمه، أليس كذلك؟ (يستنشق الهواء) منذ الساعة الحادية عشرة بعض الكواكب قد أطيح بها، وبعض المنقذين قد أكلتهم الطيور، ومن الخير أنك بقيت. هضمك فقط هو الذي لايزال يسبب لي بعض الهموم. على كل حال، أنت على الأقل لست شفافا تماما: لاتزال ترى على الأقل.

كراجلر تعالَي هنا، يا أنّا!

مانكه «تعالي هنا، يا أنّا!».

أنّا قولوا، أين محطة المترو؟

أوجستا لا مترو اليوم. اليوم لا مترو، ولا قطار ضواحي، ولا «ترام» طوال النهار. اليوم راحة في كل مكان، والقطارات متوقفة على كل الخطوط، وسنمشي على أقدامنا كالرجال، حتى المساء، يا عزيزتي.

كراجلر تعالي هاهنا بالقرب منّي، يا أنّا!

جلوب ألا تريد أن تمشي معنا قليلا، يا أخي المدفعي؟

(كراجلر يلتزم الصمت)

جلوب كان منا من كان يريد أن يشرب كأسا أخرى أو كأسين، لكنك أنت كنت ضد هذا الرأي. وكان منا من كان يود أن ينام مرة أخرى في سرير، لكنك أنت لم يكن لك سرير، ومن أجل هذا لم نعد إلى بيوتنا.

(كراجلر يلتزم الصمت)

أنّا ألا تريد أن تذهب إلى هناك، يا أندريه؟ هؤلاء السادة ينتظرونك.

مانكه إذن، هل قررتِ قرارك؟ اكشفي عما في بطنك.

كراجلر ارموني بالحجارة، فلن أتحرك، وأنا مستعد للتنازل عن قميصي من أجلكم، لكن أن أقدم قفاي للسكين، كلا، هذا لا أريده.

الرجل المخمور اسم الله! اسم الله!

أوجستا وإذن؟ وإذن، حي الصحافة؟

كراجلر لا فائدة. لن أنقاد إلى حي الصحافة وأنا بقميصي. انتهى. لم أعد خروفا. لا أريد أن أموت.

(يستل غليونه من جيب بنطلونه)

جلوب ألا تعتقد أنك بهذا تتصرف تصرف رجل مسكين؟

كراجلر : ياعزيزي، إنهم يضربون الرصاص في البطون مباشرة! أنّا! يا لنظرتك إليّ، باسم الله! هل يجب عليّ أن أبرز نفسي أمامك؟ (مخاطبا جلوب) أنت، لقد قتلوا ابن أخيك، أما أنا فقد استرددت زوجتي. تعاليّ يا أنّا!

جلوب : أعتقد أننا نستطيع الاستمرار في السير وحدنا.

أوجستا : إذن كل هذا، أفريقيا وسائر الأشياء، كله كان أكاذيب.

كراجلر : لا، قد كان حقيقيا! أنّا!

مانكه : السيد قد نادى مثل السمسار في البورصة، والآن السيد يريد أن يذهب إلى الفراش.

كراجلر الآن، عندي زوجتي.

مانكه أهي ملكك الآن حقا؟

كراجلر تعالي هنا، يا أنّا! إنها ليست سليمة، لم تعد بريئة. هل سلكت كما ينبغي، أو تحملين ولدا في بطنك؟

أنّا : ولد، نعم، أحمل ولدا.

كراجلر : تحملينه.

أنّا : إنه هنا. والفلفل لم يفد في شيء، وخطوط جسمي فسدت إلى الأبد.

كراجلر : هذه هي حالتها!

مانكه : ونحن؟ امتلأنا من الكحول حتى القلب، وحُشينا من العبارات حتى الرقبة، ومن السكاكين حتى أقدامنا، من الذي وضع كل هذا فينا؟

كراجلر أنا. (مخاطبا أنّا) نعم، هذه حالتك يا فتاة.

أنّا نعم، هذه حالتي أنا.

أوجستا ألم تصح: «إلى حي الصحافة!» – أليس كذلك؟

كراجلر بلى، فعلت ذلك. (مخاطبا أنّا) تعالي هنا.

مانكه	:	نعـــم فعلت ذلك. ولن تتخلص من الأمر بهذه الســـهولـة، يا صاحبي. لقد صحت: «إلى حي الصحافة»!
كراجلر	:	وأنا عائد إلى بيتي. (مخاطبا أنّا) هل أدفعك دفعا؟
أوجستا	:	سافل!
أنّا	:	دعني! لقد مثلت الكوميديا على أبي وأمي، واستقبلت شابا في سريري.
أوجستا	:	وغد، أنت الآخر.
كراجلر	:	ماذا أصابك؟
أنّا	:	لقد اشتريت الستائر معه. ونمت معه في السرير.
كراجلر	:	اسكتي!
مانكه		لو تتزعزع، لشنقت نفسي، يا رجل!
		(في العمق بعيدا تُسمع صيحات)
أوجستا	:	والآن هم يهجمون على محلات موسّه Mosse
أنّا	:	وأنت لقد نسيتك تماما، على الرغم من الصورة الشمسية، نسيتك من رأسك حتى أخمص قدميك.
كراجلر	:	اسكتي.
أنّا	:	نسيتك، نسيتك.
كراجلر	:	وأنـــا لا يهمني. هل كان عليّ أن أبحث عنك، وســـكّيني في يدي؟
أنّا	:	نعم، تعالَ خذني، نعم، بسكينك!
مانكه	:	في الماء، هذه الجيفة!
		(ينقضون على أنّا)
أوجستا		نعم، انتزعوا منه هذه العاهرة!
مانكه	:	أمسكوا بها من خناقها.

أوجستا : في الماء، هذه المزيّفة.

أنّا : أندريه!

كراجلر : كفوا! انصرفوا!

(لا تسمع حشرجات الصدور. من بعيد، تسمع أصوات المدافع المكتومة، على فترات غير منتظمة)

مانكه : ما هذا؟

أوجستا : المدفعية.

مانكه : مدافع.

أوجستا : فليرحم الله كل الذين هناك. إنهم يتطايرون كالسمك.

كراجلر : أنّا!

(أوجستا تهرع إلى العمق وهي محنية الظهر)

بولترورتر : (يظهر في عمق المسرح على الجسر) يا إلهي! ماذا تفعلون؟

جلوب : إنه يبول على نفسه!

مانكه : يا وغد!

(يخرج)

كراجلر الآن أنا عائد إلى بيتي، يا طائري الجميل.

جلوب : (وقد وصل إلى الجسر) نعم، لاتزال عندك خصيتاك.

كراجلر : (مخاطبا أنّا) لايزال الصفير، تشبثي برقبتي، يا أنّا.

أنّا : سأجعل نفسي صغيرة جدا.

جلوب : وأرجو أن تشنقي نفسك، غدا صباحا، في الكنيف. (اختفت أوجستا هي والآخرون)

كراجلر : أنت يا صاحبي ستُقتل رميا بالرصاص.

جلوب : نعم، يا صاحبي، هواء الصباح غنيّ بالوعود لكن هناك من يفضلون الاحتماء بمأمن.

(يختفي)

كراجلر كنتم على وشـــك أن تغرقوا في الدموع التي ذرفتموها على مصيري، وأنا لم أفعل غير أن غســلت قميصي بدموعكم! ربمـــا كان عليّ أن أجعـــل لحمي يتعفن فـــي النهر لأجعل فكرتكم ترتفع إلى السماء؟ أنتم سكارى، أليس كذلك؟

أنّا أندريه! كل هذا لا أهمية له.

كراجلر (مـــن دون أن يتطلـــع في وجههـــا، وهو يدور على نفســـه ممســـكا رقبته بيديه) لقـــد ضقت ذرعا إلـــى هذا الحد! (يتهانف بشراســـة) مسرحية هذه كلها، ومن أخسّ الأنواع! ألواح، وقمـــر من ورق، وخلف ذلـــك: منضدة الجزار: هي وحدها الحقيقية. (يســـتأنف الدوران حول نفسه، وذراعاه مرتفعتان، ثم يســـقط على الأرض حيث يلتقط طبلة مقهى جلوب) لقد نســـوا طبلتهم. (يقرعها) «النصف اسبارتاكي، أو قوة الحب!»، «حمام دم في حي الصحافة»، أو «في جلده يشـــعر كل إنســـان بالأمان». (يرفع عينيه، ويطرف بجفنه) يرفع على الدرع أو بدون درع. (يضرب على الطبلة) القرية تعزف والمســـاكين يموتون في حي الصحافة، والمنازل تنهار على رؤوســـهم، والفجر ينبلج، وهم ممددون على الأسفلت كأنهم قطـــط غارقة، وأنا خنزير، والخنزير يعود إلى بيته. (يسترد نفسه) سألبس قميصا نظيفا، وجلدي أملكه دائما، وســـترتي أنا أتركها، وحذائي سأدهنه بالورنيش (بضحكة شريرة) كل هذه الصيحات ســـتنتهي، غدا صباحا، ولكني أنا ســـأكون في فراشـــي غدا صباحا، وســـأتكاثر حتى لا تنقطع ذريتي. (طبـــل) لا تنظروا نظرات رومنتيكية هكذا! يا عصابة من المرابين! (طبل) يا قاطعي الرقاب! (يضحك ملء حلقه حتى ليكاد يختنق) أيها الجبناء المتعطشـــون إلى الدماء! (ضحكة تتوقف في حلقه، ولا يملك نفسه، يترنح، يرمي بالطبلة نحو القمر، الذي كان مجرد مصباح. الطبلة

والقمر يســقطان في النهر الذي لا يجري فيه أيّ ماء) كل هذا لعب صبيان وعربدة. والآن جاء دور السـرير، السرير الكبير الواسع الأبيض، تعالي!

أنّا : يا أندريه!

كراجلر : (يجرها إلى العمق) أراغبة أنت أيضا؟

أنّا : لكن ليس عليك سترة.

(تساعده على لبس سترته)

كراجلر : الجو بارد. (تلف المحرمة على عنقه) تعالي الآن! (يسيران جنبا إلى جنب، من دون أن يتلامسا. أنّا متخلفة عنه قليلا. وفي الهواء، في أعلى جدا، بعيدا جدا، صياح وحشي حاد، صادر من حي الصحافة)

كراجلر : (يتوقـف، ينصت، يمسـك بأنّـا من كتفيهـا) مضت أربع سنوات، الآن.

(يتركان المسرح، بينما الصيحات لا تتوقف)

* * *

حياة جاليليُو

تأليف

برتولت برشت

ترجمة وتقديم

د. عبدالرحمن بدوي

العنوان الأصلي للمسرحية :

Bertolt Brecht:
Leben des Galilei
Schauspiel

Suhrkamp Verlag

مقدمة مسرحية «حياة جَاليليو»

بقلم المترجم

- ١ -

جاليليو كما عرفه التاريخ

بين جاليليو كما عرفه التاريخ، وجاليليو كما صوره برشت في هذه المسرحية مشابه كثيرة.

أما جاليليو، الرياضي والفيزيائي والفلكي العظيم فقد ولد في بيزا (بشمال غربي إيطاليا) في ١٥ فبراير سنة ١٥٦٤، وكان أبوه موسيقيا لا بأس به (نحو ١٥٣٣ - ١٥٩١) مما ولد في نفس ابنه حب الموسيقى، ودفعه إلى إتقان العزف على العود. وقام بدراساته الأولى في بيزا، ثم في فلورنسه، ودخل جامعة بيزا في ٥ سبتمبر ١٥٨١، وبدأ بدراسة الطب، وعقب عليه بدراسة الفلسفة والرياضيات. غير أنه ما لبث أن انقطع عن دراساته الجامعية ربما لسوء ظروف أسرته. وأخذ في دراسة الهندسة على يد أوستليو رتشي Ostilio Ricci، معلم خدم الدوق الكبير. واستطاع بجهده الشخصي أن يتعمق في دراسة مؤلفات أرخميدس، ولحل مشكلة تاج هيرون اخترع الميزان المائي (الهدروستاتيكي)، وقد وصفه في رسالة صغيرة بعنوان «الميزان الصغير» (سنة ١٥٨٦). وقام بأبحاث هندسية عن مراكز الثقل في قطاعات الأشكال الهرمية، والمخروطات، والأشكال شبه المخروطية ذات القطع المكافئ أخبر بها الأب كرستوفور كلافيوس في أثناء زيارة جاليليو الأولى لروما في النصف الثاني من عام ١٥٨٧، وكذلك بعث بها إلى مولتي Moletti مدرس الرياضيات في بدوفا (بالقرب من البندقية)، وإلى العالم الرياضي المركيز جيدوبلدو دال مونتي Guidubaldo Dal Monte، فسعى هؤلاء إلى تعيينه في جامعة بيزا وصار مدرسا بها في يوليو ١٥٨٩. وكان في تدريسه يتبع ما هو مقرر، لكنه بدأ في تفنيد نظريات أرسطو في الفيزياء واشتغل بالميكانيكا. فأنكر نظرية أرسطو القائلة بأن الأجسام المختلفة الأوزان تسقط بسرعات مختلفة. وفي رسالته الصغيرة عن الحركة De motu (نحو سنة ١٥٩٠)، وقد

كتبها على شكل حوار، نجد أبحاثا عن حركة الأجسام الثقيلة على المستويات المائلة، واعتراضات عديدة على نظرية أرسطو في حركة المقذوفات. وفي أثناء تدريسه في بيزا قام بتجاربه المشهورة من فوق برج بيزا للتأكد من أن كُرَتين متساويتين في الحجم ومختلفتين في الوزن تسقطان بالسرعة نفسها، كذلك اكتشافه أن ذبذبات البندول تتم في وقت واحد، بمعنى أن البندول يحتاج إلى الكمية نفسها من الزمن لإتمام ذبذبته، مهما كان اتساع مدى الذبذبة. وكان لهذا الاكتشاف الأخير أثره فيما بعد حين رأى جالليو أن مبدأ البندول يمكن أن يطبق لضبط الساعات الكبيرة. وقيل إنه اكتشف هذه الظاهرة وهو يلاحظ تذبذب المصباح في كاتدرائية بيزا.

وبعد وفاة أبيه سنة ١٥٩١ زادت مطالب العيش عليه. فحمله ذلك على تقديم طلب للحصول على كرسي الرياضيات في جامعة بادوفا، وتولى هذا المنصب في سبتمبر سنة ١٥٩٢ خلفا للأستاذ مولتي Moletti. ومن برنامج التدريس يتبين أنه كان في بادوفا، يدرس «أصول الهندسة» لأقليدس، وكتاب «الأُكَر» (جمع: كرة) تأليف سكروبوسكو Sacrobosco، و«المجسطي» لبطلميوس، و«المسائل الميكانيكية» لأرسطو و«نظرية الكواكب السيارة». أما في دروسه الخاصة (وكانت العادة في هذا العصر أن يعطي الأستاذ دروسا خصوصية للتلاميذ الراغبين في ذلك، وهم يقيمون في منزله للسكنى والطعام أيضا) فقد كان يدرس بعض أبحاثه الخاصة، مثل استعمال الفرجار الهندسي والعسكري، وعلم الميكانيكا، وفن الحرب. وبفضل مهاراته في التدريس الخصوصي وفد عليه الطلاب من أنحاء أوروبا. وقد كتب في هذه الفترة الرسائل الآتية: المعمار الحربي، بحث في التحصينات الحربية، بحث في الكرة، تبعا لنظام بطلميوس، وبحث في الميكانيكا.

ومنذ سنة ١٥٩٧ عمل على تحسين آلة ابتكرها المركيز دال مونتي، مما أدى به إلى عمل الفرجار الهندسي والعسكري، وهو نوع من المسطرة الحاسبة، وتم عمله بواسطة صانع ماهر هو ماركو أنطونيو متسوليني Mazzolini تحت إشراف جاللِيو.

وفي أثناء العامين الأخيرين من إقامته في بادوفا (١٦٠٩ - ١٦١٠) عني بتحسين المنظار الذي سُمِّيَ فيما بعد باسم التلسكوب، والذي بفضله قام باكتشافات فلكية هائلة.

وقد أثبتت الوثائق التي اكتشفها ك. دي فارد C. de waard في المحفوظات التاريخية الهولندية في سنة ١٩٠٦ أن يانسن زخرياس في مدلبورج Janssen Zacharias vom Middelburg صنع أول جهاز ركب فيه عدسات داخل انبوبة وذلك في سنة ١٦٠٤. كذلك ركب هانز لبرشاي Hans Lippershey في مدلبورج أيضا مناظير ذات عدسات داخل أنبوبة. ووصل نبأ هذا الاختراع إلى مدينة البندقية في نوفمبر سنة ١٦٠٨، ومن المحقق أنه في أوائل سنة ١٦٠٩ كانت تباع مناظير من هذا النوع في باريس وإيطاليا. وقد عرف جالليو بهذا الاختراع في ربيع سنة ١٦٠٩.

واعتمادا على هذا المنظار قام جالليو بصنع تلسكوب أقوى من هذه المناظير الهولندية الصنع، وقدم هذا التلسكوب إلى مجلس شيوخ البندقية في ٢٥ أغسطس سنة ١٦٠٩ فأدهش الجميع. وقد كانت قوة أول نموذج صنعه ثلاثة أضعاف قوة المنظار الهولندي الصنع. ومن ثم أدخل عليه تحسينات بسرعة، حتى صارت قوته ٣٢ ضعف قوة المنظار الهولندي. ويعود الفضل في ذلك إلى الطريقة التي ابتكرها جالليو لضبط انحناءات العدسات. ونظرا إلى قوة هذا التلسكوب الذي صنعه جالليو، أمكن استخدامه في الأرصاد الفلكية(*).

وكان جالليو أول من استخدمه في دراسة السماء في أواخر سنة ١٦٠٩ وأوائل سنة ١٦١٠، فتوصل به إلى سلسلة من الاكتشافات الفلكية، أهمها:

١ - اكتشف أن سطح القمر غير منتظم ولا أملس كما كان يُظَن فيما مضى.

٢ - ولاحظ أن المجرة مؤلفة من مجموعة من النجوم البعيدة.

٣ - واكتشف توابع كوكب المشتري، وسماها النجوم المدتشية Sidera Medicea على اسم تلميذه السابق، كوزمو الثاني، دوق توسكانيا الكبير.

٤ - اكتشف أو لاحظ بقعا على الشمس.

٥ - شاهد أوجه (أطوار) كوكب الزهرة Les Phases de Venus وما بدا له أنه أشكال زُحَل الثلاثة. وقد أعلن هذه الاكتشافات في Sidereus Nuncius (مارس سنة ١٦١٠).

(*) راجع عن تاريخ التلسكوب:
H.C. King: The History of the Telescope. Charles Griffin, London, 1955, 456pp.

وقد أثارت هذه الاكتشافات الكثير من المجادلات والمنازعات من جانب أنصار أرسطو، ومنهم مارتن هوركي Horky، ولودفكو دلي كولومبي Lodovico delle Colombe وفرنشسكو ستسي Fr. Sizi. لكن أيدها فلكي عظيم هو كبلر Kepler. ولم يعدم جاليلو من يدعي أنه سبقه إلى بعض هذه الاكتشافات، مثلما فعل سيمون ماير Simon Mayr في كتابه Mundus Jovialis (نورمبرج سنة ١٦١٤).

ومكافأة لجاليلو على هذه الاكتشافات، قرر مجلس شيوخ جمهورية البندقية تعيينه أستاذا مدى الحياة مع مرتب ممتاز. لكن رغبته الحارة في العودة إلى وطنه (فيرنتسه ورغبته في التحرر من متاعب التدريس للتفرغ للمشاهدات الفلكية والأبحاث العلمية، حملته على قبول منصب «رياضي فوق العادة في معهد بيزا وفيلسوف صاحب السمو الدوق الكبير»، مع عدم الالتزام بالتدريس ولا بالإقامة في المعهد ولا في مدينة بيزا. وكان ذلك في أول يوليو ١٦١٠.

وهكذا ترك جاليلو بادوفا بعد إقامة استمرت ثماني عشرة سنة وهو في أمان تام وحرية مكفولة للبحث والكتابة. وهنا في بادوفا ولد له من زوجته مارينا جمبا Marina Gamba ابنتان وولد. والابنة الكبرى هي فرجينيا(*)، وكانت بكر أولاده، وكان يؤثرها بالحب الشديد، وقد ولدت في ١٣ أغسطس سنة ١٦٠٠، ولكنها دخلت طريق الرهبنة وصارت راهبة في ٤ أكتوبر سنة ١٦١٦ في دير القديس متى في أرشتري Arcetri، وفي هذا الدير توفيت في ٢ أبريل سنة ١٦٣٤. وقد بقي لنا منها ١٢٤ رسالة كتبتها إلى أبيها في الفترة ما بين ١٦٢٣ و ١٦٣٣، واسمها في الدين الأخت مارية شيلستي Maria Celeste، وكانت متدينة ولكن بنوع من التفتح الذهني، وحريصة دائما على أن تشارك أباها آلامه ومسراته، وأن تعاونه قدر ما تستطيع. وقد استغل برشت شخصيتها - مع بعض التعديلات طبعا - في هذه المسرحية خير استغلال: تدينها، عطفها المستمر على أبيها. أما حكاية خطبتها إلى لودفكو مرسيلي، فهي من اختراع برشت.

(*) راجع عنها
Galileo Galilei & Sour Maria Celeste. Firenze, 1891.
(وقد نشرت فيه ص ٢٣٣ - ٤٢٤ كل رسائلها إلى أبيها).

أما الابن فنشنتسو Vincenzo (١٦٠٦ - ١٦٦٩)، فكان شاعرا رقيقا.

ونتابع حياة جالليو فنقول: إنه في السنة التالية، سنة ١٦١١، سافر إلى روما (٢٩ مارس - ٤ يونيو ١٦١١) أولا ضيفا على سفير توسكانيا ج. نيكوليني، ثم أقام بعد ذلك في فلا مدتشي الشهيرة في رابية Trinita deiMonti (حيث توجد الآن مدرسة روما L, Ecole De Rome التابعة لفرنسا)، واستقبله البابا بولس الخامس. وفي حديقة الكورينالي عرض اكتشافاته على العلماء اليسوعيين في الكلية الرومانية Collegium Romanum، فاستطاعوا أن يشاهدوا الكواكب المدتشية من نوفمبر سنة ١٦١٠، إلى أبريل سنة ١٦١١، واحتفلوا احتفالا عظيما بجالليو. وكان هؤلاء العلماء اليسوعيون، بناء على طلب من بلرمينو، قد أيدوا اكتشافات جالليو، فيما عدا تحفظ أحدهم، وهو كلافيوس، على نقطة جبال القمر. وفي ١٢ أبريل اختير جالليو عضوا في أكاديمية لنشاي Lincei، التي لاتزال شهيرة بعلمائها وأبحاثها حتى اليوم.

وقامت مناقشة حول أسباب طفو الثلج، تبعا لأرسطو والمشائين، فاشترك فيها جالليو بكتاب بعنوان: مقال إلى صاحب السمو دون كوزمو الثاني.. (سنة ١٦١٢) وفيه مبادئ علم المائيات (الهدروستاتيكا) تبعا لأرخميدس. وقد أثار ردودا من جهة المشائيين: كوررزيو G.Corresio ودي جرسيا V. Di Grazia، فرد عليها تلميذه الأب. ب. كاستلي B. Castelli الأستاذ في بيزا وكان تلميذا لجالليو في بادوفا.

واكتشف جالليو البقع الشمسية (في يوليو سنة ١٦١٠) وعرضها في البندقية ثم في روما بين مارس وأبريل سنة ١٦١١، كذلك اكتشفها في الوقت نفسه ج. فابرتسيوس، الذي ظهر كتابه في هذا الموضوع بعنوان Narratio de Maculis in sole observatis (ذكر البقع الملاحظة في الشمس) في سنة ١٦١١. أما جالليو فقد نشر رأيه فيها في كتاب بعنوان De-maculis Solaribus في يناير وسبتمبر سنة ١٦١٢ باسم مستعار هو Apelle، وقد دافع جالليو عن كونه هو أول من اكتشفها. وأثارت مسألة أولية اكتشاف البقع الشمسية هذه مجادلات لا تنتهي حتى الآن.

وهنا حدثت العاصفة الكبرى. أن جالليو كان من أنصار النظام الذي قال به كوبرنيكوس، وهو أن الشمس في المركز وأن الأرض مجرد كوكب سيار يدور في فلكها. وقد عبر جالليو عن تأييده نظام كوبرنيكوس في رسالة كتبها إلى ياكوبو ماتسوني في

مايو سنة ١٥٩٧، وفي رسالة أخرى كتبها في ٤ أبريل إلى كبلر فيها يؤكد صحة نظام كوبرنيكوس أكثر وأكثر. وعبر عن ذلك في رسالة كتبها إلى ب. كستلي B. Castelli في ٢١ ديسمبر سنة ١٦١٣، مع مزيد من التحقيق. وقد قال في كلتا الرسالتين إنه من الخطر إدخال الكتاب المقدس في نزاع مع نتائج العلوم الطبيعية لأن الكتاب المقدس لا يمكن أن يخطئ، ولكن الشراح هم الذين يخطئون خصوصا والكتاب المقدس يستخدم لغة يفهمها الجمهور وإليه وجهها وكيفها مع عقلية الجمهور. وأكد أيضا أن النص الوارد في الكتاب المقدس - بشأن وقف يوشع للشمس عن الدوران - يتفق تماما مع نظام كوبرنيكوس. غير أن راهبين دومنيكيين - وللرهبان الدومنيكان تاريخ أسود في اضطهاد حرية الفكر في أوروبا - هما ت. كاتشيني T. Caccini و ن. لوريني N. Lorini، أثارا ضد جالليو حملة شعواء علنية. فأولهما، كاتشيني، من منبر كنيسة سنتا ماريا نوفلا في فيرنتسه اتهم جالليو في أوائل سنة ١٦١٥ علنا بالهرطقة. وثانيهما، وهو لوريني، قدم طعنا في جالليو إلى الديوان المقدس في روما بسبب البِدَع التي يحتوي عليها خطابه المذكور إلى كستلي. فأمر الديوان المقدس بإجراء تحقيق في هذا الخطاب وفي الرسائل التي كتبها جالليو عن البقع الشمسية، وذلك في ٢٥ نوفمبر سنة ١٦١٥. وعلى الرغم مما قام به جالليو في سفرته الثالثة إلى روما من محاولات لإفساد تدابير أعدائه هذه، فإن الديوان المقدس، برئاسة ر. بلرمين، أعلن بطلان نظام كوبرنيكوس في ٢٥ فبراير سنة ١٦١٦، وأمر جالليو بالامتناع من تعليم نظام كوبرنيكوس، أو الدفاع عنه أو معالجته على أي وجه، وإلا أُدْخل السجن. وأُبلغ جالليو قرار المحكمة هذا في ٢٧ فبراير سنة ١٦١٦. وقد قبل جالليو هذا القرار وأعلن أنه سيطيعه.

وفي ٥ مارس سنة ١٦١٦ حرَّمت هيئة الرقابة على الكتب Congregazine dell,Indice قراءة كتاب كوبرنيكوس، وكذلك سائر الكتب التي تعلم النظام نفسه. وفي يونيو ١٦١٦ عاد جالليو إلى فيرنتسه فنصحه الدوق الكبير، كوزمو الثاني، وأصدقاؤه وعارفوه بإطاعة قرار الديوان المقدس والاعتصام بالسكينة.

وكان الكردينال بلرمين قد استقبل جالليو في يوم ٢٦ فبراير، وأبلغه القرار الذي سيصدر، وحَذَّره من أن عليه من الآن فصاعدا ألا يقول بنظام كوبرنيكوس وألا يدافع عنه.

واستجاب جاليليو فعلا للقرار. فظل طوال السنوات السبع التالية (١٦١٦ - ١٦٢٣) في عزلة في بيته في بلوسجواردو Bellosguardo بالقرب من فلورنسه، يواصل دراساته وأبحاثه في عزلة وهدوء. وفي سنة ١٦٢٣ رد على رسالة كتبها أحد اليسوعيين، وهو أوراتسيو جراسي Orazio Grassi عن طبيعة المذنبات، وكان من الواضح أن صاحبها يقصد إلى الطعن في جاليليو. وكان الذي دفع جراسي إلى تحرير رسالته هذه ظهور ثلاثة مذنبات في سنة ١٦١٨، فانتهزها هذا اليسوعي فرصة للهجوم على نظام كوبرنيكوس، ومن ثم للهجوم على جاليليو. وكان عنوان رد جاليليو، وقد أهداه إلى البابا أربان الثامن هو:

Saggiatore nel quale con bilancia esquisita & giusta si poderano Je cose contenute nella libra astronomica & filosofica.

وفيه يرد على ادعاءات س. ماير بأسبقيته في اكتشاف البقع الشمسية، ثم يعرض كل اكتشافاته الفلكية، ويروي قصة اختراعه للتلسكوب، ثم يرد ردا مفحما على كل نقطة أثارها أوراتسيو جراسي.

وفي سنة ١٦٢٤ زار روما للمرة الرابعة واستقبله البابا أربان الثامن - واسمه الأصلي مافيو بربريني Maffeo Barberini - وهو الذي طالما أظهر إعجابه به وعطفه عليه منذ أن كردينالا.

ثم عاد إلى فلورنسه، وهناك اخترع وحسَّن المجهر المركب - Microscopo Composto، وأرسل نموذجا منه إلى اتشيزي Cesi في سبتمبر سنة ١٦٢٤، وقال عنه: «إنه منظار لرؤية الأشياء المتناهية الصغر من قرب».

وفي الوقت نفسه ظل جاليليو يعمل في تأليف كتابه الرئيسي: المحاورة Dialogo وكان موضوعه نظام العالم. وفرغ منه نهائيا في ديسمبر سنة ١٦٢٩، وكان معدا للطبع في مايو سنة ١٦٣٠. وبعد رحلة أخرى إلى روما ومجهودات مضنية استطاع الحصول على إذن بطبع الكتاب.

وظهر هذا الكتاب في فبراير سنة ١٦٣٢ بعنوان:

Dialogo di G. Galilei,... dove ne i congressi di quattro giornate si discorre sopra i due massimi sistemi del mondo, tolemaico & copernicano, proponendo indeterminatamente le ragioni folosofiche e naturali tanto per l,una quanto per l,altra parte(*).

ومكان الحوار هو البندقية، والمتحاورون هم:

١ - فيليو سلفياني (١٥٨٢ - ١٦١٤) وهو عين من أعيان فلورنسه، وعضو في أكاديمية لنشاي، وفي بيته كتب جاليليو رسالتين من رسائله الثلاث عن البقع الشمسية. وهو يمثل آراء كوبرنيكوس وآراء جاليليو.

٢ - جو فني فرنشسكو سجريدو، وهو من البندقية (١٥٧١ - ١٦٢٠) ويمثل «الإدراك السليم».

٣ - سمبلتشيو Simplicio، وهو من أنصار أرسطو، ولقب بهذا الاسم على اسم شارح أرسطو المشهور: سنبلقيوس. وهو يمثل أرسو وأنصاره، وإن كان أعداء جاليليو قد حاولوا إيهام البابا والناس أن المقصود به هو البابا نفسه، أربان الثامن، وذلك على أساس أن المؤلف قد وضع على لسان سمبلتشيو هذا العبارات التي بها دافع البابا عن نظام بطلميوس.

وتجري مناقشات اليوم الأول في نقد نظرية أرسطو في الحركة، والدفاع عن آراء جاليليو في وجود جبال وبحار في القمر. وخصص اليوم الثاني للبحث في حركة الأرض اليومية حول محورها وتفنيد الحجج التي سيقت لتأييد عكس ذلك، وفي الأسباب التي تدعو إلى ترجيح نظام كوبرنيكوس. وفي مناقشات هذا اليوم يعرض جاليليو آراءه في الديناميكا، ومبدأ القصور الذاتي، وفي القوة الطاردة، ويعرض قوانين سقوط الأجسام، وقوانين ذبذبات البندول، وفي كون سرعة سقوط الجسم مستقلة عن وزنه. وفي اليوم الثالث يدور الحوار حول أسباب حركة الأرض حول الشمس، وتفسير مواقع النجوم وفق كوبرنيكوس، وحول أوجه (أطوار) الزُهَرة والبقع الشمسية. وفي هذا الحوار تأييد حار لنظام كوبرنيكوس ونبذ شديد لنظام بطلميوس، كما

(*) وترجمته: «حوار تأليف جاليليو جاليلاي... وفيه خلال جلسات استمرت أربعة أيام جرت مناقشة حول أكبر نظامين للعالم: نظام بطلميوس ونظام كوبرنيكوس، مع إيراد الأسباب الفلسفية والطبيعية في جانب الواحد، وفي الجانب الآخر على السواء من دون تحيز لأحدهما».
وواضح من العبارة الأخيرة أن جاليليو يريد أن يفلت من مقتضى قرار الديوان المقدس.

تدل على ذلك هذه العبارة: «في بطلميوس الأمراض، وعند كوبرنيكوس الأدوية». وخصصت مناقشات اليوم الرابع للبحث في المد والجزر في البحر، وهو يفسره بحركة الأرض، مفندا فكرة تأثير القمر، وكان جاالليو في هذا مخطئا تماما.

وسرعان ما تبين خصوم جاالليو ما في كتاب «الحوار» هذا من خطر، وخصوصا الأبوين اليسوعيين في الكلية الرومانية: جراسِّي وشرينرٍ Grassi & Schreiner فأعلن هذان - على الرغم من أن الكتاب قد مر من الرقابة وأُذن بنشره - أن هذا الكتاب «أسوأ وأخطر على الكنيسة من كتابات لوثر وكلفان». لهذا تقرر (أغسطس سنة ١٦٣٢) منع نشر وتوزيع الكتاب في روما، ثم في ١ أكتوبر ١٦٣٢ طلب من جاالليو المثول أمام المندوب العام للديوان المقدس. واضطر جاالليو إلى الذهاب إلى روما في يناير سنة ١٦٣٣، بعد أن كتب وصيته، فوصل إلى روما في ١٣ فبراير ونزل عند سفير توسكانا في قصر فلورنسه. وفي ١٢ أبريل جرى تحقيق أولي معه أمام الديوان المقدس، مع شيء من الرعاية. وقام ثلاثة من الأحبار هم: ملكيور إنشوفر Melchiorre Inchofer ، وأجستينو أورجيو Agostino Oregio وزكريا بسكواليجو Zaccaria Pasqualigo بفحص كتاب «الحوار» وقرروا أن جاالليو قد خالف التحذير الذي وجه إليه سنة ١٦١٦ وقرار سنة ١٦١٦، وقال أحدهم إنه يَشْتَمُّ من الكتاب أن جاالليو يؤيد نظام كوبرنيكوس. وفي ١٦ يونيو سنة ١٦٣٢، في قصر الكورينالي، أصدر مجلس الديوان المقدس قراره، بعد جلسات عديدة رأس الكثير منها البابا نفسه. ويقضي القرار (١) بأن يعلن جاالليو تبرؤه من نظرياته، (٢) يسجن وفق ما يقضي به المجمع المقدس Sacra Congregazione، (٣) منع كتاب «الحوار» وأي كتاب آخر يكتبه من بعد.

وأبلغ جاالليو بالقرار في ٢١ يونيو سنة ١٦٣٢. وفي يوم ٢٢ في مركز الديوان المقدس في كنيسة سانتاماريا فوق منيرفا جرت عملية التبرؤ. لكن الحكم بالسجن سرعان ما عدله البابا إلى الاعتقال في حديقة ترينتا دي مونتى (على رابية من روابي روما) Trinita dei Monti أولا، ثم بعد ذلك في مدينة سيينا (بمقاطعة توسكانا)، وأخيرا (في ديسمبر سنة ١٦٣٢) في قرية أرشتري Arcetri.

وقد شاعت إشاعة تقول إن جاالليو، بعد أن تبرأ، تلفت وقال: «ومع ذلك فهي تتحرك» Eppur si muove. ولكن ليس لهذه الإشاعة أي سند تاريخي. والثابت أنه تبرأ من آرائه وأذعن مطيعا ساكنا.

وعلى الرغم مما بُذل من شفاعات ووساطات لم يفرج عن جالليو حتى آخر عمره إفراجا تاما ولم يصدر أي عفو عنه. ورُفضت كل التماساته للعفو عنه أو الإفراج. وآخر هذه الالتماسات قد أرسله جالليو إلى البابا ٢٨ أبريل سنة ١٦٣٨، ولكن الديوان المقدس رفض التماسه. وظل قرار تحديد إقامته في بيته ساريا حتى وفاته.

وقد أمضى جالليو السنوات الثماني الأخيرة من حياته رهين معتقله في فلورنسه، أولا في بيت على رابية سان جورجيو، ثم بعد ذلك في بيت أرشتري Arcetri.

وتوالت عليه المحن بعد ذلك وهو في محبسه في أرشتري: ففقد أولا ابنته العزيزة فرجينيا في ٢ أبريل سنة ١٦٣٤، ثم كف بصره نهائيا في سنة ١٦٣٧، فلم يعد يستطيع - كما قال - أن يبصر «تلك السماء، وذلك العالم، وهذا الكون الذي استطعت بفضل مشاهداتي العجيبة وبراهيني الواضحة أن أكثّر منه مئات بل وآلاف المرات زيادة على ما رآه العلماء في كل العصور الماضية».

لكن ذلك كله لم يمنعه من مواصلة الكتابة ثم الإملاء. فحرر كتابه الرئيسي بعنوان:

Discorsi & Dimostrazioni matematiche, intorno a due muove scienze, attenenti alla mecanica e i movimenti locali

وكان معدا للطبع منذ سنة ١٦٣٤، وبعد محاولات عديدة لطبعه، انتهز فرصة زيارة الناشر الهولندي الشهير L. Elzeviro له في محبسه بأرشتري وأعطاه أصل الكتاب لطبعه في مدينة ليدن Leiden في هولندا، وتم ذلك في سنة ١٦٣٨.

وأملى على تلميذه فنشنتسو فيفياني Vincenzo Viviani - وكان يقيم إلى جواره منذ نوفمبر سنة ١٦٣٨ - بحثا في البرهنة على الفرض المتعلق بالحركة على السطوح المائلة. وكذلك أملى على إيفانجلستا تورتشلي Evangelista Torricelli في أكتوبر سنة ١٦٤١ حوار اليوم الخامس عن تعريفات ونظريات إقليدس (المقالة الخامسة).

وتوفي جاللیو جاليلاي في أرشتري في اليوم الثامن من يناير سنة ١٦٤٢، بعد إصابته بالحمى البطيئة.

ويمكن تلخيص أهم اكتشافات جاللليو العلمية فيما يلي:

١ - قام بتحسين جهاز هولندي الصنع تستعمل فيه عدسات في أنبوبة، وكان عن ذلك التلسكوب (المِقْراب) الذي بفضله أمكن تقوية رؤية العين إلى درجة مكنت من رصد النجوم البعيدة.

٢ - اكتشف مبدأ القصور الذاتي في الحركة، وإن كان ذلك ينسب عادة إلى ديكارت.

٣ - استطاع بواسطة مقرابه أن يكتشف توابع المشتري، وأن يرسم لوحات لدوراتها.

٤ - لاحظ البقع الشمسية ودرسها في ذات الوقت الذي درسها فيه ج. فابرتسيوس سنة ١٦١١.

٥ - اكتشف أن المجرة مؤلفة من مجموعة من النجوم البعيدة.

٦ - اكتشف أوجه كوكب الزهرة.

٧ - أدى دورا كبيرا جدا في إيجاد علم الميكانيكا بوصفها علما، وبهذا مهد الطريق لنيوتن.

٨ - أسهم إسهاما كبيرا في تطبيق الرياضيات على الفيزياء، ورأى بثاقب بصره «أن الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية» على حد تعبيره الشهير.

٩ - وكان من أكبر دعاة المنهج التجريبي في البحث العلمي(*).

* * *

(*) هناك ثبت بمؤلفات جاليليو وما كتب عنه من أبحاث، يستغرق الفترة من 1586 حتى 1895 وفيه 2108 عناوين بحث، وقد قام به أ. كارلي و أ. فافرو: A. Carli e A. Favaro: Bibliografia Galileiana. Rome, 1896.

وراجع عن جاللليو:

A. Banfi: Galileo Galilei–Finenze, 1931;
L. Olschki: Galileo und seine Zeit. Halle, 1927;
Stillman Drake: Discoveries and opinions of Galileo. London. 1955.

- ٢ -

جاليليو في مسرحية برشت

هذا هو جاليليو كما عرفه التاريخ. ومن يقرأ مسرحية برشت هذه يجد أن المشابه كثيرة جدا بين أحداث حياة جاليليو وبين أحداث المسرحية، لا تكاد في خطوطها العامة أن تخرج عنها. وحتى أسماء الشخصيات معظمها أسماء تاريخية، والأدوار التي مارستها متكافئة في كلا المجالين: التاريخ والمسرحية:

١ - فرجينيا، ابنة جاليليو، هي: الابنة التي آثرها أبوها بالحب، وآثرته بالحب والإخلاص. وهي هي: المرأة المتدينة، حتى أنها تاريخيا دخلت الرهبانية في سن السادسة عشرة. والخلاف هو في قصة خطبتها إلى لودفكو مرسيلي: فهذه الحكاية اخترعها برشت، كما أنه لم يُشِرْ إلى أنها ترهبت.

٢ - والكردينالان بلرمين وبربريني - والأخير أصبح البابا أربان الثامن - دورهما في المسرحية هو دورهما في الواقع التاريخي، لم يغير برشت فيه شيئا.

فإن بلرمين (أو بلرمينو Bellarmino كان كردينالا، ومطرانا لكبوا Capua، وعين في سنة ١٥٧٦ في الكلية الرومانية Collegio Romano أستاذا للمسائل الجدلية، وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٥٨٨. ثم عاد إلى الكلية الرومانية في ١٥٩٠ في منصب المرشد الروحي، وعين مديرا لها في ديسمبر سنة ١٥٩٢. كما عين مستشارا للديوان المقدس، وبهذه الصفة اشترك في قضية جوردانو برونو، الفيلسوف الذي قُضِي بإحراقه. ومنح لقب كردينال في ٣ مارس سنة ١٥٩٩، واشترك بهذه الصفة في كل المجامع المقدسة. واشترك في كل القضايا الدينية الكبرى التي أثيرت في ذلك العصر: قضية حرمان البندقية (١٦٠٦)، قضية النزاع الأنجلكاني والجاليكاني فيما يختص بسلطة البابا في الأمور الدنيوية (من سنة ١٦٠٧ إلى سنة ١٦١٢)، كما اشترك في قضية جاليليو (١٦١٥ - ١٦١٦)، وتوفي في ١٧ سبتمبر سنة ١٦٢١.

أما بربريني فهو أحد كبار رجالات أسرة بربريني المشهورة في تاريخ إيطاليا في القرن السابع عشر. والمقصود في المسرحية هو أربانو الثامن البابا، واسمه

الأصلي مافيو بربريني Maffeo Barberini الابن الخامس لأنطونيو بربريني. ولد في فلورنسه في ٥ أبريل سنة ١٥٨٨، واعتلى كرسي البابوية في ١ أغسطس سنة ١٦٢٣ واتخذ اسم «أربانو الثامن»، في أثناء بابويته عني بإصلاح أحوال الكهنوت الروماني والطرق الرهبانية. وزاد من سلطة محاكم التفتيش، فعمل على تأجيج حركة اضطهاد المفكرين ورجال الدين ذوي الآراء الحرة (دي دومينيس، مطران اسبالاتو، وتوماسو كمبانلا، وكريمونيني Cremonini).

وأهم القضايا التي أثيرت في عهده قضية جاليليو، على الرغم من أنه كان معجبا بجاليليو، عطوفا عليه، خصوصا أنه حصل شطرا من الرياضيات والثقافة الإنسانية وخاض غمار الحروب الدينية العديدة التي أثيرت في أوروبا في عصره. وتوفي في ٩ يوليو سنة ١٦٤٤.

* * *

شخصيات المسرحية

جاليليو جاليلاي	Galileo Glailei
أندريا سارتي	Andrea Sarti
السيدة سارتي: أم أندريا، وتقوم بخدمة جاليليو	Sarti
لودفكو مرسيلي: شاب ثري	Ludovico Marsili
السيد بريولي: مدير جامعة بادوا	Priuli
سجريدو: صديق لجاليليو	Sagredo
فرجينيا: بنت جاليليو	Virginia
فدرتسوني: صاقل عدسات، ومساعد جاليليو	Federzoni
الدوج	Doge
أعضاء المجلس	
كوزيمو دي مدتشي: الدوق الأكبر	Cosimo di Medici
لفيرنتسه	
رئيس البلاط	
اللاهوتي	
الفيلسوف	
الرياضي	
كبرى الوصيفتين	
خادم للدوق الأكبر	
راهبتان	
جنديان	
امرأة عجوز	
عالمان	
راهبان	

فلكيان
راهب نحيف جدا
الكردينال العجوز
الأب كرستوفر كلافيوس: فلكي Christopher Clavius
الراهب الصغير
الكردينال صاحب التفتيش
الكردينال بربريني: الذي أصبح Kardinal Barberini
بابا باسم أوربان الثامن
الكردينال بلرمين Kardinal Bellarmin
كاتبان كهنوتيان
فتاتان
فلبو موشيوس: عالم Filippo Mucius
السيد جافوني: مدير جامعة بيزا Gaffone
مطرب جوال
زوجته
فاني: رئيس مصنع صهر الحديد Vanni
محضر
موظف كبير
شخص
راهب
فلاح
حارس حدود
كاتب
رجال، نساء، أطفال.

(١)

جالليو جاليلاي، أستاذ الرياضيات في بادوا، يريد أن يبرهن على صحة النظام الجديد للعالم كما تصوره كوبرنيكوس.

في عام ألف وستمائة وتسعة
شع نور العلم من بيت صغير في بادوا
إذ جالليو بالحسابات توصل:
ليست الشمس، بل الأرض تدور.

(جالليو في مكتبه المتواضع في بادوا. الصباح. صبي، هو أندريا، ابن ربة البيت، يحضر كوبا من اللبن وقطعة من الخبز الأبيض)

جالليو : (وكان يغسل نصف جسمه الأعلى، مهتزا وفي طرب) ضع اللبن على المنضدة، لكن لا تغلق أي كتاب.

أندريا أمي تقول إنه لا بد من دفع المبالغ المستحقة للبّان، وإلا، يا سيدي جالليو، فإنه سيتخذ طريقا دائريا ليتجنب منزلنا.

جالليو يجب أن يقال، يا أندريا، إنه سيرسم قوس دائرة.

أندريا كما تشاء. لكن إن لم ندفع، فإنه سيتجنبنا راسما قوس دائرة، يا سيدي جالليو.

جالليو والمحضر، السيد كمبيوني، سينقض علينا في خط مستقيم. فأي طريق سيختار بين نقطتين؟

أندريا (بابتسامة عريضة) أقصر طريق!

جالليو حسن. عندي شيء لك. اذهب وانظر وراء الجداول الفلكية.

(من وراء الجداول الفلكية، يُخْرِج أندريا نموذجا خشبيا يمثل نظام بطلميوس)

أندريا ما هذا؟

جالليو هذا أسطرلاب، وهو يبين كيف تدور الكواكب حول الأرض،

تبعا لرأي الأقدمين.

أندريا — كيف تسير؟

جاليلو — لننظر. أول شيء هو: الوصف.

أندريا — في الوسط حجر صغير.

جاليلو — إنه الأرض.

أندريا — وحواليه أغشية متداخل بعضها في بعض.

جاليلو — كم عددها؟

أندريا — ثمانية.

جاليلو — هذه هي أفلاك البلّور.

أندريا — وعلى الأغشية كرات مثبتة.

جاليلو — هذه هي النجوم.

أندريا — ثم هناك أمثال الأشرطة، عليها كتابة.

جاليلو — أي كتابة؟

أندريا — أسماء النجوم.

جاليلو — مثلا؟

أندريا — الكرة السفلى مكتوب عليها: القمر. وفوقها الشمس.

جاليلو — والآن، حرّك الشمس

أندريا — (وهو يدير الأغشية) هذا جميل. لكن، كأننا في صندوق.

جاليلو — (وهو يجفف نفسه) نعم، وأنا أيضا كان لديّ هذا الشعور حين رأيت هذا الشيء لأول مرة. بعضنا لديه هذا الشعور. (يلقي إلى أندريا بالفوطة، ليمسح له بها ظهره) جدران، أغشية، وسكون! طوال عشرين قرنا اعتقدت الإنسانية أن الشمس وجميع الأجرام السماوية تدور حول الأرض. والبابا بكردينالاته، والأمراء والأساتذة، والملاحون والتجار، وبائعات السمك، والتلاميذ. الجميع اعتقدوا أنهم ساكنون

مســـتقرون في كرة البلور هذه. لكـــن، هذه المرة، يا أندريا، سنلقي بأنفســـنا في البحر الواسع لأن الزمن القديم ولّى، وهـــا هو ذا عصر جديـــد. ويخيّل إلى المرء أن الإنســـانية كانت، منذ مائة سنة، تنتظر شيئا.

المدن ضيقة، والعقول كذلك. الخرافات، والطاعون. ولكن فـــي هذه المرة نحن نقول: مادامـــت الأمور هكذا، فإنها لن تستمر هكذا. لأن كل شيء يتحرك، يا صديقي الصغير.

ويلـــذ لي أن أتصور أن هـــذا قد بدأ بالســـفن. منذ أقدم الأزمنة، لم تكن الســـفن تســـير إلا على طول الشـــواطئ، وفجأة غادرتها، وقذفت بنفسها في المحيطات.

وعلى قارتنا العتيقة نشـــأت شـــائعة فجأة، تقول إنه توجد قـــارات جديدة. منـــذ أن ذهبت إليها ســـفننا، ترددت هذه الشـــائعة في القارات، فكانت هناك ضحكة عالية: ذلك أن المحيط الشاســـع الذي كان النـــاس يخافونه صار يبدو لهم بعد ذلك، كأنه بركة من الماء. كلّ يوم اكتشافٌ جديد.

لقد تم اكتشـــاف الكثير، لكن لايزال هناك ما سيكتشـــف بعد، مما سيكون من عمل الأجيال الجديدة.

في سيينا Siena، لما كنت صغيرا، رأيت جماعة من البنائين يرتبـــون الحبال بطريقة جديدة عمليـــة، بدلا من الطريقة القديمة لنقل كتل الجرانيت، بعد مناقشة استغرقت خمس دقائق. وفي الحال فهمت: لقد ولّى الزمان القديم، وها هو ذا عصر جديد. وعما قليل ستعرف الإنسانية الحقيقة عن مسكنها، هذا الجِرْم السماوي الذي تسكنه. وما هو مكتوب في الكتب القديمة لَم يعد يكفيها.

فهنـــاك حيث انتقـــش الإيمان منذ ألف عـــام، انتقش الآن الشـــك. العالم كله يقول: نعم، هذا مكتوب في الكتب، لكن لننظر نحن بأنفسنا. والحقائق التي كانت مُسَلّمة بكل جد،

صارت الآن هدفا للنقد، وما لم يوضع قط موضع الشـــك، قد صار الآن هدفا للشك.

وهكـــذا هبّت ريـــح عاتية زعزعت كل شـــيء، ورفعت حتى الســـراويل المزركشـــة بالذهب التي يلبســـها الأمراء وكبار رجال الدين وصار من الممكن أن نرى تحت الرُّكَب السمينة أو الهزيلة، رُكَبا مماثلة لرُكَبنا. لقد تبين في نهاية الأمر أن السماوات خاوية، وانطلقت عن ذلك ضحكة عالية.

لكن مياه الأرض تدير المناســـج الجديدة، وفي ورش الموانئ ومصانع الحبال والشراعات تشتغل خمسمائة يد في وقت واحد بنظام جديد.

وأنا أتنبأ بأننا ســـنعيش حتى نســـمع النـــاس يتكلمون في الأسواق عن علم الفلك، وحتى أولاد بائعات السمك الذين ســـيتدافعون إلى المدارس. لأن هـــؤلاء الناس الذين تراهم في مدننا متشوقون للتغيير، وسيشعرون بالرضا والارتياح حين يـــرون أن علمَ فلكٍ جديدا ســـيجعل الأرض تتحرك. لقد كان يقال دائما إن النجوم مثبتة في قبة من البلّور حتى تســـقط. أما الآن فقد تحلينا بالشجاعة، وسندعها تتجول في الفضاء، من دون أن تكون مُثَبّتة في شيء، وها هي ذي تســـبح في الفضاء الفســـيح، مثل ســـفننا في البحار وهي تجول من دون مراس.

والأرض تدور مبتهجة حول الشـــمس، وبائعات الســـمك، والتجـــار، والأمراء، والكرادلة، والبابا نفســـه - كل الناس يدورون معها.

أمـــا الكون فَقَدْ فَقَدَ مركزه في ليلـــة واحدة، وفي الصباح صارت له مراكز لا حصر لها حتى صار كل شـــيء مركزا، ولا مركزا، إذا كثرت المواضع.

وســـفننا تنطلق إلى الآفاق البعيدة، والنجوم تدور إلى غير

نهايــة في المــدارات الكبرى في الفضـــاء، وحتى في لعبة الشطرنج تجول الطوابى في كل الخانات.

ماذا قال الشاعر؟ «يا له فجر جديد...»

أندريا : «يا له فجر جديد!

يا لنسم الريح يأتي

الآن من شط جديد!»

ثم، عليك أن تشرب هذا اللبن، فعمّا قليل ستبدأ الزيارات.

جالليو : ما قلته لك، هل فهمته منذ أمس مساء؟

أندريا : ماذا؟ حكاية كبَّرنيك وأشيائه التي تدور؟

جالليو نعم!

أندريا لا. ولماذا تريد منـــي أن أفهمها؟ إنها صعبة جدا، ولن أبلغ من العمر الحادية عشرة إلا في أكتوبر.

جالليو : مـــا يهمني أيضا هو أن تفهم أنت كذلـــك. وإذا كنت تراني أشـــتغل وبدلا من دفع المبالغ المستحقة لبائع اللبن، أشتري هذه الكتب الغالية الثمن، فذلك من أجل أن يفهم الناس.

أندريا : لكني أرى بوضوح أن الشـــمس في المساء تتوقف في مكان غيـــر مكانها في الصبـــاح. فليس من الممكـــن إذن أنها لا تتحرك. مستحيل.

جالليو : هكـــذا، وماذا ترى؟ أنت لا ترى شـــيئا أبـــدا، أنت تحملق بعينيك فقط. والحملقة ليست هي الرؤية. (يضع في وسط الغرفة الحامل الحديدي الذي يحمل الحوض) لنفترض أن هذا هو الشـــمس. اقعد (أندريا يقعد على أحد الكرسيين وجالليو يقف خلفه) أين الشمس: عن يمين؟ عن يسار؟

أندريا عن يسار.

جالليو وكيف تنتقل إلى اليمين؟

أندريا إذا جعلتها تنتقل إلى اليمين، طبعا.

جاليلو : فقط في هذه الحالة؟ (يرفعه مع الكرسي ويجعله يدور نصف دورة). أين الشمس، الآن؟

أندريا : على اليمين.

جاليلو : وهل تحركت؟

أندريا : لا، طبعا.

جاليلو : ومن الذي تحرك؟

أندريا : أنا.

جاليلو : (صائحا) لا، يا مغفل! الكرسي!

أندريا : وأنا معه!

جاليلو بالتأكيد. الكرسي هو الأرض، وأنت جالس فوقه.

السيدة سارتي (تدخل لترتيب السرير، وقد لاحظت المنظر) ماذا تفعل مع ولدي، يا سيد جاليليو؟

جاليلو : أعلمه كيف ينظر، يا سارتي.

السيدة سارتي : وأنت تديره في الغرفة؟

أندريا : لا شأن لك بهذا، يا أماه. فهذا أمر لا تفهمينه.

السيدة سارتي : آه، هكذا؟ وأنت، أنت تفهمه؟ هنا شاب يريد تلقي دروس. يلبس ثيابا فاخرة، ومعه خطاب توصية. (تعطيه الخطاب) ستفيد أندريا كثيرا، إلى حد أنه سينتهي به الأمر إلى أن يقول إن ٢ × ٢ = ٥. إنه يخلط في كل ما تقوله له. أمس فقط أراد أن يبرهن لي على أن الأرض تدور حول الشمس. ويعتقد اعتقادا جازما أن رجلا اسمه كبّرنيك قد بيّن هذا بالحسابات.

أندريا : يا سيد جاليليو، ألم يبرهن على هذا كبّرنيك؟ قل لها أنت بنفسك.

السيدة سارتي ماذا؟ هل تقول له حقا مثل هذه الحماقات؟ حتى يذيع هذا في المدرسة، وبعد هذا يأتي القساوسة إليّ فيخبرونني أن

ابني يهذي بخرافات؟ ألا تخجل، يا سيد جاليليو؟

جاليليو : (وهو يتناول طعام الإفطار) يا سيدة سارتي! استنادا إلى أبحاثنا وبعد مناقشات حامية قمنا، أندريا وأنا، باكتشافات لا نستطيع أن نستمر في إخفائها عن الناس. لقد بدأ عصر جديد، عصر عظيم، ما أمتع العيش فيه!

السيدة سارتي : هكذا؟ وأرجو أن نتمكن من دفع المبالغ المستحقة علينا لبائع اللبن في عصرك الجديد هذا، يا سيد جاليليو. وأرجوك ألا تردّ الشاب كما فعلت مع الآخرين. إني أفكر في دفع ثمن اللبن. (تخرج)

جاليليو (ضاحكا) دعيني على الأقل طوال المدة التي فيها أشربه. (مخاطبا أندريا) إذن فهمت بالأمس بعض الأشياء.

أندريا لقد قلت هذا لها لأبهرها. ولكن المسألة ليست بهذه البساطة. الكرسي الذي كنت أجلس عليه، كل ما فعلته هو أنك أدرته حول نفسه أفقيا، وليس هكذا. (يقوم بحركة الترجح بذراعه) وإلا لكُنْت سَقَطت. هذه هي الحقيقة. فلماذا لم تحرك الكرسي ورأسي إلى أسفل؟ ذلك أن هذا سيكون برهانا على أنني سأسقط من على الأرض إذا تحركت بهذه الكيفية. لقد وَقَعْتَ في مَأزِق.

جاليليو : لكني برهنت لك...

أندريا : نعم، لكن في الليلة الماضية فكرت فوجدت أنه في هذه الحالة إذا دارت الأرض هكذا فإن رأسي في الليل سيكون في أسفل. وهذه حقيقة.

جاليليو (وقد أخذ تفاحة من فوق المنضدة) لنفرض أن هذه هي الأرض.

أندريا لا تضرب أمثلة من هذا النوع، يا سيد جاليليو. فبها ستستطيع التخلص باستمرار.

جاليليو (معيدا التفاحة إلى مكانها) ليكن.

أندريا بواسطة الأمثلة يستطيع المرء التخلص، مادام يحسن

ضربها. والفارق هو أنني أنا لا أستطيع أن أجر أمي على كرسي، كما تفعل أنت معي. وهكذا ترى أن المثل رديء. ثم ماذا يحدث، إذا كانت تفاحتك هذه هي الأرض؟ لا شيء يحدث أبدا.

جالليو (ضاحكا) يظهر أنه لا يهمك أن تعرف.

أندريا أَمسك بالتفاحة مرة أخرى. كيف يتأتى ألا تكون رأسي إلى أسفل في أثناء الليل؟

جالليو لنفرض إذن أن هذه هي الأرض، وأنك أنت هناك (يغرز في التفاحة شظية خشب أخذها من حطبة) والآن تدور الأرض.

أندريا والآن رأسي منكوس.

جالليو كيف؟ انظر جيدا. أين الرأس؟

أندريا (وهو يشير إلى نقطة في التفاحة) هناك، في أسفل.

جالليو كيف؟ (يدير التفاحة في الاتجاه العكسي) أليس في المكان نفسه؟ أوليست القدمان في أسفل؟ أو هل أنا أقيمك منتصبا حينما أديرك، هكذا؟

(يسحب شظية الخشب من التفاحة ويديرها)

أندريا لا. لكن لماذا لا أحسّ بأي تقلب؟

جالليو لأنك تدور مع الأرض. أنت، والهواء الذي فوقك، وكل من على الكرة.

أندريا ولكن لماذا يخيّل إلى المرء أن الشمس هي التي تدور؟

جالليو (وهو يدير التفاحة من جديد بواسطة شظية الخشب المغروسة فيها) إذن أنت ترى الأرض تحتك، وهي كما هي، دائما في أسفل، وبالنسبة إليك يبدو أنها لا تتحرك. لكن، انظر الآن من فوقك الآن، المصباح فوق رأسك، ولكن حينما أدرت التفاحة فما هو الشيء الذي فوق الرأس، وبالتالي هو في أعلى؟

أندريا (مصاحبا الحركة) الموقد.

جاලليو	والمصباح، أين هو؟
أندريا	هذا عظيم، هذا سيدهشها.
	(يدخل لودفكو مرسيلي، وهو شاب من أسرة موسرة)
جاලليو	هذا البيت مثل برج الحمام.
لودفكو	صباح الخير يا سيدي. أنا اسمي لودفكو مرسيلي.
جاලليو	(وهو يتفحص خطاب التّوّصِية) : كُنْتَ في هولندا؟
لودفكو	سمعت عنك كثيرا يا سيد جاලليو.
جاලليو	لأسرتك أرض في كمبانيا.
لودفكو	تمنت أمي عليّ أن أحتك بالدنيا، ابتغاء رؤية الأشياء الجديدة... الخ.
جاලليو	وفي هولندا سمعتهم يقولون إن الجديد في إيطاليا مثلا هو أنا؟
لودفكو	ولما كانت أمي تريد مني أن أحتك قليلا بالعلوم.
جاලليو	دروس خصوصية: عشرون اسكوده في الشهر.
لودفكو	حسن جدا يا سيدي.
جاලليو	بماذا تهتم؟
لودفكو	بالخيل.
جاලليو	هيه! هيه!
لودفكو	رَأسي لم يخلق للعلوم، يا سيدي جاලليو.
جاලليو	هيه! هيه! في هذه الحالة تدفع خمسة عشر اسكوده.
لودفكو	حسن جدا، يا سيد جاලليو.
جاලليو	لا بد من أن يكون درسك في الصباح الباكر. وستكون أنت الضحية، يا أندريا. طبعا الدرس الخاص بك سيُلغى. وأنت فاهم، لأنك لا تدفع.
أندريا	حسن، أنا ذاهب. هل أستطيع أخذ التفاحة؟

جالليو : نعم.

(أندريا يخرج)

لودفكو : معي يجب عليك أن تكون صبورا. الصعوبة الكبرى هي أنه في العلوم لا شـيء يجري كما يشـير به الفهم العليم. خذ مثـلا تلك الأنبوبة الغريبة التي تباع في أمسـتردام. لقد فحصتها بدقة. يدٌ منّ الجلد الأخضر وعدسـتان، واحدة هكذا (يده ترسـم عدسـة مقعرة)، والأخـرى هكذا (يده ترسم عدسـة محدبة). ويقال إن الواحدة تكبِّر، والأخرى تصغّر. وأي إنسـان عاقل يتخيل أنهما تتعادلان. كلا. فمن خلال هذا الجهاز يرى الشيء مكبرا خمس مرات. هذا هو العلم الذي تريده، يا سيدي.

جالليو أي شيء يرى مكبرا خمس مرات؟

لودفكو أبراج نواقيس، حمام. كل ما هو بعيد.

جالليو : هل رأيتها أنت بنفسك هذه الأبراج المكبرة؟

لودفكو : بالتأكيد، يا سيدي.

جالليو : والأنبوبة فيها عدستان؟ (يخطط رسما «كروكيا» على ورقة) هكذا؟ (لودفكو يوافق بهز رأسه) متى ظهر هذا الاختراع؟

لودفكو : قبيل سـفري من هولندا بأيام قليلة، على كل حال لم يظهر في السوق إلا منذ وقت قصير.

جالليو : (بشـيء من التودد) ولماذا علـم الطبيعة بالذات؟ لماذا لا تدرس تربية الخيل؟ (السيدة سارتي تدخل من دون أن يراها جالليو)

لودفكو : أمّي تقـول إن قليلا من العلم لا غنى عنه.. في هذه الأيام الناس جميعا يهتمون بالعلم.

جالليو يمكنك أن تتعلم لغة من اللغات القديمة، أو اللاهوت: فهذا أسـهل عليك (وقد تنبه إلى وجود السيدة سارتي) حسن، تعال صباح الثلاثاء (لودفكو يذهب). لا تتطلعي فيّ هكذا. فقد وافقت على التدريس له.

السيدة سارتي : لأنــك أَبْصَرْتني في الوقــت المناســب. إن مدير الجامعة ينتظرك في الخارج.

جالليو دعيه يدخل. إنه مهم. ربما أحصل على خمسمائة اسكوده، وفي هــذه الحالة لن أكون في حاجة إلى إعطاء دروس خصوصية. (الســيدة ســارتي تدعو المدير إلى الدخول. ارتدى جالليو كل ثيابــه، وهو يكتب بعض الأرقام علــى قطعة من الورق) صباح الخير. أقرضني نصف اسكوده. (يعطي السيدة سارتي قطعة النقود التي اســتخرجها مديــر الجامعة من حافظة نقوده) يا سيدتي ســارتي، ابعثي أندريا إلى صاقل العدسات لإحضار عدستين. المقاييس هناك، على هذه الورقة.

(السيدة سارتي تخرج ومعها الورقة)

المدير أتيــت للتحدث معك بشــأن طلبك زيــادة مرتبك إلى ألف اســكوده. لكن يؤسفني ألا أعطي الرأي بالموافقة للجامعة. أنت تعلم جيدا أن محاضرات الرياضيات لا تجتذب العدد الكبير إلى الجامعة. هذه واقعة حقيقية. ذلك أن الرياضيات صناعة لا توفر الكســب الكافي لصاحبها. وليس ذلك لأن الجمهوريــة لا تقيم لها وزنا كبيرا، فإن الرياضيات وإن لم تكن لا غنى عنها مثل الفلســفة، ولا مفيدة مثل اللاهوت، فإنها تحقق لدارسها لَذّات لاحدّ لها.

جالليو : (مكبــا علــى أوراقه) يا عزيزي، أنا لا أســتطيع أن أعيش بخمسمائة اسكوده.

المدير : لكن، يا سيد جالليو. أنت تلقي درسين في الأسبوع بمعدل ســاعتين لكل درس. وشــهرتك النادرة تخوّل لك الحصول على أي عدد من التلاميذ القادرين على دفع أثمان الدروس الخصوصية. ألا تلقي دروسا خصوصية؟

جالليو يــا ســيدي العزيز، عنــدي الكثيــر جدا. إعطــاء دروس خصوصية، دائما دروس، وأين إذن ســأجد الوقت الكافي للاطلاع والإفادة؟ يا إلهي! لســت كواحد من هؤلاء السادة

الأساتذة في كلية الفلسفة، هؤلاء الأذكياء، أنا غبيّ. لا أفهم شيئا في أي شـيء. ولهذا فإنني مضطر إلى سد الثغرات في معلوماتي لكن أين أجد الوقت لذلك؟ وأين أجد الوقت للقيام بالأبحاث؟ أنا يا سـيدي يحتاج علمي إلى مزيد من العلم. فيما يتعلق بالمشـكلة الكبرى ليـس لدينا حتى الآن غيـر فروض. وما نطالب به أنفسـنا هو البراهين، فكيف السـبيل إلى أن أتقدم في هذا المجـال، إذا كنت مضطرا، من أجل لقمة العيش، إلى أن أكرر لأي غبيّ عنده الوسـيلة لدفع الثمن، أن المتوازيات تلتقي عند النهاية؟

المدير : ينبغـي ألا تنسـى أنـه إذا كانت جمهوريتـا ربما لا تدفع بالسـخاء نفسـه الذي يدفعه بعـض الأمـراء، فإنها في مقابـل ذلك تضمن حرية البحـث. ونحن في جامعة بادوا نسمح حتى للبروتسـتانت بالحضور كمستمعين! ونعطيهم الدكتوراه. خذ مثلا الأسـتاذ كريمونيني Cremonini: ليس فقط نحن لم نسلمه لمحاكم التفتيش لما أن برهنوا لنا، أقول برهنوا يا سـيد جالليو، على أنه كان يلقـي بآراء مخالفة للإيمـان، بل ورفعنا مرتبه، حتى فـي هولندا يعرفون عنا ذلـك. البندقية هي الجمهورية التـي لا قيمة فيها لمحاكم التفتيش. ولهذا الأمر قيمته بالنسـبة إليـك، فأنت عالم فلـك، وبالتالي ميـدان تخصصك من الميادين التي فيها مذهب الكنيسة لا يعامل بالاحترام الواجب.

جالليو : والأسـتاذ جوردانو برونو Giordano Bruno؟ لقد كان هنا، وأنتم الذين أسلمتموه إلى روما. لا لشيء إلا لأنه نشر آراء كوبرنيكوس.

المدير : ليس لأنه نشـر آراء كوبرنيكوس هـذا، وهي مع ذلك آراء فاسـدة، ولكن لأنه لم يكن من أهالي البندقية، ولم يشغل أي وظيفـة هنا. فدع إذن مـن أحرقوه في روما حيثُ هم. ولا أكتمك أنه على الرغم من الحرية التي تسود هنا، فمن

الأفضل لك ألا تذكر عاليا مثل هذا الاسم، الذي حلت عليه اللعنة الصريحة للكنيسة. ولا هنا. لا. ولاهنا.

جاليليو حمايتكم لحرية الفكر هذه أمر جميل جدا. وبفضل هذه الحجة، وهي أن محاكم التفتيش تسيطر في الأماكن الأخرى وتحكم بالإحراق، صار عندكم أساتذة أفاضل. أنتم تحمون من محاكم التفتيش، لكنكم تدفعون أقل مما يدفع الآخرون، وبهذا توفرون.

المدير هذا إفك، إفك فاحش! وماذا يفيدك أن يكون عندك كل الوقت للبحث، إذا كان أي راهب جاهل من رجال التفتيش يستطيع أن يمنع ويصادر أفكارك؟ لا ورد بلا شوك، ولا أمير بدون رهبان يا سيد جاليليو.

جاليليو وفيم تفيد حرية البحث، إذا أعوز الفراغ للقيام بالبحث؟ وماذا يصنع بالنتائج؟ ألا تستطيع أن تُري هؤلاء السادة، أعضاء المجلس الأعلى، هذه الأبحاث المتعلقة بقوانين سقوط الأجسام (يريه إضبارة من الأوراق المخطوطة) وتسألهم: ألا تساوي هذه مزيدا من الاسكودات القليلة؟

المدير هذا يساوي الكثير جدا، يا سيد جاليليو.

جاليليو لا، ليس الكثير جدا، بل فقط خمسمائه اسكوده زيادةً، يا سيدي العزيز.

المدير يساوي اسكودات ما يَدرّ اسكودات. إذا كنت تريد نقودا، فعليك أن ترينا شيئا آخر. أما فيما يتعلق بالعلم الذي تريد بيعه، فينبغي ألا تطلب عنه أكثر مما يَدِرّه على من يشتريه. خذ مثلا الفلسفة التي يبيعها الأستاذ كولومب في فيرنتسه: إنها تدر على الأمير عشرة آلاف اسكوده على الأقل في العام الواحد. صحيح أن قوانينك الخاصة بسقوط الأجسام قد أثارت ضجة، وفي براج وباريس الكل يصفقون لك بحماسة. لكن هؤلاء المصفقين لا يدفعون

لجامعة بادوا شيئا نظير ما تكلفها أنت. مصيبتك، يا سيد جالليو، هي في تخصصك.

جالليو فاهم: السوق الحرة، والبحث الحر. وبالجملة، السوق الحرة للبحث، أليس كذلك؟

المدير أوه، يا سيد جالليو! كيف تتصور الأمور! اسمح لي بأن أقول لك إنني لا أفهم تماما أجوبتك الساخرة هذه. ولا يتضح لي ما العيب في ازدهار تجارة جمهوريتنا. ولكني، وأنا مدير للجامعة منذ سنوات طويلة، لا أسمح لنفسي بالكلام بهذه اللهجة عن البحث، هذه اللهجة - واسمح لي بأن أقولها - غير اللائقة. (جالليو يلقي نظرة مضطربة على مكتبه) فكّر فيما يجري في سائر أنحاء إيطاليا، فكّر في الاستبداد الذي يذلّ العلوم ويبكيها في كثير من المواطن. هناك يؤخذ جلد المجلدات العتيقة لتُصنع منه سيور للسياط. هناك ما يجب معرفته ليس هو كيف يسقط الحجر، ولكن ماذا قال أرسطو في هذا. والعيون فائدتها الوحيدة هي للقراءة. وفيم تفيد القوانين الجديدة الخاصة بسقوط الأجسام، إذا كان الشيء الوحيد الذي يهم هو القوانين الخاصة بفن الركوع والانحناء؟ قارن بهذا كله السرور الذي لا حد له الذي به تستقبل جمهوريتنا آراءك، مهما تكن جريئة. لا أحد يراقبك، ولا أحد يضطهدك. وتجارنا - وهم يعرفون، في المنافسة مع فيرنتسه، أهمية تحسين نوع المنسوجات - يستمعون إليك باهتمام حين تعلن قائلا: «حسنوا علم الطبيعة»، ويعرفون كم يدين علم الطبيعة لهذا التحسين لوسائل النسيج؟ إن البارزين من مواطنينا يهتمون بأبحاثك ويزورونك، ويرحبون بالاطلاع على اكتشافاتك، مع أن وقتهم ثمين جدا. لا تحتقر التجارة، يا سيد جالليو. لا أحد يسمح هنا بالتشويش عليك في عملك، أو أن يخلق لك الصعوبات غير المختصين. اعترف يا سيد جالليو بأنك تستطيع العمل هاهنا.

جاليليو : (يائسا) نعم.

المدير : وفيمـــا يتعلــق بالجانب المـــادي، عليك أن تبتكر لنا شـــيئا بديعا مثل فرجار التناســب الذي اخترعته، والذي بفضله يمكن الإنســـان – مـــن دون أن تكون لديـــه أدنى فكرة عن الرياضيات – (يعد على أصابعه) أن يرســـم منحنيات، وأن يحسب الفوائد المركبة لرأس المال بنسخ مستويات مساحية على مقياس رســـم أصغر أو أكبـــر، وأن يحدد وزن دانات المدافع.

جاليليو : هذه لعبة أطفال.

المدير : اختراعٌ أدهش كبار المواطنين، ودرّ نقدا سائلا، أتسميه لعبة أطفال؟! ولقد قيل لي إنه بهذه الآلة نفســـها استطاع حتى الجنرال استفانو جريتيّ أن يستخرج الجذور التربيعية!

جاليليو : معجـــزة، الحقيقة يابريولـــي Priuli أنـــك جعلتني أفكر. بريولي، ربما عندي لك شـــيء من النـــوع الذي تتكلم عنه. (يأخذ من فوق المنضدة الورقة المرسوم فيها رسم كروكي)

المدير : صحيح؟ هذا ســـيرتب كل شيء (ينهض واقفا) نحن نعلم، يا ســـيد جاليليو، أنك عقل ممتـــاز. ممتاز ولكنه غير راض أبدا، إذا جاز لي هذا التعبير.

جاليليو : نعـــم أنا غير راض أبدا، ولو فهمت الأمور، لوجدت أن عدم الرضا هذا يستحق زيادة في المرتب. لأني غير راض... عن نفســـي. لكن بدلا من هذا، تفعلون كل المطلوب من أجل أن يتحول عدم رضاي ضدكم. وأنا أعترف، يا سادة البندقية، بأنني لست ساخطا على أنني واحد في ترسانتكم الشهيرة وفي ورشـــكم البحرية ومصانع المدافـــع. لكنكم لا تتركون لـــي الوقت اللازم الكافي لعمل التأمل الذي يلحّ عليّ دائما ويجعلني أتقدم في تخصصي نفســـه. وتقيدون الثور الذي يدرس حبوب حقولكم. عمري الآن ست وأربعون سنة، ولم

أحقق حتى الآن شيئا أرضاه لنفسي.

المدير: في هذه الحالة، لا أود أن أضايقك أكثر.

جالليو: شكرا.

(يذهب المدير. يبقى جالليو وحده لحظات ويشرع في العمل. يدخل أندريا باندفاع)

جالليو: (من دون أن يقطع عمله) لماذا لم تأكل التفاحة؟

أندريا: بهذه أود أن أثبت لها أن الأرض تدور.

جالليو: عليّ أن أقول لك شيئا يا أندريا: لا تتكلم عن أفكارنا مع الناس.

أندريا: لماذا؟

جالليو: السلطات لا تريد هذا.

أندريا: لكن، مادامت هذه هي الحقيقة؟

جالليو: صحيح، لكنها لا تريد. وفي مسألتنا هذه هناك سبب آخر. فنحن، علماءَ الطبيعة، لسنا قادرين باستمرار على سوق البرهان على ما نعتقد أنه حق. وحتى نظرية كوبرنيكوس العظيم لم يبرهن عليها بعد. إنها مجرد فرض. أعطني العدسات.

أندريا: لم يَكْفِ نصفُ الاسكوده. فاضطررتُ أن أترك هناك معطفي رهْنا.

جالليو: وماذا تصنع في الشتاء بدون معطف؟

(صمت. جالليو يرتب العدسات على الورقة التي فيها الرسم الكروكي)

أندريا: لكن ما هو الفرض؟

جالليو: هو أن نقر بأن شيئا ما محتمل، لكن من دون أن تكون لدينا الوقائع التي تثبته. خذ مثلا فيليشيا، هناك أمام دكان القفاص ومعها طفلها يرضع: إذا قلنا إنها تعطي الطفل

لبنا، وليس الطفل هو الذي يعطيها اللبن، فإن هذا القول يظل فرضا مادمنا لم نذهب إلى هناك ونشاهد ونحصل على الدليل. وأمام النجوم نحن مثل دود الأرض، بعيون ضعيفة لا ترى الكثير. والنظريات القديمة التي اعتقد الناس صحتها طوال ألف عام، هي على الاستعداد للانهيار، وفي هذه الأبنية الهائلة من الخشب أقل مما في السواند المفروض فيها أنها تسندها كميات من القوانين لتفسير القليل جدا من الأشياء، بينما الفرض الجديد لا يتضمن غير قليل من القوانين لتفسير كميات من الأشياء.

أندريا: لكنك برهنت لي على كل شيء.

جاليليو: لقد أثبت فقط أن هذا ممكن. الفرض جميل، ولا شيء ضده.

أندريا: وأنا أيضا، يا سيد جاليليو، أريد فيما بعد أن أصبح عالم طبيعة.

جاليليو: أعتقد هذا، خصوصا أن هناك مسائل عديدة جدا يجب إيضاحها في ميداننا هذا. (ذهب إلى النافذة ونظر من خلال العدسات. وبدون حماسة كبيرة) انظر قليلا في هذا، يا أندريا.

أندريا: يا للعذراء مريم المقدسة! كل الأشياء تقترب. برج الناقوس يُرى قريبا جدا. وفي وسعي أن أقرأ الحروف على النحاس: «الحمد لله».

جاليليو: هذا يساوي خمسمائة اسكوده بالنسبة إلينا.

* * *

(٢)

(جاlليو يهدي إلى جمهورية البندقية اختراعا جديدا)

ما كل ما فعل العظيم عظيما
جاليليو يأكل وافرا مسرورا
والآن اسْمع، واطْرح كلّ الغضب
اسْمَع حقيقة آلة المقراب

الترسانة الكبرى في ميناء البندقية.

أعضاء المجلس، وعلى رأسهم الدوج. وفي ناحيته يقف سجريدو، صديق جاليليو، وفرجينيا جاليلاي، وعمرها ١٥ سنة، تحمل مخدة من المخمل عليها عدسة طولها نحو ٦٠ سنتيمترا، موضوعة في غلاف من الجلد الأحمر الغامق. جاليليو واقف على منصة. وخلفه حامل العدسة، وبالقرب منه صاقل العدسات فدرتسوني مشغولا)

جاليليو: صاحب السعادة، أيها المجلس النبيل. منذ قيامي بتدريس الرياضيات في جامعتكم، جامعة بادوا، وإدارتي لترسانتكم الكبيرة في مدينة البندقية هذه، كنت أحسب من واجبي ليس فقط أن أؤدي مهمتي الجامعية النبيلة بأمانة وإخلاص، بل وأيضا، أن أهيئ لجمهورية البندقية الوقور أرباحا غير عادية بفضل اختراعات مفيدة. وفي وسعي اليوم، والسرور يغمر نفسي، وبكل الاحترام الواجب لكم، أن أعرض عليكم آلة جديدة تماما، هي المقراب (التلسكوب)، وقد حققتها في ترسانتكم الشهيرة وفقا للمبادئ العليا لعلم الطبيعة والإيمان المسيحي. وهي ثمرة سبعة عشر عاما من الأبحاث المتصلة التي قام بها مَنْ يُشَرّفه أن يكون خادمكم المتواضع جدا والمخلص جدا. (جاليليو يترك المنبر، ويأتي إلى قرب سجريدو. (تصفيق)

(جاليليو ينحني لسجريدو هامسا) إني أضيّع وقتي!

سجريدو (بصوت خفيض) يا صاحبي، سيكون في مقدورك أن تدفع ما عليك للجزار.

جالليو صحيح، هذا سيجلب لهم نقودا.

(يحييّ من جديد)

المدير (وهو يرتقي المنصة) صاحب السعادة، أيها المجلس النبيل! مـرة أخرى تكتـب صفحة مـن المجد في سـجل الفنون والصناعات بأحرف خطتها يـد بندقية. (تصفيق مهذب) عالم مشـهور في العالم كله يهـدي إليكم، وإليكم وحدكم، أنبوبـة رائجة البيع جدا، لتنتجوا منها وتلقوا بإنتاجكم في السـوق كما تشاءون. (تصفيق أشد). وهل لاحظتم أنه في وقت الحرب سنسـتطيع، بفضل هذه الآلة، أن نعرف أنباء سـفن العدو: عددَها ونوعها، نعرفها أسـبق من معرفتهم لسـفننا بسـاعتين، حتى أننا وقد عرفنا قواتهم نستطيع أن نقرر: هـل نطاردهم، أو نخوض معركة معهم، أو نهرب منِهـم. (تصفيق حاد) والآن، يا صاحب السـعادة، ويا أيها المجلس النبيل، إن السـيد جالليو يلتمس منكم أن تتفضلوا بقبـول هذه الآلة التـي اخترعها، والتي تشـهد بعبقريته، قبولها من يدي ابنته الجميلة.

(موسيقى. فرجينيا تتقدم، وتنحني، وتعطي المدير المقراب، وهذا بدوره يقدمه لفدرتسـوني. وفدرتسوني يضعه على الحامل ويصوبه. والدوج وأعضـاء المجلس يصعدون على المنصة وينظرون من خلال المقراب)

جالليو (بصوت خفيض) لا أستطيع أن أعدك بتحمل هذه الألاعيب حتـى النهاية. انظر إليهم. إنهم يعتقدون أنهم تلقوا ألعوبة صغيرة سـتدر عليهم أرباحا طائلـة، إن الأمر أهم بكثير. هذه الأنبوبة، في الليلة الماضية، صوبتها نحو القمر.

سجريدو وماذا رأيت؟

جاللیو : القمر لا يضيء بنفسه.

سجريدو : كيف؟

المستشارون : يا سيد جاللیو، إنني أستطيع أن أرى تحصينات سنتا روزيتا Santa Rosita هناك، على السفينة، يتناولون وجبة الغداء. سمك مقلي. هذا يسيل لعابي.

جاللیو : أقول لك إن علم الفلك توقف منذ ألف سنة بسبب عدم وجود عدسات.

عضو في المجلس : السيد جاللیو!

سجريدو : الكلام موجه إليك.

عضو في المجلس يمكن المرء أن يبصر جيدا بواسطة هذا الجهاز. وعليّ أن أقول لأهلي أن يَكُفّوا بعد الآن عن الاستحمام فوق السطح.

جاللیو هل تعرف ممَّ يتكون نهر المجرّة؟

سجريدو : لا.

جاللیو : أنا أعرف.

عضو في المجلس : جهاز مثل هذا، يا سيد جاللیو، يمكن أن يطلب المرء فيه عشر اسكودات.

(جاللیو ينحني)

فرجينيا : (مقتادة لودفكو إلى أبيها) يا أبي، لودفكو يودّ أن يهنئك.

لودفكو : (بتلعثم وحَرَج) تهانيّ، يا سيدي.

جاللیو : لقد أصلحته.

لودفكو بالتأكيد، يا سيدي! لقد لاحظت أنك طليت الغلاف بالأحمر. في هولندا، كان أخضر.

جاللیو (ملتفتا إلى سجريدو) وإني أسائل نفسي عما إذا كنت أستطيع أن أبرهن، بواسطة هذا الجهاز على صحة نظرية معينة.

سجريدو فَكِّرْ فيما تقول.

المدير يا جالليو! الخمسمائة اسكوده صارت في جيبك.

جالليو (مـــن دون أن يوجه انتباهه إليه) طبعا، أنا محتاط جدا من الوصول إلى نتيجة سابقة على الأوان.

(الدوج، رجل بدين متواضع، يقترب، وبهيبة متلعثمة يحاول أن يوجه إليه الكلام)

المدير يا سيد جالليو، صاحب السعادة الدوج.

(الدوج يصافح بشدة كف جالليو)

جالليو صحيح، الخمسمائة اســـكوده. إذن هم راضون يا صاحب السعادة؟

الدوج من المحزن في جمهوريتنا أنه يجب مع شـــيوخنا المتحوطين أن يقدم لهم حجة قبل أن نســـتطيع أن ندس لعلمائنا بعض المنح.

المدير ومـــن ناحية أخرى، يا ســـيد جالليو، مـــاذا تريد لمزيد من التشجيع وحفز الهمة؟

الدوج (بابتسامة) لا بد لنا من حجة.

(الدوج والمدير يقتادان جالليـــو إلى أعضاء المجلس الذين يحاصرونه. أما فرجينيا ولودفكو فيبتعدان ببطء)

فرجينيا هل فعلت كما ينبغي؟

لودفكو نعم، كما ينبغي، في نظري.

فرجينيا ماذا جرى لك؟

لودفكو أوه! لا شيء! ربما كان الغلاف الأخضر يؤدي الغرض نفسه.

فرجينيا أعتقد أنهم جميعا راضون عن والدي.

لودفكو وأنا أعتقد أنني بدأت أفهم شيئا في علم الطبيعة.

* * *

(٣)

(١٠ يناير سنة ١٦١٠: بواسطة المقراب، يكتشف جاليليو في السماء ظواهر تبرهن على صحة نظرية كوبرنيكوس. صديقه يحذره من نتائج أبحاثه، ولكن جاليليو يؤمن بالعقل الإنساني وقدراته.

في العاشر من يناير
عام ألف وستمائة وعشر
اكتشف جاليليو
أن السماء غير موجودة

مكتب جاليليو في بادوا. الوقت ليل. جاليليو وسجريدو وهما ملفوفان بمعاطف ثقيلة، بالقرب من المقراب)

سجريدو (وهو ينظر من خلال المقراب بصوت خفيض) الحافة الداخلية للهلال غير منتظمة، مسننة، مملوءة بالنتوءات. وفي الجانب المظلم، بالقرب من الحافة المضيئة، توجد نقط ضوئية. تظهر الواحدة بعد الأخرى. وابتداء من هذه النقط، ينتشر الضوء وينبسط على سطوح تزداد اتساعا، حيث تلحق بالمسطح المضيء الكبير.

جاليليو : كيف تفسّر نقط الضوء هذه؟

سجريدو : هذا غير ممكن.

جاليليو : نعم، هذه جبال.

سجريدو : جبال فوق نجم!

جاليليو : جبال هائلة، قمَمها ذهَّبَتْها الشمسُ المشرقة، بينما حولها لايزال الليل يُلَقي ظلامه على السفوح. ما تراه هو الضوء الذي ينزل من أعلى القمم إلى عمق الأودية.

سجريدو لكن هذا يتناقض مع عشرين قرنا من علم الفلك!

جاليليو تماما. ما تراه لم يره أحد من قبل، غيري أنا. وأنت ثاني إنسان.

سجريدو : لكن من المستحيل أن يكون القمر أرضا ذات جبال وأودية، كما أنه من المستحيل أن تكون الأرض نجما.

جاليليو من الممكن أن يكون القمر أرضا ذات جبال وأودية، ومن الممكن أن تكون الأرض نجما: مجرد جرم سماوي، بين آلاف الأجرام، ولا شيء أكثر من هذا. هل أنت ترى الجزء المظلم مظلما تماما؟

سجريدو : كلا. الآن وقد ركزت انتباهي فإني أرى فيه ضوءا ضعيفا، ضوءا رماديا.

جاليليو : وهذا الضوء ماذا عسى أن يكون؟

سجريدو ؟؟؟

جاليليو إنه قادم من الأرض.

سجريدو غير معقول. كيف يتأتى للأرض أن تكون مضيئة بجبالها وغاباتها وأنهارها، وهي جسم بارد؟

جاليليو : بالطريقة نفسها التي بها القمر مضيء. لما كان كلا الكوكبين مضيئا بالشمس، فهذا يجعلهما مضيئين. وما القمر بالنسبة إلينا إلا كما نحن بالنسبة إلى القمر. والقمر يرانا أحيانا على هيئة هلال، وأحيانا نصف دائرة، وأحيانا دائرة كاملة، وأحيانا لا يرانا أبدا.

سجريدو : إذن لا فارق بين القمر والأرض؟

جاليليو : لا فارق، كما يظهر.

سجريدو : منذ أقل من عشر سنوات، أُحْرق رجل في روما. وكان اسمه جوردانو، وكان هذا تماما هو ما قرره.

جاليليو بالتأكيد. ونحن نرى الأمر بوضوح. ركز عينك في العدسة، يا سجريدو. ما تراه هو أنه لا فرق بين السماء والأرض. نحن اليوم في العاشر من يناير سنة ١٦١٠. والإنسانية سجَّلت في سجلِّها: «اليوم حذفنا السماء».

سجريدو هذا مخيف.

جالليو	:	لقد اكتشفتُ شيئا آخر، شيئا ربما كان أكثر إثارة للدهشة.
السيدة سارتي	:	(وهي تدخل) المدير!
		(المدير يدخل في لهفة)
المدير	:	معذرة عن المجيء في ساعة متأخرة. سأكون ممتنا إذا استطعتُ الكلام معك وحدك.
جالليو	:	يا سيد بريولي، كل ما أستطيع سماعه يستطيع السيد سجريدو أيضا سماعه.
المدير	:	ربما لا يسرك أن يسمع هذا السيد الحكاية. إنه لأمر مع الأسف لا يمكن أبدا تصديقه.
جالليو		اعلم أنه حين يكون السيد سجريدو معي فإنه متعود سماع أمور لا يمكن تصديقها.
المدير		أنا خائف من الأمر، خائف تماما. (وهو يشير إلى المقراب) هذا هو الجهاز إياه! هذا الجهاز تستطيع أن تلقي به في المهملات. لا فائدة منه، أبدا.
سجريدو	:	(وكان يتمشى باضطراب محموم) وكيف؟
المدير	:	هل تعرف أن اختراعك هذا المزعوم، الذي قدّمته على أنه ثمرة سبعة عشر عاما من البحث، يمكن شراؤه باسكودات قليلة في كل أنحاء إيطاليا؟ وفوق هذا، هو مصنوع في هولندا. وفي هذا الوقت بالذات هناك سفينة هولندية تفرغ في الميناء مجموعة من خمسمائة وحدة من جهازك هذا.
جالليو		صحيح؟
المدير		أنا لا أفهم السر في هدوئك يا سيدي.
سجريدو		ماذا يحزنك؟ اعلَمْ أن السيد جالليو قد استطاع بهذا الجهاز أن يكتشف في هذه الأيام اكتشافات عن عالم النجوم ستقلب كل شيء.

جاليليو : (ضاحكا) يمكنك أن تنظر، يا بريولي.

المدير : إذن فلتعلم أن اكتشافي يكفيني: أنا الذي وافقت على مضاعفة مرتب السيد الجليل جاليليو، من أجل هذه القطعة من الحديد الخردة. والسادة أعضاء المجلس، الذين اعتقدوا أنهم بهذه الآلة قد أمّنوا للجمهورية امتلاك شيء لا يمكن صناعته إلا هنا، ويمكنهم إذا نظروا فيها أن يشاهدوا بائعا جوالا بسيطا مكبرا سبع مرات وهو يبيع في أقرب زاوية من الشارع، هذه الأنبوبة نفسها تباع بما يساوي ثمن قطعة من الخبز.

(جاليليو يضحك ضحكة رنانة)

سجريدو يا سيدي بريولي العزيز، لا شك في أنني لا أستطيع الحكم الصحيح على القيمة التجارية لهذه الآلة، لكن قيمتها بالنسبة إلى الفلسفة كبيرة جدا إلى حد..

المدير : بالنسبة إلى الفلسفة! وما شأن السيد جاليليو بالفلسفة، وهو عالم رياضيات؟ يا سيد جاليليو؟ لقد اخترعت منذ مدة للمدينة مضخة ماء جيدة، وجهاز الري هذا يعمل بكفاية تامة. والنساجون هم الآخرون لا يتحدثون عن ماكينتك هذه إلا بكل خير. فكيف كنتُ أتوقع منك مثل هذه الضربة؟

جاليليو : رفقا، يابريولي. إن الطرق البحرية لاتزال بطيئة، قليلة الأمان، وغالية التكاليف. ويعوزنا نوع من الساعات في السماء، يمكن الاعتماد عليه، من أجل تبيين الطريق للسفن. وعندي من الأسباب ما يجعلني أفترض أنه بفضل هذا المقراب يمكن رصد بعض النجوم ذوات الحركات المنتظمة جدا. خرائط جديدة للسماء، يا بريولي، ستوفر للملاحة الملايين من الاسكودات.

المدير كفى، كفى. كفاني أني سمعت كلامك مرة أكثر مما ينبغي. وبدلا من أن تشكر لي فضلي جعلت مني هُزأةَ المدينة. وستبقى ذكراي عند الناس ذكرى مدير احتيل عليه بعدسة

هـــي ســلعة رديئة. لك الحــق في أن تضحــك! أنت، لقد حصلت على الخمسمائة اسكوده التي طالبت بها. أما عن نفسي فإني أســتطيع أن أقول لك، ومن يقول لك هذا هو رجل شــريف: إن العالم الذي أعيش فيه يثير في نفســي الاشمئزاز (يخرج قارعا الباب من خلفه)

جاليليو : في غضبه يصير شِــبْه لطيف. هل سمعتَ: عالَمٌ يستحيل فيــه عقــد صفقــات ماديةً، هــذا العالم يثير في نفســه الاشمئزاز!

سجريدو : هل كنت على علم بهذه الآلات الهولندية؟

جاليليو نعم، بالســماع. لكنــي صنعت لهؤلاء الأشــخاص أعضاء المجلس الأعلى آله أفضل بعشــر مــرات. كيف يمكنني أن أشــتغل، والمحضر في غرفتي؟ وفرجينيــا، وقد آن الأوان لإعــداد جهازها، إنها قليلة الحظ من الذكاء. ثم إني أحب شــراء الكتب، وليس فقط في علم الطبيعة. كما أني أحب الأكل الجيد. ففي أثناء الطعــام الجيد تنثال عليّ الأفكارُ يــا له من عصر فاســد! إنهم لم يعطونــي حتى مقدار ما يعطونــه للحوذي الذي ينقل براميــل الخمر. أربعة أحمال حطــب وقودا من أجل دروس لمدة ســاعتين أســبوعيا في الرياضيات! والآن قد انتزعت منهم خمســمائة اســكوده، لكــن بقيت عليّ ديون مطلوبٌ دفعها، بعضُها مســتحق من عشــرين ســنة. كل ما أريده هو خمس سنوات من الهدوء للقيام بأبحاثي. وحينئذ ســأحصل على كل البراهين، أود أن أريك شيئا آخر.

سجريدو (وهو يتردد في الاقتراب من المقراب) يا جاليليو، أشعر بما يشبه الخوف.

جاليليو سأريك الآن واحدا من هذه الضبابات اللامعة اللبنية التي تكوّن المجرّة. قل لي، من أي شــيء تتكون؟

سجريدو من نجوم، يستحيل إحصاؤها.

جاالليو فقط في كوكبة الجوزاء يوجد خمسمائة نجم ثابت. هذه هي العوالم العديدة، العوالم التي لا حصر لها، والنجوم البعيدة التي تكلم عنها هذا الذي أحرقوه. إنه لم يرها، ولكنه توقعها.

سجريدو لكن حتى لو فرضنا أن هذه الأرض التي نحن عليها هي كوكب، فإننا لانزال بعيدين عن أقوال كوبرنيكوس الذي يرى أنها تدور حول الشمس. إذ لا يوجد في السماء كوكب يدور حول كوكب آخر. لكن، وفق علمي، حول الأرض يدور القمر.

جاالليو إني أسائل نفسي، يا سجريدو. منذ أمس وأنا أسائل نفسي. خذ المشتري (يصوّب المقراب) هناك بالقرب منه أربعة نجوم أصغر منه لا يمكن رؤيتها إلا بالمقراب. شاهدتها يوم الاثنين، لكن من دون أن ألتفت إلى مواقعها. وأمس عاودت النظر إليها. وكان في وسعي أن أقسم على أن النجوم الأربعة غيّرت مواقعها. سحبت مواقعها. فتغيرت مواقعها أيضا. ماذا يحدث؟ ومع ذلك رأيت أربعة.

(بدهشة كبيرة) انظر، وقل لي.

سجريدو أرى ثلاثة.

جاالليو أين الرابع إذن؟ هذه هي الرسوم. لا بد أن نحسب الحركات التي قامت بها.

(يجلسان في اهتياج شديد ويأخذان في العمل. المسرح يصبح مظلما، لكن لايزال يشاهد في الأفق المشتري وتوابعه. وحينما يضاء من جديد، يُرَى الرجلان لايزالان جالسين. وهما يلبسان معاطف شتوية)

جاالليو تم البرهان. الإمكان الوحيد هو أن النجم الرابع انتقل إلى الجانب الآخر من المشتري بحيث لم يعد مرئيا. وهكذا لديك كوكب يدور حول كوكب آخر.

سجريدو والغلاف البلّوري الذي يوجد فيه المشتري؟

جاليليو: صحيح، أين هو الآن؟ في أي شيء يوجد المشتري، إذا كانت هناك نجوم أخرى تدور حوله؟ ليس في السماء نقطة ارتكاز وليس في الكون مرساة! لدينا شمس جديدة.

سجريدو: هدّئ نفسك! أنت تتعجل البرهنة.

جاليليو: كيف أتعجل؟ تحمس! فإن ما تراه هناك لم يره أحد من قبل. لقد كانوا على صواب.

سجريدو: من؟ أنصار كوبرنيكوس؟

جاليليو: وكذلك الرجل الآخر. العالم كله كان ضدهما، وهما اللذان كانا على صواب. هذا شيء من أجل أندريا. (في حماسة شديدة يهرع إلى الباب ويصرخ صائحا): سيدة سارتي! سيدة سارتي!

سجريدو: ياجاليليو، هدئ من روعك.

جاليليو: يا سجريدو، تحمس. سيدة سارتي!

سجريدو: (مزيحا المقراب) ألا تتوقف عن النهيق عاليا كالمجانين؟

جاليليو: وأنت ألا تتوقف عن القبوع هناك كالحطبة، في الوقت الذي فيه انكشفت الحقيقة؟

سجريدو: لست قابعا كالحطبة، بل أنا أهتز من فكرة أن هذه ربما كانت الحقيقة.

جاليليو: ماذا؟

سجريدو: هل فقدت كل عقلك؟ هل صرت عاجزا عن فهم ما تخاطر بالوقوع فيه لو صح ما ترى، ولو رحت تصيح في كل مكان بأن الأرض جرم سماوي، وليست مركز العالم؟

جاليليو: نعم، وأنه ليس كل هذا الكون الهائل، بكل أجرامه السماوية، هو الذي يدور حول أرضنا الصغيرة جدا، كما كان الكل يعتقدون.

سجريدو: وإذن ليس هناك غير أجرام سماوية! إذن أين الرب؟

جاالليو : ماذا تريد أن تقول؟

سجريدو : والرب؟ أين الرب؟

جاالليو : (غاضبا) إنه ليس هناك في أعلى، على كل حال! لن نعثر عليه هناك في أعلى، كما أن الناس الذين في أعلى لن يجدوه هاهنا.

سجريدو : وفي هذه الحالة، أين الرب؟

جاالليو : هل أنا لاهوتي؟ أنا رياضي.

سجريدو : قبل كل شيء، أنت إنسان. وأنا أسألك: أين الله في نظامك هذا؟

جاالليو في داخل نفوسنا، أو ليس في أيّ مكان.

سجريدو (صائحا) مثل ما قال ذلك الذي أحرقوه؟

جاالليو نعم، كما قال ذلك الذي أحرقوه.

سجريدو إنهم أحرقوه لهذا السبب عينه، منذ أقل من عشر سنوات!

جاالليو : لأنه لم يقدم الدليل. كان يقرر فقط. يا سيدة سارتي!

سجريدو : جاالليو، لقد عرفتك دائما رجلا ماكرا. طوال سبع عشرة سنة في بادوا وثلاث سنوات في بيزا كنت تدرس - من دون تبرّم - لمئات التلاميذ نظام بطلميوس الذي أعلنته الكنيسة وأيده الكتاب المقدس الذي هو أساس الكنيسة. لقد كنت ترى هذا النظام زائفا، متفقا في ذلك مع كوبرنيكوس، وعلى الرغم من هذا كنت تقوم بتدريسه.

جاالليو : لأنه لم يكن عندي أدلة.

سجريدو (غير مقتنع) وهل تظن أن هذا يحدث فرقا؟

جاالليو فرقا هائلا جدا. أنت ترى، يا سجريدو، أنني أثق بالإنسان، ومعنى هذا أنني أثق بعقله. وبدون هذه الثقة لن تكون لديّ القدرة على النهوض في الصباح من فراشي.

سجريدو أمـا أنا فأقول لك عن نفسـي: إنني لا أثـق. أربعون عاما قضيتها بين الناس قد جعلتني دائما أتبين أنهم لا يستمعون لصوت العقل. أرهِم الذنَب الأحمر لنجم مُذَنَّب، وأثرْ فيهم جزعـا صامتا - تَجدهـم يقفزون من النافذة ويكسـرون سـيقانهم. لكن قل لهم شـيئا معقولا، وسـق لهم عشرات البراهين، تجدهم يسخرون منك.

جالليو : هـذا خطأ فاحش، وافتـراء. ولا أفهم، وأنـت تعتقد هذا الاعتقاد، كيف تسـتطيع أن تحب العلم. الموتى وحدهم هم الذين لا تؤثر فيهم البراهين والأدلة.

سجريدو كيف تخلط بين خبثهم المثير للشفقة وبين العقل؟

جالليو أنا لا أتكلم عن خبثهم ودهائهم. أنا أعلم جيدا أنهم يسمون الحمار فرسـا حين يريدون بيعه، ويسـمون الفرس حمارا حين يريدون شـراءه. هذا هو كل خبثهم. أما العجوز التي تعطي البغل حزمة زائدة من العلف بيدها الخشـنة عشية السـفر، والملاح الـذي يتوقع حدوث العاصفة والسـكون الساكن، حينما يشتري الزاد للسفينة، والطفل الذي يكبس طاقيته حين يشـار إليه بأن المطر سيسقط - هؤلاء الناس هم أملي، إنهم عقلاء. نعـم، لديّ ثقة في الضغط الرقيق الذي يمارسـه العقل على الناس. وبمرور الزمن لا يملكون شيئا ضده. لن يسـكت أحد. (يرمي بحصاة فتسقط على الأرض) إذا سـقطت الحصاة وقلت: إنها لم تسقط. لا لن يسـتطيع أحد ذلك، إن الإغراء الصادر عن برهان لا يمكن أن يقاوم. الكل تقريبا لا بد أن يسـلموا به في نهاية الأمر. إن التفكيـر يؤلف جزءا من أكبر اللذات التي يستشـعرها الجنس البشري.

السيدة سارتي (وهي تدخل) هل أنت في حاجة إلى شيء يا سيد جالليو؟

جالليو (وقد عاد إلى المقراب وأخذ يسجل ملاحظات، بلهجة ودية للغاية) نعم، أنا في حاجة إلى أندريا.

السيدة سارتي : أندريا؟ هو في فراشه بسبيل النوم.

جاليليو : ألا تستطيعين إيقاظه؟

السيدة سارتي : لكن ماذا تريد منه؟

جاليليو : أريد أن أطلعه على شيء يسره. سيرى شيئا لم يره إنسان من قبل، منذ أن وجدت الأرض، فيما عدانا نحن الاثنين.

السيدة سارتي : لا بد أنه شيء مما يُرى بأنبوبتك هذه.

جاليليو : تماما. بأنبوبتي. يا سيدة سارتي.

السيدة سارتي : ومن أجل هذا عليّ أن أوقظه في جنح الليل؟ هل أنت مجنون؟ إنه في حاجة إلى الليل لينام. أما أن أوقظه، فهذا مستحيل.

جاليليو صحيح؟

السيدة سارتي تماما.

جاليليو في هذه الحالة، يا سيدة سارتي، ربما تستطيعين أنت أن تساعديني. لقد وقعنا على مسألة لم نصل فيها إلى اتفاق، ربما لأننا قرأنا الكثير من الكتب. مسألة تتعلق بالسماء، مسألة تتعلق بالنجوم. وها هي ذي: ما هو الأكثر احتمالا: أن يدور الشيء الكبير حول الصغير، أو الصغير حول الكبير؟

السيدة سارتي : (بتشكك) معك يا سيد جاليليو لا يشعر المرء أبدا باطمئنان. هل هذا سؤال جاد، أو تريد فقط أن تسخر مني؟

جاليليو : المسألة جد.

السيدة سارتي : إذن فخذ الجواب في الحال. هل أنت الذي تقدم لي الطعام، أو أنا الذي أقدم لك الطعام؟

جاليليو أنت التي تقدّمين إليّ طعامي. وأمس كان شائطا.

السيدة سارتي ولماذا كان شائطا؟ لأنك ألزمتني بإحضار حذائك حينما كنت مشغولة بطهو الطعام. ألم أحضر لك حذاءك؟

جالليو : ممكن.

السيدة سارتي : مـــن بين كلينا أنت الذي درســـت ويمكـــن أن تدفع الأجرة للآخر.

جالليو : فاهم، فاهم، هذا ليس صعبا. صباح الخير يا سيدة سارتي. (الســـيدة ســـارتي تخرج مبتهجة) وبعد هذا يقال إن ناسا مثلها لا يســـتطيعون إدراك الحقيقة؟ إنهم متعطشون إليها كأنهـــا خبز جيد. (ناقوس يبدأ في الدق معلنا عن القداس الأول. تدخل فرجينيا متدثرة بمعطف وفي يدها مصباح)

فرجينيا : صباح الخير، يا أبي.

جالليو لماذا استيقظت؟

فرجينيا أنـــا ذاهبة مع الســـيدة ســـارتي لحضور قداس الســـاعة السادسة صباحا. ولودفكو سيذهب أيضا. هل كانت الليلة حسنة يا والدي؟

جالليو : كانت صافية.

فرجينيا هل يمكنني النظر فيه؟

جالليو : لماذا؟ (فرجينيا لا تعرف بماذا تجيب) هذه ليست لعبة.

فرجينيا : لا، يا والدي.

جالليو : ثم إن هذه الأنبوبة خدعة كبيرة ، هكذا ستســـمعين الناس يقولون في كل مكان. إنها تباع في الشارع بثلاث اسكودات، وقد سبق اختراعها في هولندا.

فرجينيا : ألم تطلعك على شيء جديد في السماء؟

جالليو لا شـــيء يشـــوقك. مجرد بقع صغيرة غامضة على يســـار نجـــم كبير، ولا بد لي مـــن أن أجد الوســـيلة للفت النظر إليها. (وهو يتحدث إلى ســـجريدو من فوق رأس فرجينيا) أستطيع أن أسميها الكواكب المدتشية، باسم الدوق الكبير في فيرنتســـه. (مخاطبا فرجينيا) قد يهمك يا فرجينيا أن

تعلمي أننا راحلون إلى فيرنتسه. كتبت رسالة إلى هناك أسأل فيها هل لدى الدوق الكبير وظيفة من أجلي، رياضيا في البلاط.

فرجينيا : (مبتهجة) في البلاط؟

سجريدو : جالليو!

جالليو : يا صديقي، أنا في حاجة إلى الفراغ، أنا في حاجة إلى براهين. وأريد نصيبي من صحن العدس. في هذا المنصب لن أعود في حاجة إلى تكرار نظام بطلميوس في دروس خصوصية. سيكون عندي الوقت، الوقت لنفسي، يا سجريدو، من أجل تحرير براهيني. لأن ما عندي حتى الآن غير كاف. لا قيمة له، مجرد أعمال غير منسقة، لا أستطيع بها أن أتقدم إلى العالم. لم أعثر بعد على أي برهان على أن ثمة جرما سماويا يدور حول الشمس. لكني سآتي بالبراهين، البراهين التي ستفرض نفسها على كل الناس، من الأمّ سارتي حتى البابا على عرشه. الشيء الوحيد الذي يقلقني هو أن البلاط لا يعطيني منصبا.

فرجينيا : من المؤكد أنك ستُعطَى منصبا، يا أبى! مع النجوم الجديدة والباقي!

جالليو : اذهبي لحضور القداس. (فرجينيا تخرج) من النادر أن أكتب إلى شخصيات كبيرة . أتظن أنني أحسنت؟

(يعطي الرسالة إلى سجريدو)

سجريدو : (يقرأ – بصوت عال – نهاية الرسالة التي أعطاه إياها جالليو) «... إذ ليس أعز عندي من أن أكون بقربكم، يا من شمسه البازغة ستكون نور الدنيا بأسرها». الدوق الكبير عمره تسع سنوات.

جالليو تماما. يبدو لي أنك تجد رسالتي مملوءة بالتذلل. وأنا على العكس من ذلك أسائل نفسي: هل فيها من التذلل ما

ينبغـــي، وعما إذا كان فيها تحفظ، وكأنه يعوزني الإخلاص الكافـــي. مَنْ برهن على نظرية أرســطو لـــه الحق في أن يستخدم أسلوبا متحفظا، أما أنا، فلا. بل لا بد لرجل مثلي أن يزحف على بطنه ليصل إلى مكانة محترمة. وأنت تعلم جيدا أنني أحتقر أولئك الذين لا تستطيع عقولهم أن تملأ بطونهم.

(السيدة سارتي وفرجينيا تمران بالقرب منهما من دون أن تتوقفا وهما في طريقهما إلى القداس)

سجريدو : يا جاالليو، لا تذهب إلى فيرنتسه.

جاالليو : لماذا؟

سجريدو : لأن الرهبان هم السادة هناك.

جاالليو : في بلاد فيرنتسه علماء مشهورون.

سجريدو : ناس مستعدون لعمل أي شيء.

جاالليو : سأمســـك بهم من آذانهم وأجرُّهم إلى هذه الأنبوبة. وحتى الرهبان، يا ســـجريدو، هم بشـــر. هم أيضا ينهارون أمام إغـــراء البراهين. ولا تنـــس أن كوبرنيكـــوس التمس منهم أن يثقـــوا بحســـاباته بعيونهـــم. حين يكـــون الحق ضعيفا غيـــر قادر على الدفاع عن نفســـه، فلا بد له أن ينتقل إلى الهجوم. سأمسك بهم من آذانهم وأرغمهم على النظر بهذه الأنبوبة.

سجريدو : يا جاالليو، أراك تسلك طريقا مروعا. اللعنة على الليلة التي فيها يرى الإنسان الحقيقة! لحظة عَمَى، تلك التي فيها يثق بعقل الإنســـان! عمَّن يقال إنه يمشي مفتوح العينين؟ عمّن يســـعى إلى هلاكه. وأنىّ للأقوياء أن يدعوا حرا من يعرف الحقيقة، حتى لو كانت هذه لا تتعلق إلا بالنجوم القصيّة؟

لـــو قلت للبابـــا إنه مخطئ، فهل تعتقد أنه سيســـتمع إلى حقيقتـــك لا إلـــى قولك له «أنـــت مخطئ»؟ وهـــل تعتقد

أنه سيكتفي بأن يسجل على ألواحه: «١٠ يناير سنة ١٦١٠ إلغاء السماء»؟ كيف يخطر ببالك أن تترك هذه الجمهورية، والحق في جيبك، لتلقي بنفسك والأنبوبة في يدك، في حبائل الأمراء والرهبان؟ أنت القليل الثقة فيما يتعلق بالعلم، ما بالك ساذجا كالطفل في كل ما يبدو أنه يساعدك على ممارسته؟! أنت لا تثق بأرسطو، أما الدوق الكبير فأنت تثق به. منذ قليل وأنا أشاهدك بالقرب من أنبوبتك تشاهد النجوم الجديدة، خُيل إليّ أني أراك تتلوى على حطب مشتعل، وحينما قلت: «أنا أثق بالبراهين»، خُيّل إلى أنني أتنسم رائحة اللحم المشوي. أنا أحبّ العلم، لكني أحبك أكثر، يا صديقي القديم، يا جاليليو، لا تذهب إلى فيرنتسه.

جاليليو : إذا أرادوني، فإني سأذهب.

(على ستارة تبدو الصفحة الأخيرة من الرسالة)

«وحين أجرؤ على أن ألقب النجوم الجديدة التي اكتشفتها بلقب أسرة مدتشي، لا يفوتني أن ألاحظ أنه إذا كان الانتساب إلى السماء ذات النجوم يضفي المزيد من المجد على الآلهة والأبطال، فإن الاسم السامي لآل مدتشي هو الذي سيضمن لهذه النجوم شهرة لا تمحى. وأما عن نفسي، وأنا أذكركم بأنني واحد من أخلص خادميكم، فإني سأعد دائما أن أعز ما أعتز به هو أنني ولدتُ واحدا من رعاياكم، إذ ليس أعز عندي من أن أكون بقربكم، يا من شمسه البازغة ستكون نور الدنيا بأسرها».

جاليليو جاليلاي

* * *

(٤)

(غيّـر جاليلـو مقامه فـي جمهورية البندقيـة إلى بلاط فيرنتسه. وهناك اصطدمت اكتشافاته - التي توصل إليها بمقرابه - بالإنكار من جانب العلماء.

«أنا ما قد كان دوما»

هكذا قال القديم.

«صِرْتَ لا تَصْلُحُ، فاذْهَبْ»

هكذا قال الجديد.

منزل جاليلـو في فيرنتسـه. في مكتب جاليلو، السـيدة سـارتي تهيئ كل شيء من أجل اسـتقبال مدعوين. وابنها أندريا جالس يرتب خُرَطا للسماء)

السيدة سارتي : منـذ وصلنا إلى فيرنتسـه هـذه، ولم نفرغ مـن المجاملات والنفاق. كل المدينة تمر أمام هذه الأنبوبة، وبعدها أسـتطيع التنظيـف. وكل هذا لا يؤدي إلى شـيء. لـو كانت في هذه الاكتشـافات ذرة من الحقيقة، فمن أولى بمعرفتها من رجال الكنيسة؟ لقد اشتغلت أربع سنوات عند مونسنيور فلبو، ولم أفرغ قط مـن تنظيف التراب المتراكم علـى كتبه. مجلدات ترتفع حتى السـقف، وليس فيها قصائد. وهذا المونسـنيور الهمـام كان في مقعدتـه رطلان من الجـروح الناجمة عن اسـتمراره قاعدا على كل هذا العلـم. أفمثل هذا الرجل لا يعـرف أين الحقيقة؟ واليوم هو يوم التفتيش الكبير وغدا لن أجـرؤ مرة أخرى على التطلع في وجه اللبّان. كنت أعرف ما كنت أقوله حين نصحته بأن يقدم وليمة عظيمة لهؤلاء السادة، وفخذة فخمة من لحم الضـأن، قبل أن ينظروا في أنبوبته. أنت تتكلم! (تقلد جاليليو) «عندي لهم شيء آخر». (قرع على باب الشارع. السيدة سارتي تتطلع في مرآة النافذة) يا إلهي،

ها هو الدوق الكبير نفسه! وجاليليو لايزال في الجامعة! (تنزل السلم بسرعة وتدخل دوق توسكانيا الكبير، كوزمو دي مدتشي، يصحبه كبير الياوران ووصيفتان)

كوزمو : أريد أن أرى الأنبوبة.

كبير الياوران : هل يتفضل سموك فينتظر حتى يحضر السيد جاليليو وبقية السادة؟ (مخاطبا سارتي) السيد جاليليو أراد أن يقوم السادة علماء الفلك بفحص النجوم التي اكتشفها والتي تسمى الكواكب المدتشية.

كوزمو : إنهم لا يعتقدون في الأنبوبة أبدا. أين هي؟

السيدة سارتي هناك فوق، في قاعة المكتب.

(الولد يشير برأسه، ويشير إلى السلم، وبإشارة من السيدة سارتي يصعد السلم بسرعة)

كبير الياوران (وهو رجل عجوز جدا) يا صاحب السمو! (مخاطبا السيدة سارتي) هل من الضروري صعود هذا السلم؟ لقد أتيت فقط لأن المربي مريض.

السيدة سارتي : لا خطر بالنسبة إلى السيد الفتى، وابني موجود فوق.

كوزمو : (وهو يدخل الغرفة العليا) مساء الخير!

(ينحني الصبيان باحترام. صمت. ثم يأخذ أندريا في العمل)

أندريا : (بنفس لهجة أستاذه جاليليو) الزحام هنا كما في برج الحمام.

كوزمو : كثير من الزوار؟

أندريا إنهم يأتون إلى هاهنا، يجررون شحمهم، ويفتحون عيونهم هكذا، ولكنهم لا يفهمون في الأمر شيئا.

كوزمو فاهم. أهذه هي...

(يشير إلى الأنبوبة)

أندريا	نعم، هاهي ذي. لكن، حاسب. لا تمسسها!
كوزمو	وهذا، ما هذا؟
	(يشير إلى النموذج الخشبي لنظام بطلميوس)
أندريا	هذا نظام بطلميوس.
كوزمو	إنه يبين كيف تدور الشمس، أليس كذلك؟
أندريا	نعم، هذا ما يقولونه.
كوزمو	(وقد جلس على كرسي، وأخذ النموذج الخشبي على ركبتيه) إن معلمي مصاب بزكام. لهذا استطعت المجيء مبكرا. هذا المكان لطيف.
	(أندريا لا يقف في مكانه، ويدور في الغرفة بخطىً مترددة، ناظرا إلى هذا الصبي الذي لا يعرفه نظرة غير مطمئنة. وأخيرا، حين لم يتمالك مقاومة الإغراء، سحب من خلف كومة من الخرائط نموذجا آخر، هو نموذج نظام كوبرنيكوس)
أندريا	لكن بالطبع الأمر يجري على هذا النحو.
كوزمو	أي أمر؟
أندريا	(مشيرا إلى النموذج الذي مع كوزمو) يظن الناس أن الأمر يجري هكذا، ولكن (وهو يشير إلى النموذج الذي معه) الحقيقة أنه يجري هكذا. الأرض هي التي تدور حول الشمس، فاهم؟
كوزمو	تعتقد حقا؟
أندريا	وكيف! لقد ثبت هذا بالبرهان.
كوزمو	صحيح؟ أود أن أعرف لماذا لم يسمحوا لي بالدخول عند العجوز. بالأمس كان مع مدعوين إلى العشاء.
أندريا	يبدو أنك لا تصدق هذا؟
كوزمو	بلى، بالتأكيد.

أندريا (مشيرا فجأة إلى النموذج الذي يحمله كوزمو على ركبتيه) هات هذا، أنت لا تستطيع حتى أن تفهم هذا.

كوزمو لست في حاجة إلى الاثنين في وقت واحد.

أندريا أعطني هذا. إنه ليس لعبة للأطفال الصغار.

كوزمو إني لا أمتنع من إعطائك إياه، لكن عليك أولا أن تكون مؤدبا، فاهم؟

أندريا أنت أبله، وبأدب أو بغير أدب، أعطني هذا وإلا أريتك.

كوزمو لا تمسسني، فاهم؟

(يتضاربان، وبعد قليل يتمرغان على الأرضية)

أندريا سأريك كيف يعامل النموذج. استسلم!

كوزمو لقد انكسر. لقد لويتَ يدي.

أندريا سنرى من هو الذي على صواب. قل إنه يدور، وإلا لكمتك.

كوزمو أبدا. آخ، يا أشعل! سأعلمك الأدب.

أندريا أشعل؟ أنا أشعل؟

(يواصلان معركتهما في صمت. في أسفل يدخل جالليو وكثير من أساتذة الجامعة. وخلفهم فدرتسوني)

كبير الياوران يا سادة، توعك خفيف منع السيد سوريو، معلّم صاحب السمو، من مصاحبة صاحب السمو.

اللاهوتي أرجو ألا يكون مرضه خطيرا.

كبير الياوران لا خطر منه أبدا.

جاالليو (وعليه أمارات خيبة الأمل) وصاحب السمو؟ هل هو موجود؟

كبير الياوران صاحب السمو موجود فوق. من فضلكم لا داعي للتأخير. البلاط يتحرق من أجل معرفة رأي الجامعة الشهيرة في الآلة العجيبة التي اخترعها السيد جاالليو، وفي الكوكبة (المجموعة الكوكبية) الجديدة.

(يصعدون. الصبيَّان لايزالان على الأرضية وقد سكنا حينما سمعا الضجة في أسفل)

كوزمو : ها هم أولاء. دعني أنهض.

(ينهضان بسرعة)

الزوار : (وهم يصعدون) كلا، كل شيء على ما يرام : كلية الطب تقرر تقريرا قاطعا أن الحالات التي لوحظت في المدينة القديمة لا يمكن أن تكون حالات طاعون. والأبخرة ستتجمد بالضرورة، وذلك نظرا إلى الحرارة الموجودة. أسوأ شيء في هذه الحالة هو أن يتملك الناسَ الذعر.. مجرد موجة الزكام المعتادة في مثل هذا الفصل من السنة. لا شيء مشتبه فيه.. كل شيء على ما يرام.

(لما وصلوا إلى أعلى، ألقوا التحية)

جالليو أنا سعيد، يا صاحب السمو، أن أستطيع أن أُطلع رجالات الجامعة، في حضرتكم، على الاكتشافات الجديدة.

(كوزمو ينحني بأدب رسمي متجها إلى كل النواحي، وحتى أمام أندريا)

اللاهوتي : (وقد شاهد النموذج المحطم لنظام بطلميوس) يبدو أن ثم شيئا قد تحطّم. (كوزمو ينحني بسرعة ويعطي أندريا النموذج بأدب، بينما جاللي يرتب شأن النموذج الآخر خلسة)

جاللي : (أمام المقراب) سموّك يعلم من غير شك، أن حساباتنا نحن الفلكيين تصطدم منذ زمان بعيد بصعوبات كبيرة. ونحن نستعمل فيها نظاما قديما جدا، يلوح أنه على اتفاق تام مع مبادئ الفلسفة، لكنه مع الأسف لا يتفق مع الوقائع. وفقا لهذا النظام، نظام بطلميوس، يُعزى إلى حركات النجوم عقيد شديد. فوفقا له، الكوكب فينوس (الزهرة) مثلا يقوم بحركة من هذا النوع. (يرسم على لوحةٍ مدار الزهرة وفقا لنظام بطلميوس) لكن حتى لو أقررنا بحركات معقدة

كهذه، فإننا لن نستطيع التنبؤ بمواقع النجوم، إذ لا نجدها في المواقع التي ينبغي أن تكون فيها. يضاف إلى هذا بعض الحركات السماوية التي لا يستطيع نظام بطلميوس تفسيرها. فهذا شأن الحركات التي تقوم بها النجوم الصغيرة التي اكتشفتها بالقرب من جوبتر (المشتري). هل تودون، ياسادة، أن نبدأ بإلقاء نظرة على توابع المشتري(*)، المسماة بالكواكب المدتشية؟

أندريا : (مشيرا إلى الكرسي المستدير أمام المقراب) تفضل اجلس.

الفيلسوف شكرا، ولدي، أخشى ألا يكون الأمر بهذه البساطة. يا سيد جاالليو، قبل الانتقال إلى تطبيقات مقرابك الشهير هذا، هل تسمح بالدخول في مناقشة موضوعها: هل يمكن وجود مثل هذه الكواكب؟

الرياضي نعم، مناقشة منظمة.

جاالليو : كنت أتصور أنكم ستكتفون بإلقاء نظرة من خلال هذه العدسة، ثم تحكمون بأنفسكم.

أندريا : على هذا الكرسي، من فضلك.

الرياضي : مؤكد، مؤكد. إنك لا تجهل أن من رأي الأوائل أنه من المستحيل تصور وجود كواكب دوراتها لا تتخذ الأرض مركزا لها، وكذلك وجود نجوم من دون ارتكاز في السماء.

جاالليو : من غير شك.

الفيلسوف : وحتى من دون أن أتوقف للبحث فيما إذا كان من المتصور وجودها، وهو ما يبدو أن زميلي الرياضي (ينحني في اتجاه الرياضي) يضعه موضع الشك، فإني أود بكل

(*) معظم الكواكب السيارة لها توابع تتناسب مع قدر الكوكب: فلكل من زحل والمشتري – وهما أكبر الكواكب السيارة التسعة – توابع، ولأورانوس توابع، وهكذا. والمعتقد هو أن التوابع هي في الأصل قطع انتزعت من الكواكب السيارة، كما انتزعت الكواكب السيارة من الشمس.

تواضـــع، بوصفي فيلســـوفا، أن أثير الســـؤال التالي: هل مثـــل هذه النجوم ضرورية؟ إن الكون عند أرســـطوطاليس الإلهي(*)...

جاالليو : أو ليـــس الأولى بنا أن نســـتعمل اللغـــة الجارية؟ إن زميلي السيد فدرتسوني لا يفهم اللاتينية.

الفيلسوف : هل من المهم أن يفهمنا؟

جاالليو : نعم.

الفيلسوف : معذرة. كنت أعتقد أنه مجرد صَقّال عدساتك.

أندريا : وفي الوقت نفسه عالم.

الفيلسوف شكرا يا ولدي. إذا كان السيد فدرتسوني حريصا...

جاالليو أنا، أنا حريص على هذا.

الفيلسوف ســـتفقد المحاجّة روعتها، لكن هـــذا البيت بيتك. إن الكون كما وصفه أرســـطو الإلهي، بما فيه من انســـجام ســـري يؤلفه أفلاكه وقبابه البلوريـــة، وبالدورة الدائرية لأجرامه الســـماوية، وبميل المدار الشمسي، وبأســـرار ألواح حركة التوابع، وبالعـــدد الهائل من النجوم التي يثـــري منها ثَبَتُ نصفِ الكرة الجنوبي، وبالبناء اللماع لكرة أورانوس – هذا الكون بناء محكم الترتيـــب فائق البهاء إلى حد ينبغي معه ألا تُخِلّ بما فيه من انسجام.

جاالليو : ومـــع ذلك، فهـــل يتفضل صاحب الســـمو بالنظر إلى هذه النجـــوم التي يقولون إنه لا يمكـــن تصورها ولا داعي لها، النظر إليها من خلال هذه العدسة؟

الرياضي هذا يغري بالرد عليك بأن أنبوبتك هذه، وهي ترى شيئا لا يمكن وجوده، هي آلة غير جديرة بالثقة. فاهم؟

جاالليو ماذا تريد بهذا التعريض؟

(*) هذه الجملة الأخيرة، باللاتينية: Aristotel’s divini universum

الرياضي	انظر يا سيد جاالليو: إنه يفيدك أكثر لو تسوق البراهين التي تحملك على افتراض أنه في الفلك الأعلى لسماء الثوابت يمكن أن تتحرك نجوم من دون أن تكون مثبتة في شيء.

الفيلسوف : براهينك، يا سيد جاالليو، براهينك!

جاالليو : براهيني؟ تكفي نظرة واحدة إلى النجوم نفسها، وأرصادي التي سجلتها، من أجل إيضاح المسألة. يا سيدي العزيز، إن المناقشة صارت غير معقولة.

الرياضي : لو كنا واثقين بأنك لن تزداد انفعالا، لقلنا إنه بين ما يوجد في أنبوبتك وما يوجد في السماء يمكن أن يكون هناك فارق.

الفيلسوف	هذه أرقّ طريقة للتعبير.

فدرتسوني	هم يظنون أن الكواكب المدتشية نحن الذين رسمناها على العدسة.

جاالليو : هل تتهمانني بالاحتيال؟

الفيلسوف : أنّى لنا أن نفعل ذلك، ونحن بحضرة صاحب السمو؟

الرياضي : آلتك، سواء كانت ابنتك، أو لنقل بالأحرى ابنتك المتبناة، بارعة الصنع من غير شك.

الفيلسوف : ونحن واثقون، يا سيد جاالليو، بأنه لا أنت ولا أي إنسان ما كان له أن يتجرأ على أن يُزين بالاسم المجيد لبيت أمراءٍ نجوما وجودها ليس بمنأى عن كل شك.

(الجميع ينحنون انحناءة عميقة أمام الدوق الكبير)

كوزمو	(موجها الخطاب إلى الوصيفتين) هل في كواكبي شيء من الاختلال؟

كبرى الوصيفتين	كلاّ، كل شيء على ما يرام في كواكب سموك. إن هؤلاء السادة يتساءلون فقط عما إذا كانت هذه الكواكب موجودة حقا.

(صمت)

صغرى الوصيفتين : أوَ لا يقولون إنه يمكن بهذه الآلة رؤية عجلات «المَركبة»(*)؟

فدرتسوني : نعم، وكذلك كل ما عند «الثور»!(**)

جالليو : إذن يا سادتي، هل تريدون أن تنظروا، أو لا؟

الفيلسوف : بكل تأكيد، بكل تأكيد،

الرياضي : بكل تأكيد.

(صمت. فجأة يدير أندريا ظهره راغبا في الخروج، مخترقا القاعة بشكل آلي. أمّه تقفه عند الباب)

السيدة سارتي : ماذا جرى لك؟

أندريا : إنهم مغفلون جدا.

(يتخلص منها ويهرب)

الفيلسوف هذا الولد جدير بالشفقة.

كبير الياوران يا صاحب السمو، يا سادة، هل أذكركم بأن حفلة الرقص الكبرى في القصر ستبدأ بعد ثلاثة أرباع الساعة؟

الرياضي : فيم كل هذه البهلوانيات؟ عاجلا أو آجلا لا بد للسيد جالليو من الإذعان لكلمة الحق. إن توابع المشتري من شأنها أن تخرق غلاف الفلك. هذا أمر واضح بنفسه.

فدرتسوني : ستندهش من قولي: لا يوجد غلاف فلك.

الفيلسوف : أي كتاب مدرسي سيقول لك إنه موجود يا صاحبي.

فدرتسوني : إذن فلتؤلَّف كتب مدرسية أخرى.

الفيلسوف : يا صاحب السمو! إن زميلي الجليل وأنا نستند إلى قول أرسطوطاليس الإلهي هو نفسه.

جالليو (في شبه إذعان) يا أصحابي، إن الثقة بأرسطو العظيم شيء، والوقائع الملموسة شيء آخر. أنتم تقولون إنه تبعا

(*) ويسمى الدب الأكبر، وهي مجموعة كوكبية شكلها يشبه المركبة.
(**) برج من البروج بين الحمل والتوأمين حافل بالنجوم وأبرز مجموعاته الثريا.

لأرسطو العظيم ثمة أغلفة بلورية، وأن بعض الحركات مستحيلة إذن، لأن النجوم في هذه الحالة من شأنها أن تخرق الأغلفة. لكن إذا تهيأ لكم أن تشاهدوا هذه الحركات بأنفسكم، فما قولكم؟ ربما دعاكم هذا إلى التفكير في أن الأغلفة البلورية هذه لا وجود لها. يا أصحابي الأعزاء، أرجوكم بكل تواضع أن تثقوا بعيونكم.

الرياضي : يا عزيزي جالليو، يحدث لي أحيانا أن أقرأ أرسطو - وإن بدا هذا أمرا عفّى عليه الزمن - وأؤكد لك أنني أثق بعيني.

جالليو تعودت أن أرى السادة في كل الكليات يغلقون عيونهم أمام الوقائع، وكأنها غير موجودة. أريهم أرصادي فيبتسمون، وأدعوهم إلى استعمال عدستي حتى يقتنعوا، فيذكرون لي أرسطو. لكن أرسطو لم تكن لديه هذه العدسة!

الرياضي : ليكن، ثم ماذا؟

الفيلسوف : (بجلال) إذا أريد هاهنا تمريغ أرسطو في الوحل، وهو الحجة التي اعترف بها ليس فقط كل كبار العقول في العصر القديم، بل وأيضا آباء الكنيسة أنفسهم، فإنه يبدو لي من اللغو، على كل حال، أن نتابع المناقشة. إني أرفض الخوض في مناقشة تخلو من الأمانة. لقد قلتُ.

جالليو : الحقيقة بنت زمانها، وليست بنت السلطة. إن جهلنا لا حدّ له، فلنقلل منه بمقدار ملليمتر مكعب! وفيمَ الإصرار على ادعاء أننا عقول كبيرة، إذا كان في وسعنا الآن أن نكون أقل بلاهة؟ لقد واتاني حظ لا مثيل له، بأن وقعت بين يديّ آلة جديدة تمكّن من فحص جزء ضئيل من الكون على نحو أدق، ولا أقول أدق كثيرا. فاستخدموها إذن!

الفيلسوف يا صاحب السّمو، سيداتي، سادتي! إني أسائل نفسي حقا إلى أي شيء سيفضي بنا هذا كله.

جالليو : يبدو لي، بوصفنا علماء، أننا لسنا بحاجة إلى أن نتساءل إلى أي شيء تؤدي الحقيقة.

الفيلسوف : (منفجرا) يا سيد جالليو، الحقيقة يمكن أن تفضي إلى بعيد جدا.

جالليو : يا صاحب السموّ! في هذه اللحظة، وكل ليلة، في إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها، تصوّب عدسات إلى السماء. وتوابع المشتري لا تجعل ثمن اللبن أقل. لكنها لم تُرَ قط، ومع ذلك فهي موجودة. ورجل الشارع يستخلص من ذلك، أن أشياء أخرى كثيرة ستوجد، لو أنه صمم على أن يفتح عينيه! ومن حقه عليكم أن يجد منكم التأييد. وما يجعل الآذان تُرعي السمع لإيطاليا ليس حركات بعض النجوم البعيدة عنا، بل النبأ العظيم الذي يقول إن نظريات كانت تعد راسخة قد أخذت تتهاوى، والكل يعلم أن الكثير من المذاهب حاله هكذا! سادتي الأعزاء، لا ندافع عن مذاهب متداعية!

فدرتسوني : عملكم أنتم يا أساتذة أن تثيروا هذا التداعي والتزعزع.

الفيلسوف : أود لو أن مريدك هذا أعفانا من نصائحه في مناقشة علمية.

جالليو : يا صاحب السّمو! إن عملي في الترسانة الكبرى في البندقية قد جعلني أحتك كل يوم بالرسامين، والبنائين ومُرَكّبي الآلات. هؤلاء الناس علموني طرقا جديدة. لم يقرأوا شيئا، ولكنهم وثقوا بشهادة حواسهم، وفي الغالب من دون أن يهتموا بماذا عسى أن تفضي إليه هذه الشهادة...

الفيلسوف يا للفظاعة!

جالليو كما فعل ملاحونا حين غادروا، منذ مائة عام، شواطئنا من دون أن يدروا ماذا عسى ستكون الشواطئ التي سيبلغونها، ولا حتى هل سيبلغون شاطئا. وكأنه قد صار علينا اليوم،

في سبيل استعادة هذا التطلع الرفيع الذي كان السبب في مجد يونان القديمة، أن ننشده في الورش والترسانات.

الفيلسوف : بعد كل الذي سمعناه في هذا البيت لم يعد عندي شك قط في أن السيد جالليو يجد معجبين به في الورش والترسانات.

كبير الياوران : ياصاحب السمو! أنا متأسف، لكن يظهر لي أن هذه المناقشة المفيدة جدا قد طالت بعض الطول. ولا بد لصاحب السمو أن يستريح قليلا قبل الرقص. (بناء على إشارة وجهت إليه، انحنى الدوق الكبير أمام جالليو. وبدأت الحاشية في الرحيل بسرعة. والسيدة سارتي، وقد اعترضت طريق الدوق الكبير، تقدم إليه صحنا من الفطائر)

السيدة سارتي : كعك باللوز يا صاحب السّمو.

(كبرى الوصيفتين تقتاد الدوق الكبير إلى الباب)

جاللیو : (ملحا عليهم): يا سادة، لم يكن عليكم إلا أن تنظروا بهذه الآلة.

كبير الياوران : سمو الأمير سيستشير فيما تقول أكبر علماء الفلك اليوم وهو الأب كرستوفر كلافيوس الفلكي الأول في المجتمع البابوي بروما.

* * *

(٥)

(استمر جاليليو في أبحاثه من دون خوف، حتى من الطاعون)

(أ)

مكتب جاليليو في فيرنتسه

(الصباح الباكر. جاليليو، والأرصاد أمامه، ينظر من خلال المقراب. تدخل فرجينيا وهي تحمل حقيبة سفر)

جاليليو : فرجينيا! ماذا جرى؟

فرجينيا : المدرسة أُغلقت، وكان علينا العودة حالا إلى بيوتنا. في فيزولي خمس حالات طاعون.

جاليليو : (مناديا) يا أم سارتي!

فرجينيا : وهنا أيضا، شارع السوق مغلق منذ هذه الليلة. يلوح أن ثم ميتين في الحيّ القديم، وثلاثة آخرين في المستشفى على وشك الموت.

جاليليو : مرة أخرى كتموا عنا كل شيء حتى آخر لحظة.

السيدة سارتي : (وهي تدخل) ماذا أتى بك هاهنا؟

فرجينيا : يوجد طاعون.

السيدة سارتي يا إلهي! سأذهب لحزم الأمتعة.

(تجلس)

جاليليو : لا، لا تحزمي أمتعة! خذي فرجينيا وأندريا. وسأقوم أنا بأرصادي. (يعود بسرعة إلى مكتبه ويجمع أوراقه بلهفة. السيدة سارتي تُلبس أندريا معطفا، وهذا يصل مهرعا، ويخرج ويحضر بعض الأغطية والزاد. يدخل خادم الدوق الكبير)

الخادم : نظرا إلى انتشار الوباء، غادر صاحب السّمو المدينة متجها شطر بولونيا. لكنه حرص على تمكين السيد جالليو من أن يكون في أمان. ستكون العربة أمام الباب بعد دقيقتين.

السيدة سارتي : (موجهة الخطاب إلى فرجينيا وأندريا) اخرجا حالا. احمل هذا!!

أندريا : لماذا؟ إذا لم تقولي لي لماذا، فلن أرحل.

السيدة سارتي : يوجد طاعون، يا بني.

فرجينيا : نريد انتظار الوالد.

السيدة سارتي : يا سيد جالليو، هل انتهيت؟

جالليو : (واضعا المقراب في الغلاف) أجلسي فرجينيا وأندريا في العربة. وأنا قادم فورا.

فرجينيا لا. لن نخرج من هنا بدونك. لن تنتهي أبدا إذا أخذت في حزم كتبك.

السيدة سارتي العربة حضرت.

جالليو كوني عاقلة يافرجينيا: إذا لم تأخذي مكانك في العربة، فسيرحل السواق. والطاعون وباء خطير.

فرجينيا : (وهي تحتج بينما السيدة سارتي تقتادها هي وأندريا) ساعديه في حزم كتبه، وإلا فلن يحضر.

السيدة سارتي : (عند المدخل، وهي تصيح) يا سيد جالليو! السواق يقول إنه لن ينتظر.

جالليو : يا سيدة سارتي! أعتقد أنه يجب عليّ ألا أرحل. فكل شيء مختلط، ثلاثة أشهر من تدوين مذكرات، لن يكون فيها فائدة إذا لم أستمر في العمل ليلة أو ليلتين أخريين. ثم إن هذا المرض منتشر في كل مكان.

السيدة سارتي : يا سيد جالليو! تعال معنا في الحال. لقد فقدت صوابك.

جالليو : عليك أن ترحلي مع فرجينيا وأندريا. وسأحضر فيما بعد.

السيدة سارتي : بعد ساعة لن يسمحوا لأحد بالرحيل. عليك بالحضور! (تتسمع) إنه مضى. يجب عليّ أن ألحق به.

(تخرج. جالليو يتجول في الغرفة. تعود السيدة سارتي، شاحبة جدا، وبدون لفّتها)

جالليو : ماذا تنتظرين؟ العربة وفيها الولدان سترحل من دونك.

السيدة سارتي : لقد رحلوا. أرادت فرجينيا أن تقفز من العربة، وكان لا بد من الإمساك بها بالقوة. في بولونيا سيجد الولدان العناية. أما أنت، فمن الذي سيهيئ لك الطعام؟

جالليو : هل فقدت عقلك؟.. تبقين في هذه المدينة لمجرد طهو الطعام! (يلوح بمذكراته) لا تظني يا سيدة سارتي أنني مجنون. سأستطيع أن أترك هذه الأرصاد على حالها. إن لي أعداء أقوياء جدا، ولا بد لي من تحصيل البراهين على أشياء أقررها.

السيدة سارتي : لست في حاجة إلى الاعتذار. لكن ما تفعله ليس من العقل في شيء.

(ب)

(أمام بيت جالليو في فيرنتسه. يخرج جالليو ويلقي نظرة صوب أسفل الشارع. تمر راهبتان)

جالليو : (مخاطبا إياهما) هل تستطيعان. يا أختيَّ، أن تخبراني أين أستطيع الحصول على خبز؟ لم تأت بائعة اللبن في هذا الصباح، وخادمتي رحلت.

إحدى الراهبتين : فقط في أسفل المدينة توجد بعض المحلات المفتوحة.

الراهبة الأخرى : أنت خارج من هذا البيت؟ (جالليو يشير بنعم) إنه في هذا الشارع!

(الراهبتان ترسمان علامة الصليب، وهما ترطنان بنشيد «سلام لك يا مريم» وتهربان. يمر رجل)

جالليو (مخاطبا إياه) هل أنت الخبّاز الذي يأتي إلينا بالخبز الأبيض؟ (الرجل يشير بنعم) هل رأيت خادمتي؟ إنها لا بد رحلت بالأمس. لم تكن موجودة هذا الصباح. (الرجل يهز رأسه. نافذة تفتح من الجانب الآخر من الشارع. امرأة تطل برأسها، وتنظر)

المرأة : (صائحة) امش بسرعة! عندهم طاعون!

(الرجل يهرب فزعا)

جالليو : هل تعلمين شيئا عن خادمتي؟

المرأة : خادمتك وقعت هكذا دفعة واحدة، في أعلى الشارع. ولا بد أنها كانت تعرف ماذا أصابها. ولهذا رحلت. لم تفكر قط في غيرها!

(تغلق النافذة بعنف. أولاد يأتون من أقصى الشارع. يشاهدون جالليو فيهربون صارخين. جالليو ينحرف. في هذه اللحظة يأتي جنديان بسلاح كامل)

الجنديان ادخل فورا في بيتك.

(برمحيهما الطويلين يدفعان جالليو إلى داخل بيته. ويصفقان الباب خلفه)

جالليو : (من النافذة) هل تستطيعان أن تخبراني ماذا فعلوا بتلك المرأة؟

الجنديان : هم يُدَفَنون في المقبرة المشتركة.

المرأة : (وقد أطلت من النافذة من جديد) لكن مادام الشارع الخلفي مملوءا بالطاعون!... ماذا تنتظران لإغلاقه؟ (الجنديان يمدان حبلا في عرض الشارع) لكن بهذه الطريقة لن يستطيع أحد الدخول. أنتم لا حاجة بكم إلى إغلاق الشارع هنا. الناس جميعا هنا في صحة جيدة. توقفوا توقفوا! اسمعوا. زوجي في المدينة، ولن يستطيع إذن العودة إلى البيت. متوحشون، شرذمة من المتوحشين!

(تُسمع في الداخل أنّات وصيحات. يمضي الجنديان. من نافذة أخرى تطل امرأة عجوز)

جالليو هناك في الخلف نار، من غير شك.

المرأة العجوز	الآن، حين يظنون أنه يوجد طاعون فإنهم لا يطفئون النار. الفكرة الوحيدة عندهم الآن هي الطاعون.
جالليو	هــذه طريقتهم! وكل نظام حكومتهم هكــذا! إنهم يقضون علينا كمــا يُقضى على الغصن المريض في شــجرة التين، الغصن الذي لا يعود يثمر.
المرأة العجوز	لا ينبغي التكلم هكذا. إنهم فقط لا يعرفون ماذا يعملون.
جالليو	هل أنت وحدك في بيتك؟
المرأة العجوز	نعم. ابني بعث إليّ بكلمة. والحمد لله أنه بالأمس عرف في الوقت المناسب أن شخصا قد مات في الشارع الخلفي، لهذا لم يعد. في هذه الليلة كان في الحي إحدى عشرة حالة.
جالليو	إني ألوم نفســي لأنني لم أرحِّــل خادمتي حين كان لايزال في الوقت متســع. كان عندي عمل مستعجل، ولكن لم يكن لديها أي داع للبقاء.
المرأة العجوز	علــى كل حــال، لا نســتطيع نحن أيضــا أن نرحل. إذ من هو الذي ســيرحب بنا؟ لا داعي للوم نفســك. إنها رحلت في هذا الصباح، نحو الســاعة السابعة. ولا بد أنها كانت مريضة: فإنها لما رأتني أخرج لآخذ الخبز، تَجَنَّبَتْني. وأظن أنها كانت تريد ألا يطوق بيتك. لكنهم ينتهي بهم الأمر إلى أن يعرفوا.
	(يُسمع قرع طبول)
جالليو	ما هذا؟
المرأة العجوز	إنهم يحدثــون ضوضاء من أجل إبعــاد الغيوم التي تحمل جراثيم الطاعون.
	(قهقهة عالية من جالليو) ومع هذا أنت تضحك!
	(رجل ينزل الشارع ويجده مسدودا)

جالليو	يا رجل! كل شـــيء هنا مطوّق، وليس في البيت شيء يؤكل.
	(اختفى الرجل وهو يعدو)
	يا ناس، يا ناس! لا تدعونا نموت من الجوع هنا.
المرأة العجوز	ربما أحضروا شـــيئا. وإلا ففي وسـعي أن أضع أمام بابك قـدرا من اللّبن إذا لم يكن هـذا ليروعك، ولكن ليس قبل مجيء الليل.
جالليو	يـا ناس، يـا نـاس! لكن ليـس مـن المعقـول ألا يكونوا يسمعوننا.
	(عند الجانب الآخر من الحبل يظهر أندريا فجأة ويرى من وجهه أنه بكى)
جالليو	يا أندريا؟ كيف استطعت المجيء إلى هنا؟
أندريا	لقد مررت في هذا الصباح، وقرعت الباب ولكنك لم تفتح. والناس قالوا لي...
جالليو	إذن أنت لم تكن رحلت؟
أندريا	بلـى، لكني في أثناء الطريق أفلحت في الوثوب من العربة. غير أن فرجينيا بقيت فيها، ألا أستطيع الدخول؟
المرأة العجوز	كلا، ليس هذا ممكنا. لا بد لك أن تذهب إلى دير الراهبات الأرسوليات. وربما كانت أمك هناك.
أندريا	لقد ذهبت إلى هناك. لكن منعوني من رؤيتها. إنها مريضة جدا.
جالليو	لقد جئـت من مكان بعيـد جدا؟ لأنك رحلـت منذ ثلاثة أيام.
أندريا	لا تغضـب مني إذا كنت قد أمضيـت كل هذا الوقت. ذلك أنهم أوقفوني مرة في الطريق.

جالليو (متضايقــا) يجــب عليك أن تكــف عن البــكاء الآن. لقد اكتشــفت الكثير من الأشــياء منذ رحيلك. هل أحكي لك؟ (أندريا، وهو يتنهد، يهز رأسه علامة الموافقة) انتبه جيدا، وإلا فما استطعت الفهم، أتذكر أنني أريتك كوكب الزهرة؟ لا تستمع إلى الضجة التي هناك، إنها ليست بشيء.

أتذكر؟ أتعرف ما رأيته؟ إنها مثل القمر. لقد شاهدتها على شكل نصف كرة، وشاهدتها على شكل هلال. فما رأيك في هذا؟ وبوســعي أن أريك هذا بواسطة كرة صغيرة ومصدر ضوء. وهذا دليل على أن هذا الكوكب لا يســتمد نوره من ذاته. أليس هذا مدهشا؟

أندريا (متنهدا) بالتأكيد، ثم إن هذه حقيقة.

جالليو (بصــوت خفيض) لســت أنا الــذي طلبت إليهــا أن تبقى (أندريا لا يجيب) لكن من المؤكد أنه لو لم أبق أنا، لما حدث ما حدث.

أندريا والآن، هل سيضطرون إلى تصديقك.

جالليو الآن، جمعــت كل الأدلــة. حينمــا تنتهــي هــذه الحكاية، ســأذهب إلى روما لأقدم إليهم الأدلة. (من أقصى الشارع يأتي رجلان يلبســان برنسا ومعهما عصوان وجرادل. ومن النوافذ يقدمان إلى جاللیو، ثم إلى المرأة العجوز خبزا على أطراف عصواهما)

المرأة العجوز هنــاك في البيت المواجــه توجد امــرأة وأولادها الثلاثة. اتركوا لهم شيئا.

جالليو أما أنــا فليس عنــدي ما أشــربه. ليس فــي البيت ماء. (الرجلان يهزان أكتافهما) هل ستأتيان غدا أيضا؟

أحد الرجلين (بصوت محتبس، بســبب الشــاش الموجود أمام فمه) هل يعرف أحد ماذا سيحدث غدا؟

جالليو : لو جئتما فهل تستطيعان أن تحضرا إلي كتابا صغيرا أحتاج إليه في بحثي؟

الرجل : (بضحكـــة مختنقة) يريد كتابـــا! احمد ربك إذا جيء إليك بخبز!

جالليو : لكن هذا الصبي هناك، وهو تلميذي، ســـيكون موجودا وما عليـــك إلا أن تعطيـــه الكتاب من أجلـــي. إنه خريطة مبين فيها مدة دورة عطارد، يا أندريا، ولا أدري أين وضعته. هل تحضره من المدرسة؟ (الرجلان رحلا)

أندريا : بالتأكيد، سأذهب لإحضاره يا سيد جالليو.

(يخـــرج. جالليو ينصرف. من المنـــزل المواجه تخرج المرأة العجوز وتضع أمام باب جالليو كوزا)

* * *

(٦)

(سـنة ١٦١٦: الكليـة الرومانية، وهي معهـد أبحاث في الفاتيكان، تؤيد اكتشافات جاليليو.

في هذا العالم ما أندر

أن يقبل شيخ يتعلم.

كلافيوسُ، المخلص للّه

قد أعطى الحق لجاليليو.

قاعة في الكلية الرومانية بروما. الوقت ليل. جماعات من كبار رجـال الكهنوت ومن الرهبـان والعلماء. وفي ناحية: جاليليو وحده. يسـود الجوَّ سرور غامر. قبل بداية المنظر، تسمع قهقهات)

كاهن بدين (وهو يمسـك بجنبيه) يا للبلاهة! يا للبلاهة السعيدة! أود أن يخبرني أحد بقول واحد لم يجد من يصدّقه.

عالم : هذا القول مثلا يا صاحب النيافة: إنك تكره أطايب الطعام كراهية شديدة.

الكاهن البدين : هنـاك من يصدقون ذلك، وسـيوجد مـن يصدقون ذلك. فقط الأشـياء المعقولة هي التي لا يصدقها الناس. وجود الشـيطان، يشـك فيه الناس، أمـا أن الأرض تدور حول نفسـها مثل سدادة في مجرى فهذا يصدقونه. يا للبساطة المقدسة!

راهب : (يمثل دور المازح) الدوران يسـبب لـي دوارا. الأرض تدور بسرعة. يا أستاذ، اسمح لي أن أستند إليك!

(يتظاهر بأنه يترنح، ويمسك بعالم)

العالم (مقلدا إياه) آه، نعم، لاتزال سكرى، هذه العجوز العزيزة.

(يمسك بآخر)

الراهب	:	توقف! نحن ننخلع! توقف، قلت لك.
عالم ثان	:	ها هي ذي الزهرة مقلوبة. النجدة، لا أرى منها غير نصف مؤخرتها.
		(رهبـان يتلاصقـون، ويتضاحكـون، ويتظاهـرون بأنهم يتماسكون حتى لا يقعوا من سفينة عصفت بها العاصفة)
راهب ثان	:	بشـرط ألا يُلقَى بنا على القمر! يـا إخواني، يبدو أن فيه جبالا ذوات إبر مخيفة.
العالم الأول	:	ما عليك إلا أن تشد ساقك.
الراهب الأول		ولا تنظر إلى أسفل. الدوران يجعلني مريضا.
الكاهن البدين		(يرفع صوته عن قصدٍ متلفتا نحو جاليلو) دوران؟ دعك من هذا! لا أحد يقدر علىً أن يجعل الكلية الرومانية تدور!
		(ضحك. من باب في العمق يدخل فلكيان من أعضاء الكلية الرومانية. الكل يسكت)
راهب	:	امتحانكم طويل جدا! هذه فضيحة!
أحد الفلكيين	:	(متضايقا) امتحاننا نحن .. كيف؟
الفلكي الثاني	:	إلى أين سـيفضى بنا هذا؟ إني لا أفهم هذا الرجل الطيب كلافيوس. سـيكون عجبا أن نصدق كل ما قيل خلال هذه السـنوات الخمسين الأخيرة! في سنة ١٥٧٢ لمع نجم جديد في أعلى الأفلاك، الفلك الثامن، فلك الثوابت، وهو بالأحرى أشد لمعانا وأكبر من كل النجوم المجاورة، لكن لم تكد تمضي ثمانية عشـر شـهرا حتى اختفى من جديد وصار فريسة العدم. أهذا سبب للتساؤل: أين أزلية السماء وثباتها؟
الفيلسوف		لو تركناهم يعملون ما يشـاءون، فسينتهي بهم الأمر إلى أن يحطموا السماء ذات النجوم على رؤوسنا.
الفلكي الأول		نعـم، إلى أين نحـن ذاهبـون؟ بعد خمس سـنوات حدد تيشوبراهي، الفلكي الدنماركي، طريق نجم مذنّب. منشؤه

		تحت القمر، وقد خرق كل الأغلفة الفلكية الواحد تلو الآخر، وهذه الأغلفة هي الحوامل المادية لحركة الأجرام السماوية! لا مقاومة، ولا انحراف لضوئه. فهل هذا سبب للتساؤل: «أين الأفلاك الآن؟».
الفيلسوف		لكن هذا مستحيل! كيف يتأتى لكرستوفر كلافيوس، أعظم فلكي في إيطاليا وفي الكنيسة أن يتنازل لفحص هذه الترّهة؟
الكاهن البدين	:	هذه فضيحة؟
الفلكي الأول	:	على كل حال هو يفحصها. إنه يجلس هناك، ويفتح عينيه أمام هذه الأنبوبة الشيطانية.
الفلكي الثاني		هذا يناقض المبادئ! لا بد من خنق الشر وهو في البيضة. والأصل في هذا كله هو أننا منذ سنوات ونحن نحسب آلاف الأشياء، ومدة السنة الشمسية، وموعد كسوف الشمس وخسوف القمر، ومواقع الأجرام السماوية اعتمادا على لوحات كوبرنيكوس، مع أنه رجل مبتدع (هرطيق).
راهب	:	أريد أن أضع هذا السؤال: ما هو الأفضل؟ أن يحدث خسوف القمر بعد ثلاثة أيام من الموعد المذكور في التقويم، أو لا ننال النجاة الأبدية؟
راهب نحيف جدا	:	(يتقدم ومعه الكتاب المقدس مفتوحا، وبعصبية يربت على موضع منه بإصبعه) ماذا يقول الكتاب المقدس هاهنا؟: «قفي أيتها الشمس فوق جبعون، وأنت، أيها القمر، توقف على وادي عجلون». كيف يتأتى للسماء أن تتوقف إذا كانت لا تدور، كما يدعي هؤلاء المبتدعة؟ هل كذب الكتاب المقدس؟
الفلكي الثاني		هناك ظواهر أمرها مشكل علينا نحن الفلكيين، لكن هل من الضروري أن يفهم الإنسان كل شيء؟
		(يذهب الفلكيان)
الراهب		مكان ميلاد النوع الإنساني يريدون أن يضعوه في مرتبة كوكب جوّال. فالإنسان والحيوان والنبات والتربة التي تحمله

كل هذا يحمّلونه على عربة ويجعلونه يدور حول نفسه خلال سماء خاوية. الأرض والسماء لا يوجدان في نظر هؤلاء الناس. لم تعُد ثم أرض، لأنها جرم سماوي، ولم تعد ثم سماء، لأنها مؤلفة من أجرام مشابهة للأرض. ولم يعد ثم تمييز بين الأعلى والأسفل، بين السرمدي والزائل، أما أننا زائلون، فنحن نعرف ذلك. لكنهم يقولون لنا الآن إن السماء هي الأخرى زائلة. الشمس، والقمر، والنجوم ونحن، نحن مقيمون على الأرض: هذا ما كان يقال دائما، وما يقوله الكتاب المقدس. أما الآن فالأرض هي الأخرى جرم سماوي، تبعا لما يقوله هذا الرجل، لم يعد هناك غير أجرام سماوية. وسنرى اليوم الذي سيقولون فيه: «لا فارق بين الإنسان والحيوان، الإنسان هو نفسه حيوان، وليس ثم غير دواب».

(في أثناء هذه الخطبة أخرج جاليليو من جيبه حجرا، وراح يلعب به، ثم تركه يسقط)

العالم الأول : يا سيد جاليليو، لقد سقط منك شيء على الأرضية.

جاليليو : (وهو ينحني لالتقاط الحجر) على السقف، يا صاحب النيافة، لقد تركته يسقط على السقف.

الكاهن البدين : (ملتفتا) يا له من وقح!

(يدخل كردينال عجوز جدا، يستند إلى راهب، يُخلَى أمامه المكان باحترام)

الكردينال الهرم : ألايزالون في الداخل؟ ألا يستطيعون الإجهاز على هذه المسألة بسرعة، وهي مسألة غاية في التفاهة؟ كلافيوس هذا لا بد أنه يعرف الفلك جيدا. وبحسب ما قيل لي فإن السيد جاليليو هذا يزيح الإنسان من مركز الكون إلى أطراف لست أدري ما هي. إذن هو عدو للجنس البشري، وبشكل فاضح. ولا بد أن يعامل على أنه عدو. إن الإنسان تاج الخليقة، وفي وسع أي طفل أن يقرر هذا، وأسمى وأعز مخلوقات الله. مثل هذه الأعجوبة، ثمرة مثل هذا الجهد،

كيف يتسنى لله أن يلقي به على حصاة صغيرة تائهة، تركض باستمرار خلال السماء؟ أيرسل الله ابنه إلى مثل هذا المكان؟ وهل يمكن أن يوجد ناس فسدت عقولهم إلى حد أن يثقوا بعبيد ألواحهم الحسابية هؤلاء؟ أي مخلوق من مخلوقات اللّه يسمح لنفسه بأن يهان هكذا؟

الكاهن البدين : (هامسا) الرجل الذي تشير إليه موجود هنا في القاعة.

الكردينال الهرم : (مخاطبا جالليو) أهو أنت؟ اسمع: بصري ليس قويا، لكن ثم شيئا أراه: ذلك الشخص الذي أحرقناه منذ مدة، ما اسمه؟ إنك تشبهه شبها مدهشا.

الراهب يا صاحب النيافة. لا تتحمس هكذا. فإن الطبيب...

الكردينال الهرم (وهو يتخلص، يخاطب جالليو) أنت تريد أن تحط من قدر الأرض، مع أنك تعيش عليها وتدين لها بكل شيء. إنك تدنّس عشك. ولكني، على كل حال، لن أسمح لنفسي بأن أهان. (يزيح الراهب بعنف، ويأخذ في المشي باعتزاز رائحا جائيا) أنا لست أي شيء على تراب كوكب ما، أدور لمدة لحظة في مكان ما! أنا أمشي على أرض راسخة بخطىً ثابتة، والأرض لا تتحرك، بل هي النقطةً المركزية لكل ما هو موجود، وأنا في النقطة المركزية وعين الخالق ترعاني أنا وحدي. ومن حولي، النجوم الثابتة، ترسم دوائرها، وهي مثبتة في ثمانية أغلفة بلورية، والشمس الرائعة قد خلقت لإضاءة كل شيء حواليّ، وإنارتي أنا، حتى يستطيع اللّه أن يراني. إذن من الواضح وضوحا لا مجال أبدا لإنكاره أن كل شيء يتعلق بي، بي أنا الإنسان، ثمرة مجهود الله، أنا المخلوق المركزي، المصنوع على صورة الله، باق، و...
(ينهار)

الراهب صاحب النيافة قد وثق كثيرا بقواه.

(في هذه اللحظة يفتح الباب الذي في العمق. يدخل كلافيوس العظيم على رأس فلكييه. ومن دون أن ينطق

	بكلمـــة، ومن دون أن يلتفت برأســـه، يخترق القاعة بخطوة سريعة. وعلى وشك الخروج يقول لأحد الرهبان:
كلافيوس	صحيح.
	(يخرج، يتبعه الفلكيون. بـــاب العمق يظل مفتوحا. صمت تام. الكردينال الهرم يفيق)
الكردينال الهرم	ماذا؟ هل أصدروا قرارهم؟
	(لا يجرؤ أحد على الكلام)
الراهب	لا بد أن نصحب صاحب النيافة.
	(يقتاد الهـــرم إلى الباب الخارجي. الـــكل، وهم في حيرة تامـــة، يغادرون القاعة. راهب قصيـــر في لجنة كلافيوس يتوقف قرب جالليو)
الراهب القصير	(خلســـة) يا ســـيد جالليو، إن الأب كلافيـــوس قال قبل أن يرحـــل: «الآن على اللاهوتيين أن يعملوا على لصق كراتهم السماوية!». لقد كسبت أنت.
جالليو	(محاولا إيقافه) لم أكسب أنا، بل العقل هو الذي كسب.
	(الراهـــب القصير صار بعيدا. جالليـــو بدوره يرحل. على عتبـــة الباب يلتقـــي كاهنا كبيـــرا، هو الكردينـــال المكلف بالتفتيـــش. يصحبه فلكي. جالليـــو ينحني، وقبل أن يخرج يهمس بالسؤال للحاجب)
الحاجب	(مجيبا باللهجة نفســـها) صاحب النيافـــة الكردينال كبير المكلفين بالتفتيش.
	(الفلكي يقود الكردينال إلى المقراب)

* * *

(٧)

(لكن محكمــة التفتيش تقرر حرمان نظام كوبرنيكوس في
٥ مارس سنة ١٦١٦
في روما كان جَلِلّيو
ضيفا في قصر نيافته
بالأكل الفاخر والخمر
نفحوه، مقابل هيّنة
قصــر الكردينال بِلّرمــين(*) في روما. حفلــة راقصة في أوجها. في الدهليز، حيث كاتبان دينيان يلعبان بالشطرنج، ويكتبان ملاحظات عن المدعوين، جالليو يُتَلَقّى بتصفيق من جماعة صغيرة من الســيدات والســادة اللابسين الأقنعة. تصحبه ابنته فرجينيا وخطيبها لودفكو مرسيلي)

فرجينيا : لن أرقص إلا معك، يا لودفكو.

لودفكو : دبّوس الكتف غير محكم.

جالليو : «دعِي الغلالة، يــا تاييس، تنزلق. لا تعدليها، ففي إخلالها فــتن للراقصين في ضوء الشــموع، ولي تدعــو إلى ظلمة الأَيكات والظّلَل»

فرجينيا : تحسّس قلبي.

جالليو : (واضعا يده على قلبها) إنه يخفق.

فرجينيا : أود أن أبدو جميلة.

جالليو : بأي ثمن، وإلا فسيكفون عن تصديق أن الأرض تدور.

(*) روبرت بلرمين. Robert Bellarmin (١٥٤٢ – ١٦٢١): يسوعي، عُين في سنة ١٥٩٢ مديرا للكلية الرومانية في روما، وصار في سنة ١٥٩٩ كردينالا. وفي سنة ١٦٣٠ رسم قديسا. وله كتاب أثار مساجلات شديدة، عنوانه: «مناقشات حول الشُبه المواجهة ضد العقيدة المسيحية». وذلك ردا على المبتدعة في هذا العصر.

لودفكو : لكنــك تعلم جيدا أنها لا تــدور. (جالليو يضحك) روما لم تكن تتحدث إلا عنك. ولكن ابتداء من هذا المساء فسيكون الحديث، يا سيدي، عن ابنتك.

جالليو : يقولــون إنه ليس من الصعب أن يبدو المرء جميلا في روما إبــان فصل الربيــع. وحتى الآن تبدو علــيّ هيئة أدونيس، مع شــيء من الكرش. (للكاتبــين) طلبوا إليّ أن أنتظر هنا صاحب النيافة. (لفرجينيا ولودفكو) اذهبا، واستمتعا.

(يذهبان للاشــتراك في الرقص من بــاب العمق. ثم تعود فرجينيا مسرعة)

فرجينيا يا أبي، حلاّق شــارع النصر حلق لي قبل غيري وترك أربع سيدات جميلات ينتظرن. لقد تَعَرّف اسمَك في الحال.

(تخرج)

جالليو (وهو ينظر إلى الكاتبين يلعبان الشطرنج) كيــف لاتزالان تلعبــان الشــطرنج على الطريقــة القديمــة؟ المجال فيها محدود. هاكما كيف يُلعب اليوم: تُجْرَى الحجارةُ على طول ساحة الشــطرنج، الطابية هكذا (يمثل بحركة)، والمجنون هكذا، والملكــة هكذا، وهكذا. بهذا يتســع المجال، ويمكن تركيب عمليات وخطط.

أحد الكاتبين : هذا ليس في متناول مرتباتنا. نحن لا نســتطيع إلا نقلات خفيفة.

(ينقل حجرا من خانة)

جالليو : بالعكس يا صاحبي، بالعكس! لو عشت على قدم كبيرة، دفعوا لك ثمن أحذية طويلة. لا بد من التماشي مع الزمن، يا سادة. كفوا عن مساحلة الشواطئ، واندفعوا في عُرْض البحر.

(الكردينــال الهرم يخترق المســرح، بصحبــة راهب. يلمح جالليــو، يمر بالقرب منه، ثم يلتفت، وعليه أمارات التردد، ويحيــي. يجلس جالليــو. ومن قاعة الرقــص يصل مطلع

القصيدة(*) المشهورة التي ألفها لورنتسو الماجد، لورنتسو دي مدتشي، وهي قصيدة في أن كل شيء مآله الزوال، ويغنيها صبيان:

الصبيان : (يغنون)

أنا من رأيت الورد يذبل أو يموت

أوراقه النضرات يلحقها الذبول

وعلى تراب البرد شاحبة، فقلت:

كمْ خادعٌ صَلَفُ الشباب!

جالليو : روما. حفلة عظيمة؟

الكاتب : هذا أول كرنفال بعد سنوات الطاعون. كل البيوتات الكبيرة في إيطاليا ممثلة هذا المساء: آل فلاّني، آل نوكولي، آل سولدانييري، آل كاني، آل لكيّ، آل استتسي، آل كولومبيني...

الكاتب الثاني : (مقاطعا إياه) صاحبا النيافة، الكردينال بلرمين والكردينال بربريني.

(يدخل الكردينال بلّرمين، والكردينال بربريني وبواسطة يد يمسكان أمام وجهيهما بقناع خروف وقناع حمامة)

بربريني : (مشيرا بالسبابة إلى جالليو) «الشمس تشرق ثم ترحل عائدة إلى مكانها».

هكذا قال سُلَيْمان، فما قولك يا جالليو؟

جالليو : حينما لم أكن أطول من هكذا (حركة بيده)، يا صاحب النيافة، كنت على سفينة فصحت قائلا: «الشاطئ يتحرك!». واليوم أنا أعلم أن الشاطئ كان ساكنا، وأن السفينة هي التي كانت تتحرك.

(*) هي قصيدة كورنتو Corinto.

بريريني	:	لا بأس، لا بأس. ما يشاهد، يا بلّرمين، مثلا قبة السماء التي تدور، ليس من الضروري أن يكون صحيحا، كما في مثل السفينة والشاطئ... لكن ما هو صحيح، مثل أن الأرض تدور، هذا ما لا يمكن أن يشاهد. لا بأس! وفي تلك الأثناء فإن توابع المشتري ستتحطم عليها أسنان الفلكيين. كان من سوء حظي، يا بلّرمين، أن أدرس شيئا من علم الفلك. إنه يلتصق بالجلد مثل الجرب.
بلّرمين	:	لنمش مع زماننا، يا بريريني. إذا كانت الخرائط السماوية المبنية على أساس افتراض جديد من شأنها أن تجعل الملاحة أسهل على بحّارتنا، فمن رأيي أنه لا بأس عليهم من استخدامها. لكن الشيء الذي لا نحبه هو الآراء التي تُكَذّب الكتاب المقدس.
		(يحيي بيده في اتجاه قاعة الرقص)
جالليو		الكتاب المقدس؟ «من يحتفظ بحَبّته، يلعنه الناس»، (هكذا تقول) أمثال سليمان.
بريريني	:	«الرجل العاقل يستر علمه» (هكذا تقول) أمثال سليمان.
جالليو	:	«أينما تكن الثيران تكن القذارة. لكن قوة الثيران فيها فائدة كبيرة».
بريريني	:	«من يكبح عقله أفضلُ ممن يستولي على المدن».
جالليو	:	«لكن حين تضعف الروح، يجف نخاع العظام». (بعد برهة صمت) «أوَ لا يرفع الحق صوته؟».
بريريني		«أيمكن المرء أن يمشي على فحم متقد من دون أن تحترق قدمه؟». مرحبا بك في روما، يا عزيزي جالليو. هل تعرف تاريخ نشأتها؟ تقول الخرافة إن طفلين تلقيا الغذاء والسكن من ذئبة. ومنذ ذلك اليوم، فإن على كل أبنائها أن يدفعوا للذئبة ثمن اللبن الذي يشربونه. وفي مقابل ذلك فإن الذئبة تهيئ كل ألوان اللذات، السماوية منها والأرضية:

من مناقشـــة صديقي العلامة بلرّمـــين، حتى ثلاث أو أربع غوان ذوات شهرة دولية. هل تريد أن أعرفك بهنّ.

(يقتاد جالليو إلى الداخل ليرى قاعة الرقص. جالليو يتبعه كارها)

بريريني : ألا تريد حقا؟ تودّ مناقشـــة جـــادة. ليكن! هل أنت واثق، يا عزيزي جالليو، إنكم معشـــر الفلكيين، لا تَسْعون إلى مجرد تسهيل الأمور؟ (يقتاده إلى مقدم المسرح) في نظرك الأمر كله يرجع إلى دوائر أو قطاع ناقصة، وسـرعات منتظمة، وبالجملة إلى حركات بسيطة، متصورة على صورة عقلك. لكن لو كان الله قد شـــاء أن يحرّك نجومه هكذا؟ (بإصبعه يرســـم في الهواء شـــكلا غاية في التعقيـــد، وذلك بتغيير سرعة الحركة) فماذا عسى ستكون قيمة حساباتكم؟

جالليو يا صاحب الســـيادة! لو كان الله قد بنى العالم هكذا (يكرر الحركة التي رسمها بريريني)، لكان أيضا قد بنى أمخاخنا هكذا (يكرر الحركة نفســـها)، بحيث يكون هذا المسار هو أبسط المسارات. إن لي في العقل ثقة.

بريريني : أنا أرى أن للعقل حدودا. إنه لا يقول شيئا. إنه من الاحتشام بحيث لا يريد أن يجيب بأن عقلي أيضا له حدود.

(يضحك ويعود إلى الشرفة)

بلّرمين : العقـــل، يا صديقي العزيز، لا يذهب بعيـــدا. ونحن لا نرى من حولنا غير الاشتباه والشر والضعف. فأين الحق في هذا كله؟

جالليو : (بغضب) إني أثق بالعقل.

بريريني (مخاطبا السكرتيرين) لا، لا، لا تسجلا شيئا، هذا حديث بين أصدقاء في موضوع علمي.

بلّرمين فكـــر فيما اقتضاه آباء الكنيســـة وآخرون كثيرون من جهد وتأمل لإدخال بعض المعنى في مثل هذا العالم (أتجادل في أنـــه عالم فظيع؟). فكر في وحشـــية أولئك الذين يجعلون

الفلاحـــين وهم نصف عــراة يركضون فـــي مزارعهم في مقاطعة كمبانيا والســياط تلسع ظهورهم، فكّر في بلاهة هؤلاء المساكين الذين يقبلون أقدامهم شكرا لهم.

جاليليو: هذا عار! وأنا قادم إلى هنا، شاهدت...

بلّرمين: كان لا بــد أن نعــزو حكمة إلى مثل هـــذه الظواهر التي لا نفهمها (وهي مادة الوجود نفســها) لهذا أحلنا مسؤوليتها على موجود فوقنا، وقلنا إنها تخدم غرضا محددا، وإن كل شيء يتم وفقا لخطة رائعة، لا لأن هذا قد أعاد الطمأنينة إلى النفوس، لكنكــم الآن تتهمون هذا الموجود الأعلى بأنه ليــس لديه أفــكار واضحة عن حركات العالم الســماوي، بينمـــا أنتم لديكم عنه أفكار واضحة كل الوضوح فهل هذا إنصاف؟

جاليليو: (شارعا في التفسير) أنا ابن للكنيسة مطيع...

بربريني: هذا رجل مخيف حقا! إنه يريد، بكل براءة، أن يقرر أن الله هو الذي ارتكب أسوأ الأخطاء في علم الفلك. والخلاصة: هل الله لم يدرس فلكه بعناية قبل أن يؤلف الكتاب المقدّس؟ يا صاحبي!

بلّرمين: ألا يقول لك الاحتمال، لك أنت، أن الخالق لا بد يعرف عن خليقته خيرا مما يعرف المخلوقون؟

جاليليو: لكن، يا ســادة، في وسع الإنســان أن يسيء تفسير الكتاب المقدس، وحركة الأفلاك معا.

بلّرمين: لكن طريقة تفســير الكتاب المقدس: هذا ميدان يرجع في نهايــة الأمر إلـــى اللاهوتيين التابعين إلى أمنا المقدســة: الكنيسة. هل نحن متفقون على هذا؟ (جاليليو يصمت) أنت ترى جيدا: هاأنت ذا تســكت. (يوجه إشارة إلى الكاتبين) يا ســيد جاليليو! إن الديوان المقدس قرر في هذه الليلة أن نظام كوبرنيكوس - الذي يجعل من الشــمس المركز الثابت

للعالم، بينما الأرض متحركة وليست مركز العالم - هو رأي أحمق غير معقول، مبتدع، ويسيء إلى الإيمان. وأنا مكلف بتحذيرك كي تتخلى عن هذا الرأي. (مخاطبا الكاتب) أعِدْ ما قلتُه.

الكاتب : أبلغ صاحب النيافة الكردينال بلرمين المذكور أعلاه جالليو جاليلاي أن «الديوان المقدس قرر أن نظام كوبرنيكوس- الذي يجعل من الشمس المركز الثابت للعالم، بينما الأرض متحركة وليست مركز العالم - هو رأي أحمق، غير معقول، مبتدع، ويسيء إلى الإيمان. وأنا مكلف بتحذيرك كي تتخلى عن هذا الرأي».

جالليو : ما معنى هذا؟

(من قاعة الرقص تسمع مقطوعة أخرى من القصيدة تنشدها جوقة من الصبيان)

الصبيان : (يغنون)

قلتُ: أبهى العُمْرِ يمضي وبسرعة

فاقطفِ الوردَة إبّان الربيعْ

(بربريني يشير على جالليو بالسكوت حتى ينتهي الغناء. يصغون)

جالليو : لكن الوقائع؟ لقد فهمت أن الفلكيين في الكلية الرومانية قد اعترفوا بأن أرصادي صحيحة.

بلّرمين : وعبّروا عن رضاهم العميق بعبارات كلها إطراء لك.

جالليو : لكن توابع المشتري؟ وأطوار الزهرة؟

بلّرمين : إن المجمع المقدس جدا لما قرر قراره لم يأخذ في حسابه هذه الاعتبارات الخاصة.

جالليو : ومعنى هذا أن كل بحث علمي من الآن فصاعدا ...

بلّرمين : مكفول تماما، يا سيد جالليو. وهذا يوافق مذهب الكنيسة

الـــذي يقول اننا عاجـــزون عن المعرفة، لكـــن البحث مباح لنــــا. (يحيي لحظةً أحد المدعويـــن في قاعة الرقص) هذا النظام، شأنه شأن أي نظام آخر، لك مطلق الحرية في أن تبحث فيه على شـــكل افتراض رياضي. إن العلم هو الابن الشرعي والحبيب للكنيسة، يا ســـيد جالليو. ولا أحد منا يفترض جديا أنك تريـــد أن تقضي على الثقة التي يوليها الناس للكنيسة.

جالليو : (متضايقا) إن الثقة تفنى من كثرة الالتجاء إليها.

بريريني : آه، هكذا؟ (يربّت على كتفه وهو يقهقه. ثم ينظر إليه بتعال ويخاطبه بشـــيء من التودد) لا تَرْمِ الطفلَ مع ماء الحوض، يا عزيزي جالليو. وهذا أيضا ليسَ من شـــيمتنا. إننا أحوج إليك منك إلينا.

بلّرمين إنني أتحرق إلى تقديم أكبر رياضي في إيطاليا إلى مندوب الديوان المقدس الذي يحمل لك أعلى التقدير.

بريريني : (ممســـكا بالذراع الأخـــرى لجالليو) بهـــذه الكلمات صار حمَـــلا وديعا. وأنت، يا عزيـــزي، للظهور هنا كان عليك أن تتخفى في زي مفســـر بريء للحقائق المقررة. وقناعي هو الذي يخول لي اليوم بعض الحرية. في هذا الزي تستطيع أن تســـمعني أهمس قائلا: «لو لـــم يوجد الرب لكان علينا اختراعه». والآن فلتســـتعد القناع. يا لجالليو المسكين، إنه لا يلبس قناعا.

(يحيطان بجالليو ويقتادانه إلى قاعة الرقص)

الكاتب الأول هل سجلت الجملة الأخيرة؟

الكاتب الثاني أنا بصددها. (يكتبان بانشـــغال شديد) هل سجلت الجملة التي قال فيها إنه يثق بالعقل؟

(يدخل الكردينال كبير محكمة التفتيش)

كبير المحكمة هل جرت هذه المحادثة؟

الكاتب : (كأنه إنسان آلي) أولا السيد جالليو جاء مع ابنته. وهذه خطبت اليوم إلى السيد... (كبير محكمة التفتيش يقطع كلامه بحركة منه) ثم إن السيد جالليو أخبرنا بالطريقة الجديدة للّعب بالشطرنج، وهذه الطريقة تخالف كل القواعد، وفيها الأحجار تحرَّك خلال كل لوحة الشطرنج.

كبير المحكمة : (مقاطعا) المحضر!

(الكاتب يقدم إليه المحضر. يجلس الكردينال لتصفُّحه. سيدتان شابتان مُقنّعتان تخترقان المسرح، وتنحنيان انحناءة خفيفة حين مرورهما أمام الكردينال)

إحداهما من هذا؟

الأخرى الكردينال كبير محكمة التفتيش.

(تمضيان وهما تحاولان كتم ضحكة شديدة. تدخل فرجينيا، تتلفت حواليها باحثة عن شخص)

كبير المحكمة : (وهو في زاوية) ماذا يا ابنتي؟

فرجينيا : (ولم تكن قد أبصرته، تقفز مفزعة) أوه، يا صاحب السيادة!

(كبير محكمة التفتيش، من دون أن يرفع بصره، يقدم إليها يده اليمنى. فرجينيا تقترب، وتركع وتقبّل الخاتم)

كبير المحكمة : ليلة رائعة. اسمحي لي بأن أتقدم إليك بالتهاني بمناسبة خطبتك. خطيبك من أسرة عظيمة. هل ستبقين عندنا؟

فرجينيا : ليس في الحال، يا صاحب السيادة. هناك الكثير من الاستعدادات للزواج.

كبير المحكمة : إذن سترحلين إلى فيرنتسه مع السيد والدك. أنا سعيد لهذا كل السعادة. وأتصور أن السيد والدك في حاجة شديدة إليك. والرياضة رفيقة عبوس، أليس كذلك؟ في مثل هذا الجو فإن مخلوقة مملوءة بالحياة كفيلة بتغيير كثير من الأشياء. ومن السهل جدا أن يضل المرء في كل هذه العوالم

السماوية، التي تبدو شاسعة، حين يكون المرء عقلا كبيرا.

فرجينيا : (وقـد خنقها الانفعال) كم أنت كريم، يا صاحب السيادة! إني كما تعرف لا أفهم شيئا تقريبا في هذه الأمور.

كبير المحكمة : حقا؟ (يضحك) أسرة صانع الحلوى لا تأكل الفطائر، أليس كذلك؟ وسيُسَر السيد والدك أن يعلم أنني أنا، يا بنيتي العزيزة، الذي علمك ما تعلمين عن العوالم السماوية. (وهو يتصفح المحضر) أرى هاهنا أنه تبعا لرأي المجددين المحدثين، ووالدك هو زعيمهم المعترف به في كل مكان، وهو عقل كبير من بين كبار العقول، فإن تصوراتنا الحالية لأهمية أرضنا العتيقة العزيزة مبالغ فيها. ومنذ عصر بطلميوس، وهو حكيم قديم، حتى يوم الناس هذا، كان يقدر مجموع الخليقة، أعني مجموع كرة البلّور التي فيها تحتل الأرض المركز، بنحو عشرين ألف مرة قطر الأرض. وهي مساحات جميلة، لكنها في نظر هؤلاء المجددين صغيرة جدا. وفي نظرهم أن الكون أوسع بكثير جدا، وأن المسافة بين الأرض والشمس، وهي مسافة محترمة جدا، فيما كان يبدو لنا، صارت بهذا ضئيلة جدا جدا إذا ما قورنت بالمسافة التي تفصل بين أرضنا المسكينة وبين النجوم الثابتة في الغلاف الأقصى، بحيث يمكن إسقاطها من حساباتنا! وهنا ينبغي أن نقول إن المجددين لا يعيشون على قدم كبيرة.

(فرجينيا تضحك، وكذلك يضحك كبير محكمة التفتيش)

كبير المحكمة (مواصلا كلامه) والواقع أن مثل هذه الصورة للعالم، تبدو بالنسبة إليها تلك التي نقر بها حتى الآن مجرد صورة مصغرة جدا، لا تصلح إلا لتزيين جِيد جميل مثل جيد بعض الفتيات، ولهذا فإن هذه الصورة للعالم، قد أثارت ثائرة الأعضاء البارزين في الديوان المقدس. إنهم يخشون أن يضل السبيل في هذه المساحات الشاسعة أحد الكهنة

أو أحد الكرادلة أنفسهم. بل البابا نفسه، بكل سلطانه، قد يضـــل في مثل هذا النظام. نعم، في هذا ما يثير الضحك، لكني مع ذلك سعيد بأن أراك في كنف أبيك العظيم، الذي نُكِـــنّ له جميعــا كلّ احترام، يا بنتي العزيزة. وأنا أســـائل نفسي عما إذا كنت أعرف من يتلقى منك الاعتراف...

فرجينيا : الأب كرستوفورو، في كنيسة القديسة أورسولا.

كبير المحكمة : نعم، أنا ســعيد جــدا أن أعلم أنك ســتكونين في صحبة والدك. إنه في حاجة إليك، ربما يصعب عليك أن تتصوري السبب في هــذا، لكــن سيأتي اليـوم عاجـلا أو آجـلا. أنت لاتزالين صغيرة، مملوءة بالحيوية، وليس من الســهل دائما تحمل العظمة بالنســبة إلى أولئك الذين وهبهم الله إياها. لا، ليس من الســهل دائما. لا، مهما يكن عظيما، فإنه في حاجة إلـــى الدعاء .. أليس كذلك؟ ولكــن هـأنذا أعوقك، يا بنيتــي العزيزة، وأثير الغيرة في نفــس خطيبك، وربما أيضا في نفس أبيك، وأنا أحدثك عن النجوم بعبارات ربما صارت عتيقة، وهذه هي الطامّة الكبرى. عودي لاستئناف الرقص بسرعة، لكن لا تنسي أن تحيي باسمي الأب الطيب كرستوفورو.

(فرجينيا تمضي مسرعة، بعد انحناءة عميقة)

* * *

(٨)

(مناقشة.

في سجلّ «الحرمان» ألْفاه يقرأ

راهبا يقرأ القرار الرهيبا

راهبا ينشر العلوم ويبغي،

وهو ابن الفلاح، علما جديدا

في روما. بقصر سفير فيرنتسه، جاليليو يصغي إلى الراهب الشـــاب الذي بلّغه - بعد جلســـة الكلية الرومانية - كلمة الفلكي البابوي)

جاليليو   هيا، تكلم! الثوب الذي تلبسه يخول لك أن تقول أي شيء

الراهب الشاب   درستُ الرياضيات، يا سيد جاليليو.

جاليليو   ســـيكون هذا أمرا حسنا، لو أن هذا دعاك إلى الإقرار بأن ٢ + ٢ تساوي أحيانا ٤.

الراهب الشاب : يا ســـيد جاليليو! منذ ثلاث ليال وأنا لا أستطيع النوم. ذلك أني لم أســـتطعْ التوفيق بين القرار الذي قرأته، وبين توابع المشـــتري التي شاهدتها. لهذا قررت اليوم أن أتلو قدّاسي ثم أجيء اليك.

جاليليو : لتقول لي إن المشتري ليست له توابع؟

الراهب الشاب   كلا. لقـــد اقتنعت بالأســـباب الموجبة للقرار. لقد كشـــف لي الأخطار التي تتعرض لها الإنســـانية من جراء البحث المنطلق بغير قيود، وقد قررت أن أترك علم الفلك. لكني حرصت على أن أعرض عليـــك الدواعي التي يمكن أن تحمل حتى الفلكيّ نفسه على التخلي عن إتمام بناء النظرية التي تعرفها.

جاليليو   أعتقد أن في وســـعي القـــول بأن هـــذه الدواعي معروفة لديّ.

الراهب الشاب : أنا أقـدر شـعورك المرير. أنـت تفكر في تلك الوسـائل الاستثنائية التي تملكها الكنيسة.

جالليو : لا تفزع من النطق بالكلمة: أدوات التعذيب.

الراهب الشاب : لكني أود أن أذكر دواعي أخرى. واسمح لي بأن أتحدث عن نفسي: لقد نشأت في أسرة فلاحين في إقليم كمبانيا. وهم قوم بسـطاء جدا، يعرفون كل ما يمكن معرفته عن أشجار الزيتـون، وفيما عدا هذا لا يكادون يعرفون شـيئا. والآن، حين أشـاهد دورات الزهرة، يخيل إليّ أن أهلي يجلسـون فـي صحن الدار مع أختي وهم يشـربون حسـاء بالجبن. ومن فوقهم أرى ألواح السـقف التي سوّدها الدخان طوال مئات السـنين، وأرى تفاصيل أياديهم الهرمة التي شوهها العمل، والملفقة بين أصابعهم. ليسـت حياتهم بالسـعيدة، لكن في ثنايا شـقائهم نفسه، ثم مبدأ للنظام. هناك أدوار مختلفـة: دور للتنظيف الكبير، ودور للمواسـم في مزارع الزيتون، ثـم دور دفع الضرائب. وثـم انتظام في كل هذه المصائب التي تنقض عليهم. وإذا كان ظهر أبي ينحني فلا يتـم هذا دفعة واحدة، بل بالتدريج مع كل ربيع يقضيه في مـزارع الزيتون، كما أن الولادات التي تقلل شـيئا فشـيئا مـن أنوثة أمي، تتم في فترات محـددة. والقدرة على جر السلال على طول الطريق الحافل بالحصباء، والقدرة على إنجـاب الأولاد، بل والقدرة على الأكل - هما يسـتمدانها من الشـعور بالدوام والضرورة، هذا الشـعور الذي يُوَلّده في نفسيهما منظر الشمس، ومنظر الأشجار التي تخضرّ كل عام، والكنيسـة الصغيرة، وآيـات الكتاب المقدس التي يستمعون إليها في أيام الآحاد. لقد تلقوا توكيدا بأن الرب ينظر إليهم نظرة متسـائلة، شـبه قلقة، وبأن مسرح هذا العالم قد نُظّم من حولهم، حتى يسـتطيعوا، وهم الممثلون، أن يبرهنوا على أدائهـم لأدوارهم، صغيرة كانت أو كبيرة.

فماذا عســى أن يقول أهلي لو سمعوني أقول إنهم يعيشون على حصاة صغيرة تدور باستمرار في الفضاء، وتدور حول نجم آخر، حصاة بــين حصى عديد جدا، حصاة لا أهمية كبيرة لها؟ فيم يعملون إذن، وفيم يتحلون بكل هذا الصبر، وفيم يتعلقون كل هذا التعلق بشقائهم؟ وما الفائدة بعدُ في الكتاب المقدس، الذي فسّــر كل شيء، وبرر كل شيء على أنه ضــروري: العرق، والصبر، والجــوع، والخضوع، بينما اليوم يكتشــف فيه الكثير من الأخطاء؟ كلا، يخيّل إليّ أني أشاهد نظرتهم اللهيفة والملفقة تسقط على حجر الأرضية، وأشاهد كيف يحسون بأنهم خُدعوا وغُرِّر بهم. سيقولون: «وإذن لا أحد يرعانا؟ أعلينا نحن أن نرعى أنفســنا ونحن جهلــة، عجائز، مســتهلكون؟ ألا دور لنا غير دورنا البائس هذا على الأرض، هذا الجرم السماوي الصغير جدا الذي لا يســتقل بوجوده وليس محورا لشيء؟ أليس هناك معنى إذن لشــقائنا: فالجوع ســيكون فقط مجرد نتيجة لكوننا لم نأكل، وليــس امتحانا لقوتنا، والمجهود ســيكون مجرد نتيجة للانحنــاء وحمل الأثقال، وليــس مصدرا للفضائل والحســنات؟ أتفهم الآن لماذا أقرأ في قرار المجمع المقدس شفقة سخية، وإحسانا لاحد له؟

جاالليو : الشــفقة! الإحسان! لعلك تريد أن تقول: «لا شيء لهم، كل الخمر قد شــرب، وشــفاههم جفــت .. إذن فليقبلوا ثوب رجل الدين». لكن لماذا ليس ثم شــيء لهــم؟ ولماذا النظام فــي البلاد ليس شــيئا آخر غير نظام الخزانــة الفارغة، والضرورة ليســت إلا أن يقتل المرء نفسه في الشغل؟ وكل هذا وسط بساتين كروم حافلة بالعناقيد على تخوم حقول قمح وفيــر؟! إن فلاحيكم في إقليــم كمبانيا يدفعون ثمن الحروب التي يشنها خليفة يسوع الرقيق الوديع، يشنها في إســبانيا وألمانيا. لماذا يجعل مــن الأرض مركزا للكون كله؟

من أجل أن يصبح عرش القديس بطرس على الأرض مركز كل شـــيء! النقطة الثانية هـــي المهمة. أنت على حق: ليس المهم هو الكواكب، بل الفلاحـــون في كمبانيا. ولا تحدثني بعد هذا عن جمال الأشياء التي ذهّبتها وخضّرتها السنون. أتعرف كيف ينتـــج المحار اللؤلئي لؤلؤته؟ إبان مرض يمكن أن يموت منه يُدخل المحار في كرة من المخاط جسما غريبا يهيجـــه، حبة رمل مثلا. ويكاد يموت في هذه العملية. ومن رأيي أني أفضل المحار الســـليم، وتبـــا للؤلؤة. إن الفضائل ليست مرتبطة بالشقاء، يا صديقي. لو كان أهلك يعيشون في رخاء ويســـر، لكان في وســـعهم أن يمارســـوا فضائل الرخاء واليســـر. إن فضائل المنهوكين تنشـــأ من الأراضي المنهوكة، وهذا شـــيء لا أريده. يا عزيـــزي، مضخات الماء التي اخترعتها يمكن أن تحدث معجزات أفضل من عملهم الوضيع، عمل المســـتعبد، العمل الذي يتجاوز طاقة البشر. «تناســـلوا تكاثـــروا»، لأن الحقول بقيـــت عقيمة والحروب تقضي عليكم. هل يجب عليّ أن أكذب على هؤلاء الناس؟

الراهب الشاب : (في حالة تأثر شديد) إنها أسباب عالية جدا تفرض علينا أن نسكت: الطمأنينة الباطنة للذين يتألمون!

جاليلو : هل تريد أن ترى ساعة من صنع اتشلّيني Cellini، وضعها ســـائق الكردينال بلّرمـــين هنا هذا الصبـــاح؟ يا صديقي العزيز، إن السلطة تقدم إليّ - من أجل مكافأتي على ترك أهلك الأعزاء في طمأنينة، مثلا - أقول إن الســـلطة تقدم إلـــيّ الخمر الذي حصـــده أهلوك بعـــرق جبينهم، جبينهم الـــذي خلق على صورة الرب كما هو معلوم. لو وافقت على أن أســـكت، فسيكون ذلك لأسباب حقيرة خسيسة: هي أن أعيش في سلام، من دون اضطهاد، الخ...

الراهب الشاب : يا سيد جاليلو! أنا قسيس.

جالليو : وأنت أيضا عالم طبيعة. ولقد شاهدت بعينيك أن للزُّهَرة أطوارا. تعال انظر من النافذة. (يشير إلى النافذة) أترى هناك برياب(*) الصغير على شاطئ الينبوع، بالقرب من شجرة الغار؟ إله البساتين، والطيور واللصوص، هذا الجلف الفاجر الذي عمره أكبر من ألفي سنة!... إنه لم يقل مثل هذا القدر من الأكاذيب. ليكن لا نتحدث عن هذا، أنا أيضا ابن للكنيسة. لكن، هل تعرف الأهجية الثانية لهوراس؟ إنني أقرؤها هذه الأيام، فإنها تحدث شيئا من الاتزان. (يتناول كتابا صغيرا). إنه يجعل برياب هذا يتكلم، وكان تمثالا صغيرا في حدائق الإسكولينو. وهذا مطلعها:

«جذع من شجر التين، وخشب قليل الفائدة

هكذا كنت حينما تساءل النجار

هل يصنع بريابَ أو كرسيا

واختار أن يصنع الإله...»

هل تعتقد أن هوراس كان سيوافق على أن يُمَنَع مثلا من الكرسي، ويوضع في قصيدته مقعد؟ كذلك يا سيدي، سيجرح إحساسي بالجمال إذا حرمت الزهرة من أطوارها، في تصوري للعالم! إننا لا نستطيع أن نخترع ميكانيكا لدفع وضخّ الماء من الأنهار إذا لم ندرس الميكانيكا الكبرى، تلك التي تتجلى أمام عيوننا، ميكانيكا الأجرام السماوية. ومجموع زوايا المثلث لا يمكن أن يعدل تبعا لهوى وحاجات الكلية المقدسة. ومدارات الأجرام التي تجول في الفضاء لا أستطيع أن أحسبها بطريقة توضح أيضا أشواط جري الساحرات على أيادي المكانس.

الراهب الشاب أوَ لا تظن أن الحقيقة، إذا كانت هي الحقيقة، ستفرض نفسها حتى من دوننا؟

(*) برياب Piriape إله الخصب عند اليونان وإله البساتين والكروم والولادة.

جاليلو : لا، لا، لا. لا يفـرض نفســه إلا الجــزء مــن الحقيقة الذي نفرضه نحن. إن انتصار العقل هو انتصار الذين يفكرون. إن فلاحيكم في كمبانيا أنت تصفهم كما تصف الطحالب على ســقوف أكواخهم، هذا ما أنت عليه! فمن ذا الذي ســيخيل إليه أن مجموع زوايا المثلث يمكن أن يتعارض وحاجات هؤلاء النــاس؟ حتى لو لم يتحركوا، ولو لــم يتعلموا كيف يفكرون، فــإن أروع أجهزة الريّ لن تفيدهم في شــيء. فليذهب إلى الشيطان صَبْرُ أهلك الإلهي. لكن أين غضبهم الإلهي؟

الراهب الشاب : إنهم متعبون.

جاليلو : (راميــا إليه بمخطوط كبير) هل أنت فيزيائي، يا بني؟ في هذا الكتاب عرفت الأسباب التي من أجلها يتحرك المحيط فــي المد والجزر. لكن عليك ألا تقرأ، فاهم؟ أوه، هاأنت ذا تقــرأ؟ إذن أنت فيزيائي (الراهب الشــاب أكب على قراءة المخطوط) تفاحة تســقط من شــجرة المعرفــة، وهاهو ذا يبتلعها. لقد حكم على نفســه بالهلاك الأبدي، لكن الأمر أقــوى منه، وهاهو ذا يبتلعه، هذا المســكين. ويخطر ببالي أن أقدر أنني لا أمانع في أن أحبس نفســي في كهف تحت الأرض بعشــرات الأمتار، في ســجن لا ينفذ إليه النور، لو تعلمت بهذا الثمن ما هو النور. وأســوأ ما في الأمر أن ما أعرفه هو أقوى مني، وعليّ أن أقوله للآخرين. مثل عاشق، أو ســكران، أو جاسوس. هذا فســاد تام. هذه رذيلة، ولا شيء غير هذا، وهذا ســينتهي نهاية سيئة. كم من الوقت سأقدر على إعلان ما أعرف، وإن كان في ذلك إذكاء النار التي ستحرقني؟ تلك هي المسألة.

الراهب الشاب : (وهو يريه صفحة من المخطوط) هنا عبارة لا أفهمها.

جاليلو : سأشرحها لك، سأشرحها لك.

* * *

(٩)

(بعد ثماني سنوات من الصمت، كان تولي «بابا» جديد، هو في الوقت نفسه عالم، مشجعا لجاليليو على استئناف أبحاثه في الموضوعات المحرّمة: بقع الشمس.

كَتَمَ الحقيقةَ مُدّةً
ولسانهُ لم ينطق
إبّانَ أعوام ثما
نية، ولكن لم يُطقْ
للحق صاح مُرَددًا:
يا أيها الحق انطلق

في فيرنتسه، في منزل جاليليو. تلاميذ جاليليو: فدرتسوني، والراهب الشاب، وأندريا سارتي، وقد صار الآن شابا، اجتمعوا لمشاهدة تجربة. جاليليو، وهو واقف، يقرأ كتابا، وفرجينيا والسيدة سارتي تخيطان ثياب العرس)

فرجينيا : خياطة ثياب العرس أمر مسلّ. هذا المفرش سيصلح لمائدة كبيرة في المآدب. إن لودفكو يحب دعوة الضيوف. لكن لا بد من إتقانه، لأن أمه تلاحظ أقل غرزة رديئة. إنها غير راضية عن كتب والدي تماما مثل الأب كرستوفورو.

السيدة سارتي : إنه لم يؤلف كتابا منذ سنوات.

فرجينيا أعتقد أنه أدرك أنه أخطأ. في روما، شرح لي رجل دين كبير جدا كثيرا من الأشياء المتصلة بعلم الفلك. إن المسافات أوسع مما ينبغي.

أندريا (وهو يكتب على السّبورة برنامج اليوم) «يوم الخميس بعد الظهر: الأجسام الطافية». لا بد لنا من ثلج، وكمية من الماء في حوض وميزان، وإبرة من الحديد.

(يذهب للبحث عن هذه المواد. والآخرون يدرسون درس اليوم في كتب. يدخل فيلبو موشيوس، وهو عالم في منتصف العمر، مشيته تدل على شيء من الاختلال)

موشيوس : هل تستطيعين أن تخبري السيد جالليو أنه لا بد له أن يستقبلني؟ إنه يُدِينني من دون أن يسمع كلامي.

السيدة سارتي : لكن مادام لا يريد أن يقابلك؟

موشيوس : إذا طلبت منه ذلك، جزاك الله خيرا. لا بد لي من التكلم معه.

فرجينيا : (وقد مضت إلى أسفل السلم) يا أبي!

جالليو ماذا؟

فرجينيا إنه السيد موشيوس.

جالليو (متضايقا، يرفع بصره عن كتابه، يذهب صوب السلم، يتبعه تلاميذه) ماذا تريد مني؟

موشيوس : يا سيد جالليو، يا سيد جالليو! اسمح لي بأن أشرح لك المواضع في كتابي التي يبدو أنها تدين مذهب كويرنيكوس في دوران الأرض. عندي فقط...

جالليو : وأي مجال للشرح بعد؟ أنت توافق تماما على القرار الصادر من المجمع المقدس في سنة ١٦١٦. ولك الحق في هذا كل الحق. لقد درست هنا الرياضيات، أنا لا أعارض في هذا، لكن هذا لا يعطينا الحق في إرغامك على أن تقول إن ٢ + ٢ = ٤. لك الحق تماما في أن تقول إن هذه الحصاة (يخرج من جيبه حصاة صغيرة ويلقي بها على بلاط الأرضية) قد طارت إلى السقف.

موشيوس يا سيد جالليو، أود...

جالليو لا تتكلم عن صعوبات. أنا، برغم الطاعون، استمررت في إجراء ملاحظاتي.

موشيوس	:	يا سيد جالليو، هناك ما هو أسوأ من الطاعون.
جالليو	:	أقول لك: إن من لا يعرف الحقيقة، هو مغفل فقط. ولكن من يعرفها ويصفها مع ذلك بأنها كذب، هذا مجرم. اخرج من هذا البيت!
موشيوس	:	(بصوت خال من النبرة) أنت على صواب.
		(يخرج. جالليو يعود إلى مكتبه)
فدرتسوني	:	نعم، الأمر هكذا! إنه ليس عبقريا، ولعله كان لا يساوي شيئا إذا لم يتتلمذ عليك. هم طبعا يقولون: «هذا الرجل استمع إلى كل ما علّمه جالليو، ويرى نفسه مضطرا إلى الإقرار بأنه خطأ كله».
السيدة سارتي		هذا السيد المسكين يثير الشفقة في نفسي.
فرجينيا		لقد كان أبي يحبه كثيرا!
السيدة سارتي	:	يا فرجينيا! منذ مدة وأنا أريد أن أحادثك بشأن زواجك. أنت لاتزالين صبية، وليس لك أم، وأبوك يمضي وقته في جعل قطع صغيرة من الثلج تعوم على الماء. على كل حال، لا أنصحك بأن تسأليه أبدا فيما يتعلق بالزواج. وإلا بقي ثمانية أيام ينطق بأشياء غاية في الفظاعة، ويفضل ذلك عند تناول الطعام، حين يكون الشباب هنا، لأنه ليست لديه ذرة من الحياء. على كل حال ليس عن هذه الأمور أود أن أحدثك، بل فقط عن مستقبلك. لست أدري وأنا امرأة غير متعلمة، ولكن في مسألة مهمة مثل هذه ينبغي على المرء ألا يسير فيها خبط عشواء. حقا أعتقد أنه يجب عليك أن تذهبي لاستشارة فلكيّ من الجامعة، ليحسب لك طالعك، وبهذا تعرفين ما سيحصل غدا. لماذا تضحكين؟
فرجينيا		لأنني قمت بهذا فعلا.
السيدة سارتي		(بشغف) وماذا قال؟

فرجينيا: يجب عليّ أن احتاط مدة ثلاثة أشهر، لأنه في هذه المدة تكون الشمس في برج الجدي، لكن بعد هذا تتحسن حالي تماما وتتبدد الغيوم. وإذا لم أنس الاهتمام بالمشتري، ففي وسعي أن أقوم بأي رحلة، لأن برجي هو الجدي.

السيدة سارتي: ولودفكو؟

فرجينيا: برجه الأسد. (صمت قصير) مزاجه عاشق. (صمت) أنا أعرف هذه الخطوة، إنه السيد جافوني، المدير.

(يدخل جافوني، مدير الجامعة)

جافوني: جئت فقط من أجل إحضار كتاب ربما يهمّ أباك. وأرجوك، بحق السماء، ألا تزعجي السيد جالليو. ذلك أني أعتقد أن كل دقيقة تؤخذ من وقت هذا الرجل العظيم، دقيقة مسلوبة من إيطاليا. وهكذا أودع الكتاب برفق بين يديك، وأعود أدراجي على أطراف أصابع قدميّ.

(يخرج. فرجينيا تعطي فدرتسوني الكتاب)

جالليو: في أي موضوع؟

فدرتسوني: لا أدري. (يقرأ حرفا حرفا) «في البقع الشمسية».

أندريا: البقع الشمسية. كتاب آخر في هذا الموضوع أيضا! (فدرتسوني يعطيه الكتاب غاضبا) اسمع الإهداء: «إلى أكبر حجة بين الأحياء في الفيزياء، إلى جالليو جاليلاي». (يغرق جالليو في قراءة كتابه) قرأت الرسالة التي كتبها فبريسيوس عن البقع، وهو هولندي. إنه يعتقد أن هذه البقع هي أسراب من الأجرام السماوية تمر بين الأرض والشمس.

الراهب الشاب: أليس هذا الأمر مشكوكا فيه تماما، يا سيد جاللبيو؟ (جاللبيو لا يحير جوابا)

أندريا: في باريس وبراج يعتقدون أنها أبخرة متصاعدة من الشمس.

فدرتسوني	آه!
أندريا	فدرتسوني يشك في هذا كثيرا.
فدرتسوني	إذا كان هــذا لا يضايقك، دعني خــارج المعركة. لقد قلت: «آه!»، وهذا كل شـــيء. أنــا أصقل العدســات، أنا صاقل عدسات، أما أنتم فتلاحظون السماء، وما تشاهدونه ليس بقعا، بل Maculis (*) فأنّى لي أن أشك في أي شيء؟ وكم من المرات عليّ أن أقول لكم إنني لا أســتطيع قراءة الكتب: إنها مكتوبة باللاتينية.
	(في غضبة تبدو منه حركات، والميزان في يده. تســقط كِفّة على الأرضية. جاالليو يخترق المسرح ويلتقطها (في صمتٍ)
الراهب الشاب	نحن نقول: «طوبى للذين يَشُكّون.» وأنا أتساءل: لماذا؟
أندريا	منذ أسبوعين، وفي كل يوم تسطع فيه الشمس، كنت أتسلق إلى الغرفة العليا تحت قرميد السقف. ومن ثقوب القرميد لا يمــر غير شــعاع رفيع جدا، مما يســمح بتلقي الصورة المقلوبة للشــمس على ورقة. وشــاهدت بقعــة كبيرة مثل الذبابة، رخوة مثل الســحابة الصغيرة. وكانت تتنقل. لمــاذا لا ندرس بقع الشمس، يا سيد جاالليو؟
جاالليو	لأننا نبحث في الأجسام الطافية.
أندريا	عند أمي ســلال كبيرة مملوءة بالخطابات، كل أوروبا تريد أن تعرف رأيك. إن شــهرتك ارتفعت إلى درجة لا تستطيع معها أن تسكت بعد.
جاالليو	إذا كانــت روما قد تركت شــهرتي تتصاعــد، فذلك لأنني اعتصمت بالصمت.
فدرتسوني	لكنك اليوم لا تســتطيع بعدُ أن تسمح لنفسك بالاستمرار في الصمت.

(*) باللاتينية: بقع

جاليلو : لكني لا أستطيع أيضا أن أسمح لنفسي بأن أُشْوى على نار الخشب، مثل قديد الخنزير.

أندريا : أتظن إذن أن للبقع علاقة بهذه الحكاية؟ (جاليلو لا يجيب) حسن، لنقتصر على قطع الثلج، فهذا لن يسبب لنا أذى.

جاليلو : بالضبط. ما الذي افترضناه يا أندريا؟

أندريا : فيما يتعلق بطفو الأجسام، سنفترض أنه لا يتوقف على شكلها، بل على ثقلها وتفاوته بالنسبة إلى ثقل الماء.

جاليلو : ماذا يقول أرسطو؟

الراهب الشاب : «Discus Iatus Planusque»

جاليلو ترجم!

الراهب الشاب «لوح الثلج العريض المسطح يمكن أن يطفو على الماء، بينما إبرة الحديد تغوص إلى القاع»

جاليلو لماذا لا يغوص الثلج تبعا لأرسطو العظيم؟

الراهب الشاب : لأنه عريض ومسطح، وتبعا لذلك هو عاجز عن إزاحة الماء.

جاليلو : طيب. (يأخذ قطعة من الثلج تقدم إليه، ويضعها في الحوض). والآن بضغط كبير، أجعل الثلج ينزل حتى قاع الحوض. أتوقف عن الضغط بيديّ. فماذا يحدث؟

الراهب الشاب : يصعد الثلج من جديد.

جاليلو : تماما. يبدو أنه من أجل الصعود قادر على زحزحة الماء. فلجنتسيو!

الراهب الشاب : لكن، لماذا يطفو؟ إن الثلج أثقل من الماء، لأنه ماء كثيف.

جاليلو : لكن لو كان هو ماء أقل كثافة؟

أندريا لا بد أنه أخف من الماء، وإلا لما طفا.

جاليلو يا سلام، يا سلام!

أندريا كما أن إبرة الحديد لا تطفو. كل ما هو أخف من الماء يطفو، وكل ما هو أثقل من الماء يغوص. وهو المطلوب.

جالليو	:	يلزمك يا أندريا أن تتعلم كيف تبرهن بدقة واحتياط. أعطني إبرة الحديد. ثم هات ورقة. هل الحديد أثقل من الماء؟
أندريا	:	نعم.
		(جالليـــو يضع الإبــرة على قطعة ورق ويضـــع الورقة على الماء. صمت)
جالليو	:	ماذا يحدث؟
فدرتسوني	:	الإبــرة تطفو! أي أرســطو المقدس! إنهم لــم يحققوا هذا قط!
		(يضحكون)
جالليو		كثيرا ما يكون السبب في عدم تقدم العلم توهم الوصول إلى الغرض. إن هدفهم ليس فتح باب على لا نهائية المعرفة، بل رسم حد للانهائية الخطأ. سجل ما حصل.
فرجينيا		ماذا جرى؟
السيدة سارتي	:	في كل مرة يضحكون، هذا يجعلني أقفز. إني أتساءل: «ممَّ يضحكون؟».
فرجينيا	:	أبي يقول دائما: «إن للاهوتيين قرع نواقيسهم وللفيزيائيين ضحكهم».
السيدة سارتي	:	على كل حال أنا راضية، لأنه لم يعد ينظر كثيرا في أنبوبته. لقد كان ذلك شيئا فظيعا.
فرجينيا	:	كل مـــا يفعلـــه الآن أن يضع قطع ثلج في الماء. وهذا أمر لا يمكن أن ينجم عنه شر كبير.
السيدة سارتي	:	لست متأكدة من هذا.
		(يدخل لودفكو مرسيلي بملابس السفر، يتبعه خادم يحمل أمتعة. فرجينيا تهرع إليه وتقبله)
فرجينيا		لماذا لم تكتب إليّ أنك قادم؟
لودفكو		كنــت قريبا من هنا وأنـــا أتفقد مزارع الكـــروم في ناحية

برتشيولي، فلم أتمالك أن أمنع نفسي من المجيء.

جالليو : (وكأنه قصير النظر) من هذا؟

فرجينيا : هذا هو لودفكو.

الراهب الشاب : أوَ لا تراه؟

جالليو : آه، صحيح! لودفكو! (يغدو في اتجاهه) وما حال الخيول؟

لودفكو : في أحسن حال، يا سيدي.

جالليو : سارتي، استراحة. اذهبي فأحضري إبريقا من ذلك النبيذ الصقلّي الفاخر، العتيق.

(السيدة سارتي تخرج بصحبة أندريا)

لودفكو (مخاطبا فرجينيا) أنت شاحبة. الحياة في الريف ستفيدك. أمي تنتظرك في سبتمبر.

فرجينيا انتظر، سأريك ثوب زفافي.

(تخرج مسرعة)

جالليو : اجلس.

لودفكو : وفقا لما قيل لي يا سيدي، لديك أكثر من ألف طالب في المحاضرات التي تلقيها في الجامعة. فيم تشتغل الآن؟

جالليو : العمل اليومي المعتاد. هل مررت بروما؟

لودفكو : نعم. آه، قبل أن أنسى.. أمي تهنئك على حصافتك النموذجية في هذه المعركة القائمة حول البقع الشمسية، والتي يصول فيها الآن الهولنديون ويجولون.

جالليو : (بجفاف) شكرا جزيلا.

(السيدة سارتي وأندريا يحضران النبيذ والأقداح. يتحلقون حول المائدة)

لودفكو أهل روما لديهم موضوع جديد للحديث طوال شهر فبراير. وكرستوفر كلافيوس قد عبر عن خوفه من أن حكاية البقع قد تؤدي إلى استئناف الجدل بشأن مسألة دوران الأرض

حول الشمس.

أندريا : لا خطر.

جالليو : وأي جديد في المدينة الخالدة (روما)، فيما عدا الأمل في ارتكابي خطايا جديدة؟

لودفكو : أنت تعلم من غير شك أن أبانا المقدس (البابا) يعالج سكرات الموت؟

الراهب الشاب : يا إلهي!

جالليو : عَمّن يتحدثون لخلافته؟

لودفكو : في الغالب عن الكردينال بربريني.

جالليو بربريني!

أندريا السيد جالليو يعرف بربريني.

الراهب الشاب الكردينال بربريني رياضيّ.

فدرتسوني : عالم على عرش البابوات!

(صمت)

جالليو : حسن. إنهم الآن في حاجة إلى رجل مثل بربريني ممن درسوا بعض الرياضيات. بدأت الأمور تتحرك. يا فدرتسوني، ربما يقدر لنا أن نعيش في عصر لن نحتاج فيه إلى الاستتار والتخفي كالمجرمين حين نعلن أن ٢ + ٢ = ٤. (مخاطبا لودفكو) أنا أجد هذا النبيذ جيدا يا لودفكو. وأنت، ما رأيك فيه؟

لودفكو : إنه جيد.

جالليو : أنا أعرف مزرعة الكرم (التي من عناقيدها اعتُصر). المنحدر وعر وفيه حصباء، والعنب شبه أزرق. إني مغرم بهذا النبيذ.

لودفكو نعم، يا سيدي.

جالليو إن فيه ما يشبه الظل القليل، ويكاد يكون حلوا، «يكاد» فقط.

يا أندريا! ارفع هذه الأشـــياء: الثلج، والحوض، والإبرة. إني أُقَدّر مُتَع الحواس. ولا أحتمل النفوس الضعيفة التي تحسب هذا نوعا من الضعف. إني أقرر أن الاستمتاع فعل كريم.

الراهب الشاب : ماذا قررت أن تفعل؟

فدرتسوني : سنستأنف معركة دوران الأرض حول الشمس.

أندريا : (وهو يدندن)

قال «الكتاب» بأن الأرض ثابتة

والعالمون أبانوا ذاك تكرارا

والبابا يمسكها من أصل أذنيها،

بالرغم من ذا، تدور الأرض دورتها!

(أندريا وفدرتســوني والراهب الشاب يهرعون إلى منضدة التجارب وينظفونها مما عليها)

أندريا ونحن نســتطيع أن ندرك أن الشـــمس هي الأخرى تدور. فماذا يطيب لك، يا لودفكو؟

لودفكو : لماذا تتحمس كل هذه الحماسة؟

السيدة سارتي : لكنك لن تســتأنف كل هذه الحكايات الشــيطانية، يا سيد جالليو؟

جالليو : الآن أعــرف لمـــاذا بعثت بك أمك إلـــيّ. بريريني نجمه في صعود. العلم ســيصير وجدانا، والبحث شهوة. كلافيوس على صواب: بقع الشمس هذه تهمني كثيرا وتشوقني. هل وجَدْت نبيذي جيدا، يا لودفكو؟

لودفكو : قلت لك ذلك من قبل يا سيدي.

جالليو صحيح، تجده جيدا؟

لودفكو (بتصلب) نعم، أجده جيدا.

جالليو هــل تتنازل وتقبل نبيــذ أو بنت رجل مــن دون أن تطالبه باطراح عمله؟ ما العلاقة بــين فلكي وبين بنتي؟ إن أطوار

الزهرة لا تغير شيئا في استدارة جسدها.

السيدة سارتي : لا تكن جلفا هكذا. سأذهب فورا لإحضار فرجينيا.

لودفكو : (مانعا إياها) إن الزواج، في أسرة مثل أسرتي، لا يقوم فقط على اعتبارات جنسية.

جالليو : إذن منعوك من الزواج بابنتي طوال ثماني سنوات، لتجعلني في أثناء هذه المدة موضوعا للملاحظة والمراقبة.

لودفكو : ينبغي أن تُحدث زوجتي، في قريتي، أثرا طيبا وهي جالسة على كرسيها في الكنيسة.

جالليو : تريد أن تقول إن فلاحيك جعلوا دفع الإيجارات مشروطا بقداسة زوجة صاحب الأرض؟

لودفكو بمعنى من المعاني.

جالليو أندريا، فولجنتسيو، اذهبا وأحضرا المرآة النحاسية والستارة! سنسقط عليها صورة الشمس، لنخفف على أعيننا: وهذه الطريقة أنت الذي اكتشفتها، يا أندريا.

(أندريا والراهب الشاب يذهبان لإحضار المرآة والستارة)

لودفكو : في روما، تعهدت يا سيدي بألا تخوض بعد ذلك في حكاية الأرض التي تدور هذه.

جالليو : آه، صحيح! لكن في ذلك الوقت كان عندنا بابا رجعيّ!

السيدة سارتي : تقول: «كان»! والبابا لم يمت بعد!

جالليو : على وشك، على وشك، ضعوا على الستارة شبكة ذات عيون مربعة. سنسلك بنظام منهجي. ثم نستطيع بعد ذلك أن نرد على رسائلهم، أليس كذلك يا أندريا؟

السيدة سارتي «على وشك»! إنه يزن ويعيد وزن قطع الثلج خمسين مرة، لكن حين يتعلق الأمر بشيء يناسبه وييسر أموره، فإنه يصدقه تصديقا أعمى.

(يضعون الستارة)

لودفكو	لو مات قداســة البابا، يا ســيد جالليو، فــإن البابا الذي ســيخلفه، مهما يكن، ومهمــا كانت مشــاعره نحو العلوم طيبة، فإنه لن يســتطيع أن يســمح لنفسه بإهمال مشاعر الأسر الكبيرة في البلاد نحوه.
الراهب الشاب	انظــر يا لودفكو! الله صنع الكون الطبيعي، والله صنع المخ البشري والله سمح بدراسة علم الطبيعة.
السيدة سارتي	جالليو، أود أن أقول لك شــيئا. لقد شــاهدت ابني يقع في الخطيئة بسبب كل «تجاريك»، و «نظرياتك» و «مشاهداتك»، ولم أســتطع أن أفعل شــيئا. لقد وقفت في وجه السلطة، وهي قد حَذّرتك. وكبار الكرادلة راحوا يعظونك كما يصنع مــع الفرس المريض. وكان لهذا أثره مــدة من الزمان، لكن منذ شهرين، بعد عيد الحَمَل بلا دنس بأيام، فاجأتك وأنت تقوم بـ «مشــاهداتك» خفية. وفي غرفة السطوح أيضا! لم أشــأ التكلم في هذا، لكني فهمت علــى الفور. وفي الحال هرعت لإشعال شمعة على اسم القديس يوسف. وهذا فوق طاقتي. حين أكون وحدي معك، تظهر عليك أمارات العقل الســليم وتقول لي إن من اللازم أن تبقــى هادئا. لأن هذا خطر، لكن إجراء تجارب لمدة يومين يعيد الأمور من جديد. إذا كنت أحرم نفســي من النجــاة في الآخرة لأني أبقى مع مبتدع هرطيق فهذا شأني أنا، لكن ليس من حقك أن تحطم سعادة بنتك بقدميك الغليظتين.
جالليو	(متضايقا) هات المقراب (التلسكوب)
لودفكو	يا جوزيّه، أعد الأمتعة إلى العربة.
	(يخرج الخادم)
السيدة سارتي	إنها لن تتحمل هذا. تستطيع أن تقول أنت لها هذا.
	(تمضي، والجرة في يدها)
لودفكو	أرى أنك قد اتخذت قرارك. يا سيد جالليو، إننا، أمي وأنا،

نمضي ٩ أشـــهر كل عام في مزرعتنا فـــي كمبانيا، ونحن واثقون بأن فلاحينا لم يضطربوا بسبب رسائلك عن توابع المشـــتري. إن عملهم شـــاق جدا . ومع ذلك فربما تشوشت أفكارهم لو عرفوا أن هجمات طائشة على عقائد الكنيسة المقدســـة تبقي من دون عقاب. ولا تنـــس أن هؤلاء الناس المســـاكين، وهم على ما هم فيه من حيوانية، يخلطون بين الأمور. إنهم فعلا كالأنعام. ولا تكاد تتصور أحوالهم. يكفي أن تنطلق إشاعة تقول إنه عثر على كمثرى في شجرة تفاح، لكي يطلقوا لأنفسهم العنان في التخيلات.

جالليو (باهتمام) آه، هكذا!

لودفكو دواب حقـــا . حينمـــا يأتون إلـــى البيت للشـــكوى من أتفه الأشـــياء، تضطر أمي إلى الأمر بضرب كلب بالسياط أمام عيونهـــم، إذ لا وســـيلة أخرى لردهم إلـــى النظام والأدب. وأنت، يا سيد جالليو، تلقي نظرة من بعيد إلى حقول الذرة الفاخـــرة من نافذة عربتك، وتـــأكل زيتوننا وجبننا وعقلك بعيـــد في عالم آخر، وليســـت لديك أي فكرة عما يقتضيه إنتاج هذا كله من مشقة ومراقبة في كل وقت.

جالليو أيها الشاب، إنني حين آكل زيتوني، لا يكون عقلي بعيدا في عالم آخر.

(بعنف وشراســـة) أنت تضيع وقتـــي (يصيح إلى بعيد) هل معكم الستارة؟

أندريا نعم. هل أنت حاضر؟

جالليو أنت لا تضرب فقط كلابا، يا سيد مرسيلي ليحافظوا على النظام؟

لودفكو يا سيد جالليو، إن عقلك عجيب. يا للخسارة!

الراهب الشاب (مندهشا) إنه يهددك.

جالليو نعـــم، إن في اســـتطاعتي إشـــاعة الاضطـــراب في عقول

فلاحيه، وتوجيههم إلى أفكار جديدة. وكذلك خدمه ومعاونيه.

فدرتسوني : وكيف ذلك؟ ليس فيهم واحد يعرف اللاتينية.

جاليلو : في وسعي أن أكتب بلغة الشعب، وللجمهور، وليس باللاتينية لعدد قليل من الخاصة. نحن في حاجة إلى أناس يعملون بأيديهم من أجل تحقيق الأفكار الجديدة. ومَن غير هؤلاء يريدون أن يعرفوا أسباب الأشياء؟ إن الذين لا يرون الخبز إلا على موائدهم لا يريدون أن يعرفوا كيف عجن وخبز. هؤلاء الأوغاد يفضلون أن يشكروا الرب على أن يشكروا الخباز الذي خبز هذا الخبز. لكن الذين يصنعون الخبز يعرفون أنه لا شيء يتحرك إلا إذا حركه شخص. وأختك التي تعمل في معصرة الزيتون، يافولجنتسيو، لن يغمى عليها، بل ستضحك ملء شدقيها حين يقال لها إن الشمس ليست شكلا مرسوما على درع، بل هي رافعة: إذا كانت الأرض تتحرك فما ذلك إلا لأن الشمس تحركها.

لودفكو : لن تكون أبدا غير عبد لشهواتك. قدم اعتذاراتي لفرجينيا، أعتقد أن الأفضل ألا أراها في الوقت الحاضر.

جاليلو : البائنة تحت تصرفك، في أي لحظة.

لودفكو : مساء الخير!

(يخرج)

أندريا : وبلغ احتراماتنا لكل آل مرسيلي في العالم.

فدرتسوني : الذين يأمرون الأرض بألا تتحرك، خوفا من أن تنهار قصورهم.

أندريا : وبلغها أيضا لآل اتشينشي Cenci، وآل فلّاني Villani.

فدرتسوني : وآل تشرفيلي Cervilli!

أندريا : وآل لكي Lecchi!

فدرتسوني	وآل برليوني Pirleoni؛
أندريا	الذين لا يريدون أن يقبلوا نعل البابا إلا إذا استعمله لسحق الشعب والدوس عليه.
الراهب الشاب	(وهو منهمك في العمل حول الأجهزة) البابا الجديد سيكون سلطانا مستتيرا.
جاليلو	سنأخذ الآن في ملاحظة بقع الشمس هذه التي تهمنا جدا، ولنتحمل النتائج، من دون أن نحسب حسابا لحماية بابا جديد.
أندريا	(مقاطعا إياه) مع التوكيد الراسخ على تشتيت أسراب النجوم التي قال بها فابرتسيوس، وكذلك الأبخرة الشمسية التي تقول بها براج وباريس، وإثبات دوران الشمس.
جاليلو	رفقا! وللبرهنة بشيء من التأكيد على دوران الشمس. فليس قصدي أن أبرهن على أنني كنت على صواب حتى الآن، بل النظر فيما إذا كنت على صواب. وأقول لك: يا من تدخل طريق الملاحظة، تخلَّ عن كل أمل. ربما كانت أبخرة، وربما كانت بقعا، لكن قبل افتراض أنها بقع وهو يوافق نظريتنا، نحن نفضل أن نفترض أنها أجنحة ذباب. نعم، سنعيد النظر في المسألة كلها من جديد، ولن نتقدم بخطىً واسعة، بل بخطى الحلزون. وما نجده اليوم سنمحوه غدا، ولن نسجله من جديد إلا بعد أن نجده مرة ثانية. وما نرجو العثور عليه، سننظر إليه، حين نعثر عليه، بتشكك وعدم ثقة. إذن سنأخذ في رصد الشمس ونحن عازمون عزما راسخا على إثبات أن الأرض ثابتة! وفقط حين نخفق في هذا، وحين ننهزم انهزاما تاما لا أمل في تغييره، ولا يعود أمامنا إلا أن نلعق جراحنا، حينئذ وحينئذ فقط سنتساءل ونحن محزونون، عما إذا كنا على صواب بالرغم من كل شيء، وعما إذا كانت الأرض لا تدور. (وهو يحد نظره)

لكـــن إذا ذابت بـــين أصابعنا كل نظرية أخـــرى، حينئذ لن نرحم أولئك الذين لم يبحثوا، ومع ذلك يسمحون لأنفسهم بفتح أفواههم. أزيلوا غلاف هـــذه الأنبوبة وصوّبوها نحو الشمس!

(يرتب المرآة)

الراهب الشاب : لقـــد كنت فهمت أنك بدأت العمل فعلا. فهمت ذلك حينما لم تتعرف السيد مرسيلي.

(يبـــدأون البحث في هدوء وصمـــت. وحينما تظهر صورة الشمس المتوهجة على الستارة، تأتي فرجينيا مسرعة وهي بثوب الزفاف)

فرجينيا : هل طردته يا أبي؟

(يغمى عليها. أندريا والراهب الشاب يندفعان نحوها)

جاالليو : لا بد أن أعرف.

* * *

(١٠)

(خلال السنوات العشر التالية انتشر مذهب جالليو بين عامة الناس. وفي كل مكان كان أصحاب الرسائل والمغنون الجوالون يرددون الأفكار الجديدة. وإبان كرنفال سنة ١٦٣٢ اتخذ الكثير في مدن إيطاليا من الفلك موضوعا لمواكب النقابات.

ميدان عام. بهلوان وزوجته جائعان، ومعهما بنت عمرها خمس سنوات وطفل رضيع، يَصِلون إلى الميدان، حيث جمهور، بعضه يلبس الأقنعة ينتظر موكب آخر أيام الكرنفال. الزوجان يجران حزمة أمتعة وأشياء أخرى تتصل بعملهما)

المغني الجوال : (وهو يقرع الطبل) أيها الناس الكرام، سادتي وسيداتي! نقدم إليكم، قبل موكب النقابات الكبير، أحدث المحدثات في فيرنتسه، أغنية تنتشر بسرعة هائلة، في كل إيطاليا الشمالية، وقد استوردناها هنا نظير تضحيات هائلة. عنوانها: النظريات والآراء المخيفة التي يقول بها الأستاذ جالليو جاليلاي، عالم الطبيعة الكبير في بلاط توسكانيا، أو، إذا شئتم - نفحة من المستقبل.

(يغنّي)

حينما قال إله الكون: «كن»

صاح في الشمس: «وهاك واجبك:

حول هذي الأرض، كالخادم

ياشمس أديري شعلتك

ذاك أن الله قد شاء لكل أن يدور

دائما حول الذي يسمو عليه

ولذا يُلَفّ الصغار
دائما حول الكبار
دائرين
والخوالف
دائما حول الطلائع
هكذا في الأرض أو أعلى السماء
حول البابا يدور الكرادلة
وحول الكرادلة يدور الأساقفة
وحول الأساقفة يدور الكتبة
وحول الكتبة يدور أعيان المدينة
وحول أعيان المدينة يدور الصنّاع
وحول الصنّاع يدور الخدم
وحول الخدم تدور الكلاب والدجاج
والشّحاذون.

هذا يا حضرات الأفاضل، هو النظام العظيم، نظام الأنظمة، كما يقول السادة اللاهوتيون. وقاعدة القواعد، والقاعدة الأزلية، لكن ماذا حدث أيها القوم الأعزاء؟

(يغنّي)
ظهر الدكتور جالليو
(واطّرح كتابَ الرب
أخذ المقراب وصوّب
نظراته على ذا الكون)
صاح للشمس: أقيمي ساكنه!
في اتجاه العكس ذا الكونُ يدور
حول خادمتها تدور السيّدة

أيها القوم، وليس الأمر هزلا!
كلّ يومٍ قحةً يزدادُ أوزاعُ الخدم!
ذاك عينٍ الحق: والنادر قد صار المزاح.
أين يا قوم الذي لا يبتغي
أن يُرى سيّدَ نفسه؟
هذه الآراء ياقوم خطيرة.
(يغنّي)
الخادم يخدع سيّده
والبنت الخادم تتلاعب
كلب القصّاب ربا شحمه
طفل القُداس قد أهمله
بقي التلميذ على فَرّشه.
كلا يا سادة، لا، كلّا!
فكتاب الرب هو الجِدّ
حبل المشنقة أعدوه
بالشدّ، وإلّا يتحطمَ!
ذاك عين الحق: والنادر قد صار المزاح.
أين يا قوم الذي لا يبتغي
أن يُرَى سَيّدَ نفسه؟
أيهـــا القوم الكرام. ألقوا نظرة على المســتقبل كما يتنبأ به العالم الدكتور جالليو جاليلاي.
(يغنّي)
سيدتنا بيت في السوق
في سوق السمك بلا عمل

بائعة السمك على خبز
تلتهم هي الأخرى السّمكَ
والبنّا يحفر آساسا
يستخدم أحجار المالك
والبيت إذا تم بناؤه
يأخذه البنا ويسكنه
أيجوز لهذا أن يحدث؟
كلا، يا سادة، لا، كلا
فالأمر خطيرٌ، لا هزل
ذاك عين الحق: والنادر قد صار المزاح
أين يا قوم الذي لا يبتغي
أن يُرَى سَيِّدَ نفسه؟
هذا المستأجر، بوقاحة
يضرب ذا المالك في ظهره
زوجته تزود باللبن
ابنيها وتترك قسيسا
واللبن نصيب القسيس
كلا يا سادة، لا، كلّا
فكتاب الرب هو الجد
حبل المشنقة أعدّوه
بالشدّ، وإلا يتحطم
ذاك عين الحق، والنادر قد صار المزاح
أين يا قوم الذي لا يبتغي
أن يُرَى سَيِّدَ نفسه؟

زوجة المغني : تركتُ الرقص في الحلْبة
وقلت لزوجِيَ: اسمعني
ترى هل ثم بين النّجْمِ
نجم ثابت أبرع.

المغنّي : كلا، كلا، أبدا كلا
جالليو، حسبك، جالليو!
لو كلب أُطلِق من خطمه
لاسترسل في عض الناس
هذا والله هو الحق
والمزح الآن هو النادر
أين يا قومُ الذي لا يبتغي
أن يُرَى سيّد نفسه؟

كلاهما : يا من تعيشون في هم وإذلال
استجمعوا كل ما في النفس من قوة
ثم استمدوا من العلّام جالليو
مبادئ العيش في رَغَدٍ على الأرض
كانت مصيبتنا في الذل والطاعة
أين يا قوم الذي لا يبتغي
أن يُرَى سيد نفسه؟

المغني : والآن أيها الناس الكرام، ستشاهدون الاكتشاف العظيم الذي قام به جالليو جاليلاي، وهو: الأرض وهي تدور في مدارها الدائري حول الشمس. (يقرع طبلته بعنف. الزوجة والبنت تتقدمان. الزوجة تحمل صورة غليظة تمثل الشمس، والبنت تحمل على رأسها قرعة مالطية تمثل الأرض، وترسم دائرة حول أمها. وبعد ذلك تتقدم البنت،

على إيقـــاع قرعات منفردة من الطبلـــة، بوثبات متدافعة.
والمغني، وهو في حالة وجد، يشـــير إليها بذراعه الممدودة،
وكأنها تقوم بقفزة خطرة. وفجأة، في عمق المســـرح، قرع
مستمر للطبول)

صوت عميق ينادي : الموكب!

(يدخل رجلان في أســـمال بالية وهما يجرّان عربة صغيرة
يجلس فيهـــا، على عرش حقير، «دوق توســـكانيا الكبير»،
وعليه تاج من الكرتون وثوب من الخيش، ينظر في تلسكوب،
وفـــوق العرش بطاقة كتب عليها: «ينظر عن ضيق وملال»،
وبعد ذلك يســـير أربعة رجال مقنعين يحملون غطاء عربة
كبيـــرا. يتوقفون ويطلقون في الهـــواء دمية تمثل كردينالا.
رجـــل قزم يقف فـــي جانب وهو يحمل لوحـــة كتب عليها:
«العصر الجديد». وفي الجمهور يقف شـــحاذ على عكازته
ويرقص برجليه، ثم يســـقط بدويّ شـــديد. يدخل مانِكان
هائل يمثـــل جالليو، المانكان يحيـــي الجمهور وأمامه طِفل
يحمل نســـخة ضخمة من «الكتاب المقـــدس» مفتوحا عند
صفحات معلَّم عليها بصليب)

المغني : جالليو جاليلاي، محطم «الكتاب المقدس»!

(الجمهور يقهقه قهقهات عالية)

* * *

(١١)

(ســنة ١٦٣٣. محكمة التفتيش تســتدعي الباحث الشهير إلى روما.

في أسفلَ: حر لافح

في أعلى: بَرْدٌ قارس

في الشارع صيحات ضجيج

وبلاط بالصمت يلوذ

غرفة انتظار وسلم في قصر مدتشي في فيرنتسه. جالليو وابنته ينتظران أن يستقبلهما الدوق الكبير)

فرجينيا الوقت طال.

جالليو نعم.

فرجينيا هذا الرجل أيضا، إنه كان يتعقبنا.

(تشير إلى شخص يمر كأنه لا يراهما)

جالليو : (وكان بصره قد ضعف) لا أعرفه.

فرجينيا : لكني أنا شاهدته عدة مرات في هذه الأيام الأخيرة. إن فيه شيئا يقلقني.

جالليو : غير معقول، نحن في فيرنتسه، ولسنا بين قطاع الطرق في قورسقه

فرجينيا ها هو ذا السيد جافوني، مدير الجامعة.

جالليو الآن أنا خائف. هذا الأبله سيجرني مرة أخرى إلى مناقشة لا تنتهي. (المدير جافوني ينزل السلم. وعند رؤيته لجالليو يقفز ويصرف رأسه بسرعة ويمر أمامه بتزمت صلب، مكتفيا بإشارة من رأسه غير مدركة) ماذا جرى له؟ إن نظري ضعف. هل حَيَّا؟

فرجينيا كاد. ماذا في كتابك؟ هل من الممكن أن يجدوه مبتدعا؟

جاليليو	أنت تَغْشَــيْنَ الكنائس أكثر مما ينبغي. وبسبب استيقاظك مبكرة والإســراع إلى القدّاس ستفســدين نضارة بشرتك. أنت تصلين من أجلي، أليس كذلك؟
فرجينيا	ها هو ذا الســيد فانِّي Vanni، صاحــب المصانع، الذي من أجله وضعت مشروع مصنع لصهر الحديد، لا تنس أن تشكر له إرساله الحَجَل.
	(نزل إنسان من السلم)
فانِّي	هل أعجبك الحَجَل الذي أرسلته إليك، يا سيد جاليليو؟
جاليليو	الحجل كان ممتازا، يا معلم فاني، فشــكرا جزيلا لك مرة أخرى.
فانِّي	هناك في أعلى كانوا يتحدثون عنك. إنهم يعدونك مسؤولا عن الرســائل التي كتبت ضد «الكتاب المقدس»، والتي تباع في كل مكان هذه الأيام.
جاليليو	إني أجهل كل شــيء عن هذه الرسائل الانتقادية. و«الكتاب المقدس» هو، وهوميروس من كتبي المفضلة للقراءة.
فانِّي	وحتــى لو لم يكن الأمــر هكذا ... فإنــي أود أن أنتهز هذه الفرصة لأؤكد لك أننا نحن العاملين في المصانع نحن معك. لستُ على اطلاع واسع على حركات النجوم، لكنك في نظري الرجل الذي يناضل في سبيل حرية تعليم الأشياء الجديدة. خــذ مثلا تلك الماكينة الزراعيــة الألمانية التي وصفتها لي. وفي الســنة الماضية وحدها نشرت في لندن خمس رسائل وأبحــاث في الزراعة. أما نحــن هنا، فإننا نكون راضين لو كان عندنا كتاب عن القنوات في هولندا. والأوساط نفسها التي تثير لك المشاكل هي التي تمنع الأطباء في بولونيا من تشريح الجثث لأغراض البحث العلمي.
جاليليو	يا فاني، إن لصوتك تأثيره.
فانِّي	أرجو ذلك. هل تعلم أن في أمستردام ولندن سوقا للنقود؟

ومدارس مهنية أيضا؟ وصحفا تظهر بانتظام وتخبر الناس عما يجري من أحداث؟ أما هنا فليست لدينا الحرية حتى في إيجاد الثروة. إنهم يعارضون ويقفون ضد مصانع صهر الحديد، بحجة أن تجمع أعداد كبيرة من العمال في المكان نفسه يساعد على انتشار الفساد الخلقي. أنا متضامن مع الرجال من أمثالك يا سيد جاليليو، في السرّاء والضراء. وإذا حاولوا أن يدبروا شيئا ضدك، فتذكر أن لك أصدقاء في كل فروع النشاط. سيدي، إن وراءك مدن شمال إيطاليا تسندك وتشد أزرك.

جاليليو: وفق علمي، ليس في نية أحد أن يدبر شيئا ضدي.

فانّي: صحيح؟

جاليليو: نعم.

فانّي: من رأيي أنك ستكون في أمان أكثر في البندقية. فعدد رجال الكهنوت هناك أقل. ومن هناك تستطيع أن تواصل النضال. إن عندي عربة وخيولا، يا سيد جاليليو.

جاليليو: لا أريد لنفسي أن أعيش عيشة لاجئ. ويهمني أن أعيش في رفاهية.

فانّي: مؤكد. لكن بعد الذي سمعته هناك فوق، أرى أن الأمر يحتاج إلى التصرف بسرعة. عندي شعور بأنه في هذه الأوقات بالذات هم يفضلون ألا تكون في فيرنتسه.

جاليليو: غير معقول. إن الدوق الكبير كان تلميذي، وفضلا عن ذلك فإن البابا نفسه سيحول دون إلحاق أي أذىً بي، لو حاولوا، بحجة من الحجج، أن يدبروا لي مكيدة.

فانّي: يبدو لي، يا سيد جاليليو، أنك لا تستطيع أن تميز أصدقاءك من أعدائك.

جاليليو: لكني أستطيع أن أميز القدرة من العجز.

(يمضي بعنف)

فانّي : طيب. أرجو لك حظا سعيدا.

(يخرج)

جالليو : (وقد عاد إلى جوار فرجينيا) في هذا البلد، كل من له شكوى يريد تقديمها، يلجأ إليّ أنا للتعبير عن شكواه، خصوصا لدى جهات لا يفيدني هذا خيرا عندها. لقد ألفت كتابا في ميكانيكا الكون، هذا كل ما في الأمر. وما يستخلص منه - أو لا يستخلص - ليس من شأني أنا.

فرجينيا : (بصوت عال جدا) لو عرف الناس كم نددت بما جرى في الكرنفال الأخير من طيش...

جالليو صحيح! أعط عسلا إلى دُبّ، تفقد ذراعك إذا جاع هذا الحيوان.

فرجينيا (بصوت خفيض) لكن هل صحيح أن الدوق الكبير استدعاك للمثول أمامه اليوم؟

جالليو : لا، لكني أنا طلبت مقابلته. ويهمه أن يحصل على الكتاب، لأنه هو الذي قدّم المال. اسألي الحاجب واشكي له أننا هنا ننتظر منذ مدة طويلة.

فرجينيا : (تذهب إلى الحاجب، ووراءها ذلك الشخص) يا سيد منتشو! هل أُبلغَ صاحب السمو أن أبي يريد أن يتحدث إليه؟

الحاجب : وهل أنا أعرف؟

فرجينيا : ليست هذه إجابة.

الحاجب : صحيح؟

فرجينيا : كن مهذّبا.

(الحاجب يوليها ظهره ويتثاءب وهو ينظر إلى الشخص)

فرجينيا (وقد عادت إلى جوار أبيها) إنه يقول إن الدوق الكبير لايزال مشغولا.

جالليو سمعت كلمة «مهذب». فما هذا الذي كان؟

فرجينيا : لقد شكرته على جوابه المهذب، هذا كل ما في الأمر. ألا تستطيع أن تترك الكتاب وتذهب؟ إنك هنا تضيع وقتك.

جالليو : أصبحت أسائل نفسي: هل وقتي ثمين حقا. ربما قبلت دعوة سجريدو لأقضي بضعة أسابيع في بادوا. صحتي ليست على ما يرام.

فرجينيا : إنك لا تستطيع أن تعيش من دون كتبك.

جالليو : ويمكن أن نحمل في العربة بعض النبيذ الصقلّي، صندوقا أو صندوقين.

فرجينيا : كنت تقول دائما إنه لا يتحمل النقل. ثم إن البلاط لايزال يدين لك بمرتب ثلاثة أشهر، وهم لن يرسلوها إليك.

جالليو هذا صحيح.

(الكردينال كبير محكمة التفتيش ينزل السلم)

فرجينيا الكردينال كبير محكمة التفتيش. (الكردينال وهو يمر أمام جالليو يحيي جالليو بانحناءة عميقة) يا أبي، ماذا جاء بالكردينال، كبير محكمة التفتيش، إلى فيرنتسه؟

جالليو : لست أدري. لكن موقفه دل على شيء من الاحترام. كنت أعرف ما كنت أفعل حين رحلت إلى فيرنتسه واعتصمت بالصمت طوال سنوات. لقد رفعوا من شأني إلى حد أنهم مضطرون اليوم إلى أخذي على علّاتي كما أنا.

الحاجب : (بصوت قويّ) صاحب السمو الدوق الكبير.

(كوزمو دي مدتشي ينزل السلم، جالليو يتقدم نحوه. كوزمو يتوقف، في شيء من الارتباك)

جالليو جئت لأقدم إلى سموكم محاوراتي عن النظم الكبرى...

كوزمو آه صحيح؟ كيف حال عينيك؟

جالليو ليست على ما يرام، يا صاحب السّمو. لو يسمح سموُّكم، أحضرتُ الكتاب...

كوزمو : حالـــة عينيك تقلقني. حقا، تقلقني. وأنا أســتنتج من هذا أنك تفرط في استخدام أنبوبتك الثمينة. أو أنا غلطان؟

(يستمر في طريقه من دون أن يأخذ الكتاب)

جاليلو : لم يأخذ الكتاب، أليس كذلك؟

فرجينيا : أبي، أنا خائفة.

جاليلو : (بصـــوت مختنق، ولكنه حازم) لا تظهري شـــيئا. وبدلا من الذهـــاب إلـــى بيتنا ســـنذهب إلى منزل فولبـــي Volpi، الزّجّاج. لقـــد اتفقت معه على أن يكـــون في فناء الحانة، بجوار منزله، عربة مســـتعدة للرحيـــل في أي وقت، وفيها براميل فارغة، لاقتيادي إلى خارج المدينة...

فرجينيا : أنت تعرف إذن...

جاليلو : لا تعودي.

(يريدان الخروج)

موظف كبير : (ينزل الســـلم) يا سيد جاليليو! أنا مكلف بإعلانك أن بلاط فيرنتســـه لا يســـتطيع من الآن فصاعدا أن يقاوم الرغبة التي أبدتها محكمة التفتيش المقدسة في إرسالك إلى روما لاستجوابك. يا سيد جاليليو! عربة محكمة التفتيش المقدس جدا في انتظارك.

* * *

(١٢)

(البابا

جناح في الفاتيكان. البابا أربان الثامن، واسمه الأصلي: الكردينال بربريني، استقبل الكردينال كبير محكمة التفتيش. بينما الجلسة مستمرة، يلبِس ثيابَه. يُسمع في الخارج تدافع حشد)

البابا : (بصوت جهوري) لا، لا، لا!

محكمة التفتيش : في اللحظة التي فيها علماء كل الكليات، وممثلو كل الطرق الرهبانية والكهنوت، بسبيل الاجتماع، وقد جاءوا جميعا، تحدوهم الثقة البنوية في كلام الله كما هو وارد في الكتاب المقدس، ليسمعوا من قداستكم ما يؤيد ثقتهم هذه، في هذه اللحظة إذن تريدون قداستكم أن تخبروهم أن الكتاب المقدس لا يمكن أن يعد منذ الآن صادقا؟

البابا : لن أعمل على تحطيم ألواح الحساب. لا!

كبير المحكمة : أمـا أن الأمر يتعلق بألواح الحساب وليس بروح التمرد والشك، فهذا ما يقوله أولئك الناس. والواقع أن الأمر لا يتعلق بألواح الحساب، بل باضطراب مروّع استولى على العالم. وهؤلاء الناس يعزون إلى الأرض الثابتة اضطراب عقولهم هم.

إنهم يصيحون: «الأرقام ترغمنا». لكن أرقامهم من أين جاءت؟ كل إنسان يعرف أنها جاءت من الشك. هؤلاء الناس يشكون في كل شيء. فهل نبني مجتمع الناس على الشك، لا على الإيمان؟ «أنت سيدي، لكني أشك في أن هذا صواب»، هذا بيتك وزوجتك، لكن عندي شكا: أليس «الأولى أن يكونا لي أنا؟»، وفي مجال آخر، إن ولوع قداستكم

بالفنـــون الجميلة، هذا الولوع الــذي ندين له بمجموعات جميلة، أفلا يفســر عند البعض تفسيرات مهينة، كما في هذا المكتوب علـــى كل جدران روما، وهو: «ماتركه البرابرة في روما، ســرقه آل بربريني». وفي الخارج، لقد أراد الله للكرسي الرسولي، كرسي القديس بطرس، أن يعاني المحن والتجــارب. فهناك قوم مجردون من الفطنة، قد أســاءوا فهم سياســة قداستكم مع إســبانيا، ويأســفون لنزاعكم مع الإمبراطور. ومنذ خمســة عشــر عاما وألمانيا صارت مذبحــا يمزق الناس فيه بعضهم بعضــا، والكتاب المقدس في فمه يستشــهد به والآن والطاعون والحرب والإصلاح الديني قد جعلت المسيحية تتحلل وتتمزق إلى قطعان قليلة العدد، تسري إشاعة في كل أوروبا تقول إنكم مرتبطون مع الســويد، التي تدين بالمذهب اللوثري، في محالفة ســرية تهدف إلى إضعاف الإمبراطور، وهو كاثوليكي. والآن تجيء هذه الحشــرات من رجال الرياضيــات ويصوبون أنابيبهم نحو الســماء ويعلنون للعالم أنه حتى في هذا المجال، وهو الوحيد الذي لا يجادلك بعدُ أحد فيه، ليســت لقداســتكم قواعد راســخة. ويحق للمرء أن يتســاءل: ما الداعي إلى هذا الاهتمام المفاجئ بعلم بعيد مثل علم الفلك؟ ألا يستوي الأمر أن تدور هذه الأكر في هذا الاتجاه، أو ذاك؟ وبالقدوة السيئة التي كانت لهذا الرجل الفيرنتسي (= جالليو) صار كل إنســان في إيطاليا، حتى أحقر سائس للخيل، يتحدث عــن أطــوار الزُهرة بترهات، ولا يوجد شــخص لا يقصد بالطعن كثيرا من الأمور التي كانت تعد في المدارس راسخة، ومن شــأنها أن تحدث الكثير من الضرر. فماذا عســى أن تكون النتيجة، لو أن كل هؤلاء الناس، وأجسادهم ضعيفة، وهم مفطورون على المبالغة والإفراط، لم يعودوا يثقون إلا بعقولهــم، عقولهم التي يقول عنها هذا المأفون إنها الحكم

الوحيد؟ لو حَدَثَ أن أخذوا يشكون في أن يوشع قد أوقف الشمس، ففي استطاعتهم بعد هذا أن يتناولوا بالشك الخسيس حتى جَمْعَ النذور. ومنذ أن انطلقوا في عرض البحار - ولا اعتراض عندي على هذا - صاروا يضعون ثقتهم في كرة من النحاس يسمونها البوصلة، وليس في الرب. وجالليو هذا، إبان شبابه، قد ألف في الماكينات. وهم يريدون بالماكينات أن يصنعوا المعجزات. كيف؟ لم يعد بهم حاجة إلى الرب على كل حال، لكن عن أي معجزات يتحدثون؟ مثلا، لن يكون ثم فارق بين الأعلى والأدنى. فهم ليسوا في حاجة إلى هذا. وأرسطو العظيم - وهم لا يعدونه إلا ككلب ميت - قد قال، وهم يرددون ذلك: «لو أن مَكوك النسّاج ينسج وحده، ولو أن عصا القيثارة تعزف وحدها، فلن يصبح أصحاب الورش في حاجة إلى صنّاع، ولا السادة في حاجة إلى خدم». وها نحن أولاء في هذا الوضع، هكذا يقولون. وهذا الرجل الفاسد يعرف تماما ما يعمل، حين يؤلف كتبه في الفلك لا باللاتينية، بل بلهجة بائعات السمك وتجار الأقمشة.

البابا : هذه قلة ذوق منه. سأحدثه في هذا.

كبير المحكمة : إنه يهيج البعض، ويغري البعض الآخر. والمدن التجارية شمالي إيطاليا تلح كل يوم في طلب المزيد من الخرائط السماوية التي رسمها السيد جالليو للاستعانة بها في الملاحة على سفنها. ولا بد من التسليم لهم بهذا، لأن في ذلك منافع مادية ومصالح.

البابا لكن هذه الخرائط السماوية قائمة على أساس أقواله المبتدعة، إذ فيها الكلام عن حركات الكواكب التي نعرفها، والتي لا يمكن أن تحدث لو رفضنا نظريته. فليس من الممكن القول ببطلان النظرية والإبقاء مع ذلك على الخرائط.

كبير المحكمة ولمَ لا؟ لن نستطيع تجنب ذلك.

البابا دبيــب الأقدام يزعجنــي. واعذرني، إذا كنــت لا أملك إلا الانتباه إليه.

كبير المحكمة إنه ربما يعبر لك خيرا مما أســتطيع، أيها البابا الأقدس. وهل يعود كل هؤلاء الناس أدراجهم والشك في قلوبهم؟

البابا لكن هذا الرجل هو أعظم عالم طبيعة في عصرنا، وهو نور إيطاليــا، وليس مجرد عقل مختــل. وله أصدقاء. فكر في بلاط فرنسا. فكر في بلاط فيينا. إنهم سينعتون الكنيسة المقدســة بأنها حمأة من الأفكار الباليــة المتعفنة. إني لن أسمح لأحد بأن يمسّه.

كبير المحكمة عمليــا لن نكون في حاجة معه إلى أن ندفع الأمور شــوطا طويلا، ذلك أنه إنسان من لحم ودم، وسيستسلم بسهولة.

البابا إنــه أمهر خبير باللذات عرفته بين الناس. التفكير هو في نظره لذة جســدية. وأمام خمرة معتقــة، أو فكرة جديدة تراه عاجزا عن الرفض. ومــن ناحية أخرى، لا أريد إدانة أي وقائــع علمية، ولا إطلاق شــعارات مثــل: «هنا أنصار الكنيســة!» و«هناك أنصار العقل!». لقد سمحت له بنشر كتابه على شــرط أن يذكر في خاتمتــه أن الكلمة الأخيرة ليست للعلم، بل للإيمان. وقد وفى الرجل بوعده.

كبير المحكمة لكن على أي نحو؟ إن كتابه يعرض مناقشــة بين مغفل يؤيد طبعا، آراء أرسطو، وبين رجل ذكّي يؤيد، طبعا، آراء السيد جالليو، والملاحظة الختامية، أيها البابا الأقدس، من الذي نطق بها؟

البابا ماذا وجدت أيضا؟ ومن الذي ينطق بالخاتمة؟

كبير المحكمة ليس الرجل الذكيّ.

البابا هــذه وقاحــة، أنا معك فــي هذا. لكن دبيــب الأقدام في

الدهاليز لا يُحتمل. هل العالم كله قد جاء؟

كبير المحكمة : ليس العالم كله، ولكن أفضل من فيه.

(صمت. البابا يلبس الآن كل زينة)

البابا : أقصى ما يصل إليه الأمر هو أن تُرُوه آلات التعذيب.

كبير المحكمة : هذا يكفي، يا قداسة البابا. فإن السيد جالليو يفهم جيدا في أمور الآلات.

* * *

(١٣)

(٢٣ يونيو سنة ١٦٣٣. جالليو، أمام محكمة التفتيش، يعلن تبرؤه من نظريته في حركة الأرض

كان يوما عاصفا من شهر يونيو

كان يوما حافلا عندي وعندك

خرج العقل من الظلمة، لكن

ظل طول اليوم عند العتبة

روما. قصر سفير فيرنتسه. تلاميذ جالليو ينتظرون الأخبار. الراهب الشاب وفدرتسوني يلعبان لعبة الشطرنج الجديدة، ذات التحركات الواسعة. وفي ركن، ركعت فرجينيا وهي تنشد دعاء «السلام عليك يا مريم!»)

الراهب الشاب: البابا لم يستقبله. المناقشات العلمية انتهت.

فدرتسوني: كان أمله الأخير. هذا صحيح، فقد قال له منذ سنوات في روما حينما كان لايزال اسمه الكردينال بربريني: نحن في حاجة إليك. والآن استولوا عليه.

أندريا: سيقتلونه. ولن تتم «الأقوال» Discorsi

فدرتسوني: (وهو ينظر إليه خلسة) أتعتقد ذلك؟

أندريا: لأنه لن يتبرأ من مذهبه أبدا.

(صمت)

الراهب الشاب: في الليل، حين يتعذر النوم، يجتر الإنسان أفكارا لا فائدة منها. ففي الليلة الماضية مثلا، لم أكفّ عن القول لنفسي: لم يكن عليه قط أن يغادر جمهورية البندقية.

أندريا: هناك لم يكن يستطيع أن يؤلف كتابه.

فدرتسوني: وفي فيرنتسه لم يستطع نشره.

(صمت)

الراهب الشاب	:	وكنت أسائل نفسي أيضا: هل يتركون له حصاته الصغيرة التي يحملها دائما في جيبه، وكأنها مسنّ.
فدرتسوني	:	للذهاب إلى حيث يقتادونه يلبس المرء ملابس من دون جيوب.
أندريا	:	(صائحا) هذا، لن يجرؤوا عليه. وحتى لو فعلوا هذا معه، فإنه لن يتبرأ من نظريته. «من لا يعرف الحقيقة، هو مغفل فحسب. لكن من يعرفها ويصفها بأنها كذب، هذا مجرم».
فدرتسوني	:	لا أظن ذلك، ولن أطيق العيش لو فعل ذلك، لكن الآخرين عندهم القدرة على ذلك.
أندريا		لا يحصل المرء بالقوة على كل شيء.
فدرتسوني		ربما.
الراهب الشاب		(بصوت هامس) صار له في السجن ثلاثة وعشرون يوما. وأمس كان الاستجواب الأساسي، واليوم تنعقد الجلسة. (وقد أدرك أن أندريا يُرّعي السمع، يرفع صوته) لما زرته هنا بعد المرسوم بيومين كنا جالسين في هذا الركن هناك، وأراني تمثال برياب الصغير في الحديقة، بالقرب من المزولة، ويمكن أن تراه من هنا، وشبَّه عمله بقصيدة لهوراس، ولا يمكن إجراء أي تغيير فيها. وكان يتحدث عن إحساسه بالجمال، الذي دفعه إلى البحث عن الحقيقة.
		وروى البيت «في الشتاء كما في الصيف، من قريب أو بعيد، طالما كنت حيا وبعد ذلك». وكان يفكر في «الحقيقة».
أندريا		(مخاطبا الراهب الشاب) هل رويت له كيف كان في الكلية الرومانية بينما كانوا يمتحنون ويفحصون أنبوبته؟ احكِ! (الراهب الشاب يهز رأسه) تماما كالعادة: كان يضع يديه على ركبتيه، وبطنه مقلوب، ويقول: «أرجوكم يا سادة، شيئا من الإدراك السليم!»

(يقلد جالليو، وهو يضحك. صمت. مشـيرا إلى فرجينيا) إنها تصلي من أجل أن يتبرأ من نظريته.

فدرتسوني : دعهـا! إن عقلها قد تشـوش منـذ أن تكلمـوا معها. لقد أحضروا متلقي اعترافها من فيرنتسه.

(يدخل الشخص الذي شوهد في قصر الدوق الكبير)

الشخص : السـيد جالليو سـيكون هنا بعد قليل. وربما سـيكون في حاجة إلى سرير.

فدرتسوني : أطلقوا سراحه؟

الشخص : ينتظرون إلى السـاعة الخامسـة، في أثناء جلسة محكمة التفتيـش، حـين يعلن السـيد جالليو تبرؤه مـن نظريته. وحينئذ سـيقرع ناقوس القديس مرقس الكبير، وسـيُقرأ إعلان التبرؤ علنا على الناس.

أندريا : لا أعتقد ذلك.

الشخص : ونظرا إلى التجمهرات في الشـوارع، فإن السـيد جالليو سيُقتاد إلى القصر من الباب الخلفي، باب الحديقة.

أندريا : (يرفـع صوته فجـأة) القمر شـبيه بـالأرض، ولا يضيء بنفسـه. وكذلك الزُهَرَة لا تضيء بنفسها: إنها مثل الأرض وتتنقل حول الشمس. وهناك أربعة أقمار تدور حول كوكب المشـتري، وارتفاع هذا هو ارتفاع النجـوم الثوابت، وليس مربوطـا بأي غلاف. والشـمس هي مركـز العالم، وتظل ساكنة في مكانها، لا تتحرك، والأرض ليست مركز العالم، وهي تتحرك. وهو الذي بين لنا ذلك.

الراهب الشاب : وعبثـا يسـتعملون القوة، فما شـوهد لا يمكـن جعله لم يشاهَد.

فدرتسوني : (وهو ينظر إلى المزولة في الحديقة) الساعة الخامسة.

(فرجينيا تصلي وتدعو بحرارة أشد)

أندريا	كلا، لا أستطيع احتمال الانتظار. إنهم الآن يضربون الحقيقة على أم رأسها.
	(يغلق إذنيه. وكذلك الراهب الشاب. لكن الناقوس لا يدق. وبعد برهة مشغولة بتمتمات صلوات فرجينيا، فدرتسوني يقول «لا» برأسه. الآخرون يلقون بأيديهم)
فدرتسوني	(بصوت لا نبرة فيه) لا شيء. مضت ثلاث دقائق بعد الخامسة.
أندريا	إنه يقاوم.
الراهب الشاب	إنه لن يتبرأ من نظريته.
فدرتسوني	لا. يا لنا من سُعَداء!
	(يتعانقون، وهم في أوج الفرحة)
أندريا	وهكذا، لا تستطيع القوة أن تنال كل شيء. وليست قادرة على كل شيء. وإذن يمكن هزيمة الحماقة، الحماقة ليست بمأمن من الطعن! وإذن الموت لا يخيف الإنسان!
فدرتسوني	الآن حَقّ القولُ بأن عصر المعرفة قد بدأ، في هذه الساعة قد ابتدأ. تصور، لو أنه تبرأ.
الراهب الشاب	لم أقل ذلك، لكني كنت شديد القلق. كنت رجلا قليل الإيمان.
أندريا	أما أنا، فكنت أعلم.
فدرتسوني	كأن الليل قد عاد في الضحى، هكذا كان سيكون شعورنا.
أندريا	كأن الجبل قد قال: أنا نَهْرٌ.
الراهب الشاب	(جاثيا وهو يبكي) الحمد والشكر لك يا إلهي.
أندريا	لكن تغير الآن كل شيء. رفع الإنسان رأسه، ومخلوق الآلام يقول: «أريد أن أحيا». هذا ما نكسبه لو أن إنسانا واحدا بقي واقفا وقال: لا.

(في هذه اللحظة يرن صوت ناقوس القديس مرقص بنبرة حادة. الكل مسَمّرون في أماكنهم)

فرجينيا : (وقد نهضت) ناقوس القديس مرقص! لن يدان.

(من الشارع يصّاعد صوت المنادي العام، وهو يقرأ إعلان جالليو لتبرئه من نظريته)

صوت المنادي : «أنا جالليو جاليلاي، أستاذ الرياضيات والطبيعة في فيرنتسه، أعلن تبرئي مما عَلّمْته، وهو أن الشمس هي مركز العالم، ولا تتحرك من مكانها، وأن الأرض ليست المركز وأنها تتحرك. أتبرأ من، وأكره، وألعن، بقلب مخلص وإيمان لا مراء فيه، كلّ هذه الأخطاء والبدع، وكذلك كل خطأ آخر وكل رأي آخر يتعارض مع تعاليم الكنيسة، أمنا المقدسة».

(المسرح يأخذ في الإظلام. وحين يضاء من جديد، لايزال الناقوس يقرع، ثم يتوقف. فرجينيا خرجت وتلاميذ جالليو لايزالون هناك)

فدرتسوني : لم يدفع لك شيئا ذا بال نظير العمل الذي قمت به. ولم يكن في مقدورك أن تشتري لباسا، ولا أن تنشر شيئا باسمك. وكل هذا قد تحملته لأنه كان «عملا في سبيل العلم».

أندريا : (بصوت عال جدا) ويل للأمة التي لا أبطال فيها!

(يدخل جالليو، وقد تغير تماما، لا يكاد المرء يتعرفه بسبب القضية. سمع الجملة التي قالها أندريا. وبقي عند وصيد الباب بضع لحظات، منتظرا أن يحيوه. لكن لا أحد يفعل ذلك، والتلاميذ يبتعدون عنه، حينئذ يتقدم بخطى بطيئة، مترددا بسبب ضعف بصره، نحو مقدمة المسرح، حيث يجد كرسيا مستديرا فيجلس عليه)

أندريا : لا أستطيع بعدُ أن أراه. فليرحل!

فدرتسوني : هَدّئ نفسك.

أندريا : يا خابية النبيذ! يا مفترس الحلزون! أنقذت جلدك العزيز؟ (يجلس) أشعر بغثيان.

جالليو : (بهدوء) أعْطوه كوب ماء!

(الراهـب الشـاب يذهب ليحضـر لأندريا كـوب ماء من الخـارج. الآخرون لا يهتمون بجالليو، وجالليو يسـتمع من دون أن يتحرك من كرسـيه المستدير. من بعيد يُسمع مرة أخرى صوت المنادي العام)

أندريا : الآن أستطيع المشي، لو ساعدتموني قليلا.

(يقتادونه نحو الباب. في هذه اللحظة جالليو يتكلم)

جالليو : لا! الويل للأمة التي في حاجة إلى أبطال.

نص يقرأ أمام الستارة:

«أليس من الواضح أن الفَرس الذي يسقط من ارتفاع ثلاث أذرع أو أربع يجوز أن تتكسر عظامه، بينما الكلب لا يصاب بأي أذى، وكذلك القط الذي يسقط من ارتفاع ثماني أذرع أو عشر، أو الزنبور الذي يسقط من ارتفاع برج، أو النملة إذا سقطت من القمر؟ وكما أن الحيوانات الضعيفة القامة أقوى وأشد نسبيا من الحيوانات البدينة، كذلك النباتات الصغيرة أقدر على المقاومة: فإن سنديانة طولها مائتا ذراع لا يمكنها أن تنمي فروعها بالنسبة نفسها التي بها تفعل السنديانة الصغيرة، والطبيعة لا يمكنها أن تعطي الفرس قامة عشرين فرسا، كما لا يمكنها أن تعطي المارد قامة عشرة رجال، إلا إذا عدلت نسب جميع الأعضاء، وخصوصا العظام، بحيث يكون حجمها أكبر من الحجم الذي تتطلبه نسبة الأبعاد. والرأي الشائع، الذي يعزو إلى الآلات الكبرى درجة المقاومة نفسها التي يعزوها إلى الآلات الصغرى، هو رأيٌ بَيِّنُ البطلان».

جالليو، من كتاب: «الأقوال» Discorsi

* * *

(١٤)

(سنة ١٦٣٣ - ١٦٤٢

جالليو جاليلاي يعيش في بيت ريفي بالقرب من فيرنتسه، وهو سجين محاكم التفتيش حتى وفاته. كتاب «الأقوال»،

من عام ١٦٣٣ حتى عام ١٦٤٢

بقي جالليو سجين الكنيسة حتى وفاته.

قاعة كبرى، وفيها منضدة، وكرسي من الجلد وكرة أرضية. جالليو، وقد صار شيخا هرما، نصف أعمى، يقوم بتجارب دقيقة بواسطة كرة من الخشب، ومجرى من الخشب منحني الشكل. وفي الدهليز، يجلس راهب يراقبه. يُقرع الباب. الراهب يعدو لفتح الباب ويُدّخِل فلاحا يحمل إوزتين منتوفتي الريش. فرجينيا، وقد صار عمرها الآن نحو الأربعين سنة، تخرج من المطبخ)

الفلاح	كلفوني بأن أحمل إليك هذا.
فرجينيا	من الذي أرسل بها، أنا لم أوص على إوزّ.
الفلاح	قالوا لي إن الذي بعث بها عابر طريق.
	(يخرج. فرجينيا تتطلع في الإوزتين بدهشة. الراهب يأخذهما من يديها ويفحصهما بارتياب. ثم، وقد اطمأن، يعيدهما إليها، وهي تحملهما إلى جالليو في القاعة الكبرى وهي تحملهما من عنقيهما).
فرجينيا	عابر طريق قد أتى بهذه الهدية.
جالليو	ما هي؟
فرجينيا	ألا تراهما فعلا؟
جالليو	لا. (يقترب) إوز. هل معهما بطاقة تحمل اسما؟
فرجينيا	لا.

جالليو (وقد أخذ منها إحدى الإوزتين) ثقيلة. عندي شهية لقطعة منها.

فرجينيا ليس من الممكن أن تكون جائعا. إذ تناولت عشاءك منذ قليل. وماذا في عينيك بعد؟ كان من المفروض أن تراهما من دون أن تتحرك من المنضدة.

جالليو أنت في الظلام.

فرجينيا أنا لست في الظلام.

(تأخذ الإوزّتين)

جالليو ضعي فيهما زعترا وتفاحا.

فرجينيا (مخاطبة الراهب) لا بد أن يذهب أحد لإحضار الطبيب، فإن أبي لم يستطع رؤية الإوزتين وهو عند منضدته.

الراهب سأطلب أولا إذنا من مونسنيور كريولا. إنه يريد أن يكتب بنفسه.

فرجينيا لا. لقد أملى عليّ كتابه، وأنت تعرف ذلك جيدا. وقد تسلمت الصفحتين ١٣١ و ١٣٢، وهما الأخيرتان في الكتاب.

الراهب إنه ثعلب عجوز.

فرجينيا هو لا يفعل شيئا مخالفا للتعليمات. وتوبته نصوح مخلصة، وأنا متنبهة إليه. (تعطي الراهب الإوزتين) قل لهم في المطبخ يشووا الكبدة، مع تفاحة وبصلة. (تعود إلى القاعة الكبرى) والآن سنوجه اهتمامنا إلى عيوننا، ونرتب كرتنا ونملي جزءا صغيرا من رسالتنا الأسبوعية إلى سيادة كبير الأساقفة.

جالليو لست أشعر بأنني على ما يرام. الأفضل أن تقرئي عليّ بعضا من شعر هوراس.

فرجينيا في الأسبوع الماضي قال لي المونسنيور كريولا - ونحن ندين له بالكثير، مثلا الخضراوات التي أرسلها إلينا منذ مدة - قال إن رئيس الأساقفة يسأل في كل مرة: هل أعجبتك المسائل والاقتباسات التي بعث بها إليك؟

(تجلس لتكتب تحت إملائه)

جالليو : أين وصلنا؟

فرجينيا : القسم الرابع: «... وفيما يتعلق بموقف الكنيسة أمنا المقدسة، من الاضطراب الذي حدث في ترسانة البندقية، أؤيد كل التأييد الموقف الذي اتخذه الكردينال اسبولتي تجاه تمرد الحبّالين»

جالليو : هذا هو. (يملي) «أؤيد كل التأييد الموقف الذي اتخذه الكردينال اسبولتي Spoltti تجاه تمرد الحبّالين، وهو أن الأفضل توزيع الحساء عليهم باسم المحبة المسيحية، من زيادة أثمان حبال السفن والحبال الخاصة بالنواقيس. خصوصا أن الحكمة تقضي بتقوية الإيمان في نفوسهم، لا الشراهة والجشع. لقد قال القديس بولس: «المحبة قادرة على كل شيء...»، فما رأيك في هذا؟

فرجينيا هذا رائع، يا أبي.

جالليو : ألا تعتقدين أنهم قد يتسمون في هذا شيئا من التهكم؟

فرجينيا : لا. سيسر المطران كل السرور. إنه يحب الأشياء الملموسة.

جالليو : أنت قادرة على الحكم. وماذا بعد هذا؟

فرجينيا : حكمة رائعة: «حينما أكون ضعيفا، هنالك أكون قويا»

جالليو : لا شرح.

فرجينيا : لماذا؟

جالليو : وماذا بعد هذا؟

فرجينيا : «حتى نستطيع أن ندرك أن محبة المسيح تفوق كل معرفة». (الرسالة إلى أهل أفسوس، الإصحاح الثالث، الآية ١٩)

جالليو وأشكر لنيافتك بوجه خاص اقتباسك الرائع من الرسالة إلى أهل أفسوس. وقد هزتني إلى أن أجد في كتاب «الاقتداء بالمسيح»، وهو كتاب لا مثيل له، الحكمة التالية (يقولها عن ظهر قلب) «من يَبْلُغْه الكلام الأزلي لا يَضَعْ بَعْدُ

أسـئلة لا جدوى منها». هل في استطاعتي بهذه المناسبة، أن أتحدث عن حالتي الخاصة؟ إنهم لايزالون يأخذون عليّ أنني سـبق لـي أن ألفت كتابا في الأجرام السـماوية بلغة الشـارع. ولم أكـن أقصد من هذا قـط أن أقترح أو أؤيد أن تكتـب الكتب المتعلقة بموضوعات أهـم بآلاف المرات، مثل موضوعات اللاهوت، بلغـة صانعي المكرونة. وحينما يحتجون بأن «المبرر لاستخدام اللغة اللاتينية في الطقوس والشـعائر الدينية هو كون هذه اللغة لغة عالمية، مما يمكّن كل الشعوب من فهم القداس»، فإنه يبدو لي أن هذه الحجة ليست وجيهة تماما، لأن الساخرين، وهم لا يعوزهم القول، يسـتطيعون حينئذ أن يعترضـوا قائلين إن النص لا يفهمه أي شـعب في هذه الحالة. أما عن نفسـي، فيطيب لي أن أتخلى، فيما يتعلق بالأسرار المقدسة، عن الوضوح المريب. ولاتينية منبر الوعظ، وهي تحمي الحقائق الأزلية للكنيسة من اسـتطلاع الجهلاء، تبعث الثقـة لو كان أبناء الطبقات الدنيا، حين يصيرون قساوسـة، ينطقونها بنبرات اللهجة المحلية. لا، اشطبي هذا.

فرجينيا : كل هذا الموضع؟

جاللي‍و : ما يأتي بعد: «صانعي المكرونة».

(يُقرع البـاب. فرجينيا تمضي إلى الدهليز. الراهب يفتح. يدخل أندريا سارتي، وقد صار الآن رجلا يناهز الأربعين).

أندريا : مسـاء الخير. أنا على وشك مغادرة إيطاليا لأتابع أبحاثي العلميـة فـي هولندا، وقـد طلبوا إلـيّ أن أزوره في أثناء مروري لأزودهم بأخباره.

فرجينيا لست أدري هل يريد أن يراك. إنك لم تحضر قط.

أندريا اسأليه.

(جاللي‍ـو قد تعـرف الصوت. يبقى جالسـا، بغير حراك. فرجينيا تأتي إليه)

جاليلو : أليس هو أندريا؟

فرجينيا : بلى. هل ينبغي طرده؟

جاليو : (بعد لحظة صمت) أدخليه.

(فرجينيا تُدْخِل أندريا)

فرجينيا : (تخاطب الراهب) إنه ليس خطرا. كان تلميذا له. واليوم صار خصما له.

جاليو : يا فرجينيا، اتركيني وحدي معه.

فرجينيا : أريد أن أسمع ما يقوله.

(تجلس)

أندريا (ببرود) كيف حالك؟

جاليو اقترب. ماذا جرى لك؟ حدثني عن شغلك. قيل لي إنه ينصبّ على علم المائيات.

أندريا : كلفني فابرتسيوس من أمستردام بالسؤال عن صحتك.

(صمت)

جاليو : صحتي جيدة. وأنا محاط بالعناية والاهتمام.

أندريا : سأكون سعيدا حين أخبرهم بأنك في صحة جيدة.

جاليو : فابرتسيوس سيكون سعيدا حين يعلم ذلك. وتستطيع أيضا أن تخبره أنني أعيش في راحة مقبولة. فبفضل عمق توبتي استطعت أن أظفر برضا ورعاية المشرفين عليّ، حتى أنهم أذنوا لي بمواصلة نشاطي العلمي، في حدود معقولة، وتحت مراقبة الكنيسة.

أندريا هكذا إذن! ونحن أيضا علمنا أن الكنيسة راضية عنك. خضوعك التام أنتج أثره. ووفق ما يؤكدون، فإن المشرفين عليك قد لاحظوا، برضا بالغ، أنه منذ خضوعك لم ينشر في إيطاليا كتاب واحد يؤيد الأفكار الجديدة.

جاليليو : (وهو يصغي باهتمام) لكن مع الأسف توجد بلاد تفلت من حماية الكنيسة الساهرة. وأخشى أن تستمر النظريات المدانة في أن تجد في تلك البلاد من يرعونها ويسندونها.

أندريا : في تلك الدول أيضا حدث رد فعل، فرحت به الكنيسة، وكان ذلك نتيجة لتبرّئك من نظرياتك.

جاليليو : صحيح؟ (صمت) هل لديك أخبار عن ديكارت؟ وهل لديك أخبار عن باريس؟

أندريا : نعم. لما علم ديكارت بتبرئك من نظرياتك، بادر فأخفى رسالة عن الضوء، خبأها في درج.

(صمت طويل)

جاليليو : أنا مهموم بشأن بعض العلماء من أصدقائي الذين جررتهم في طريق الضلال. هل بعد تبرئي عادوا إلى آراء أكثر صوابا؟

أندريا : عزمت على الذهاب إلى هولندا، كي أستطيع مواصلة أبحاثي. لا يعطَى التلميذ إذنا لم يحصل عليه الأستاذ.

جاليليو : فاهم.

أندريا : عاد فدرتسوني إلى صقل العدسات، في محل لا أدري مكانه في ميلانو.

جاليليو : (ضاحكا) إنه لا يعرف اللاتينية.

(صمت)

أندريا : وفولجنسيو، راهبنا الصغير، تخلّى عن البحث وعاد إلى حظيرة الكنيسة.

جاليليو : هذا حسن. (صمت) المشرفون عليّ يحسبون أنني على وشك الشفاء الروحي. وأنا أتقدم فيه أكثر مما كان يُتوقع.

أندريا : آه!

فرجينيا : الحمد لله!

جاليليو : (بلهجة خشنة) اذهبي وانظري ماذا حدث للإوز، يا فرجينيا.

(فرجينيا تخرج غاضبة. الراهب يكلمها وهي مارة)

الراهب : هذا الشخص لا يعجبني.

فرجينيا : إنه ليس خطرا. أنت قد سمعت بنفسك. (وهي ذاهبة) وصلنا جبن معْز طازج.

(الراهب يخرج معها)

أندريا : سأسافر طوال الليل، وذلك لأعبر الحدود غدا عند الفجر. هل أستطيع الرحيل؟

جاليليو لست أدري لماذا جئت، يا سارتي. ألتشيع الاضطراب في نفسي؟ إني أعيش بتحوط، وأفكّر بتحوّط منذ أن جئت إلى هنا، وكفاني ما وقعت فيه من نكسات.

أندريا : لا أريد أن أعكر عليك هدوءك، يا سيد جاليليو.

جاليليو : بريريني سمّى هذا نوعا من الجرب. وهو نفسه ليس بريئا منه تماما. عدتُ إلى الكتابة.

أندريا : آه؟

جاليليو : فرغت من كتاب «الأقوال».

أندريا : وكيف؟ المحاورات المتعلقة بفرعي المعرفة الجديدين: الميكانيكا، وسقوط الأجسام؟ هل هي هنا؟

جاليليو : أوه، إنهم يعطونني ما أكتب به. والمشرفون عليّ ليسوا بلهاء. إنهم يعلمون أن الرذائل المتأصلة لا تمحى في يوم وليلة. وهم يحمونني من النتائج الوخيمة، وذلك بأخذ الصفحات كلما فرغت منها، وحفظها في مكان أمين.

أندريا يا إلهي!

جاليليو هل قلت شيئا؟

أندريا : يا إلهي!

جالليو : هل قلت شيئًا؟

أندريا : إنهم يجعلونك تحرث في البحر! يعطونك ما تكتب به، لكن من أجل أن يخرسوك. كيف يتسنى لك أن تكتب؟ أوَ ليس أمامك من هدف غير هذا؟

جالليو : أوه، أنا أسير عاداتي!

أندريا : كتاب «الأقوال» بين أيدي الرهبان! بينما أمستردام ولندن وبراج في أشد الحاجة إليه!

جالليو : إنني من هنا أسمع فابرتسيوس يبكي، مطالبا بحقه في رطل اللحم، وهو آمن في هولندا.

أندريا معنى هذا ضياع علمين جديدين!

جالليو إنه هو وبعض الآخرين سيهتزون جزعا حينما يعلمون أنني خاطرت بالبقايا الضئيلة الباقية من راحتي من أجل عمل نسخة منه، من وراء ظهري، مستنفدا آخر بريق من نور الليالي المضيئة في هذه الأشهر الأخيرة.

أندريا : عندك نسخة؟

جالليو : غروري قد منعني حتى الآن من تدميرها.

أندريا : وأين هي؟

جالليو : «إذا تسببت عينك في الخطيئة فاقلعها». أيا من كان مؤلف هذه العبارة، فإنه كان أعلم مني بأمور الراحة العقلية. وأظن أنه من الجنون المطبق أن أسلمها إلى أيد أخرى. ومادمت أنا قد كنت عاجزا عن الكف عن العمل العلمي، فلا بأس عليك أنت من الانتفاع بها. النسخة مخبأة في الكرة الأرضية. فإذا كنت تنوي حملها إلى هولندا فعليك أن تتحمل وحدك كل المسؤولية. وعليك أن تقول حينئذ إنك اشتريتها من شخص اطلع على النسخة الأصلية في الديوان المقدس.

(يذهب أندريا لاستخراج النسخة من الكرة الأرضية).

أندريا : كتاب «الأقوال» (يتصفح المخطوط، ويقرأ بصوت عال) «غرضي هو أن أنشئ علما جديدا كل الجدة، يتناول موضوعا قديما جدا، هو الحركة. وقد اكتشفت - بفضل التجارب - بعض خواصها التي تستحق أن تُعرف».

جاليلو : كان لا بد من تمضية وقتي في شيء.

أندريا : سيكون أساسا لفيزياء جديدة.

جاليلو : خبئه في ثيابك.

أندريا ونحن الذين ظننا أنك خُنْتَ! وأعلى الأصوات هجوما عليك كان صوتي.

جاليلو كان ذلك أمرا طبيعيا. لقد علمتك العلم، غير أني أنكرت الحقيقة.

أندريا هذا يغير كل شيء. كل شيء تماما.

جاليلو : صحيح؟

أندريا : كنت.. تخفي الحقيقة. لكن عن العدو. في ميدان الأخلاق، وفي سائر الميادين، كنت أنت متقدما علينا بعدة قرون.

جاليلو : وَضّح هذا، يا أندريا.

أندريا : كنا، مع رجل الشارع، نقول: «سيموت ولكن لن يتبرأ من مذهبه». ثم جئت وقلت: «تبرأت، ولكني بقيت حيا». قلنا: «يداه قذرتان»، لكنك أَحْببتَ: «أن تكون قذرةً أفضل من أن تكون فارغة».

جاليلو أن تكون قذرة أفضلُ من أن تكون فارغة. هذا ينبئ عن روح عملية. وهذا يشبه ميولي. العلم الجديد يقتضي أخلاقا جديدة.

أندريا كان من الواجب أن أكون أول من يعرف هذا. لقد كان عمري الحادية عشرة لما أن بعِثتَ إلى مجلس شيوخ جمهورية

البندقية العدسة التي اخترعها غيرك. وشاهدتك تستخرج من هذه الآلة.. نتائج خالدة. وأصدقاء هزوا رؤوسهم لما انحنيت أمام طفل فيرنتسه: لكن العلم كسب بذلك جمهورا. وفي ذلك الوقت أيضا كان الأبطال يثيرون فيك الضحك. كنت تقول: «إني أنزعج من الناس الذين يتألمون». «الشقاء ينتج عن سوء التقدير»، «أمام العقبات أقصر طريق بين نقطتين يمكن أن يكون الخط المنحنى».

جاليليو : أتذكر ذلك.

أندريا : ولما استحسنت - في سنة ٣٣ - أن تتبرأ من نقطة في مذهبك تتميز بالشعبية، كان واجبا عليّ أن أحزر أنك ستتخلص فقط من معركة سياسية لا أمل في الانتصار فيها، ابتغاء جعل المهمات الحقيقية في العلم تتقدم..

جاليليو : وهذه المهمات هي...

أندريا : دراسة خواص الحركة، والحركة أُمّ الماكينات، والماكينات هي وحدها القادرة على جعل الأرض قابلة للسكنى إلى الحد الذي معه يمكن الاستغناء عن السماء.

جاليليو : آه، هكذا!

أندريا : لقد فزت بالفراغ اللازم لتأليف كتاب علمي كنت وحدك القادر على تأليفه. فلو أنك انتهيت على النار، في هالة من نار، لكان الآخرون هم الذين كسبوا.

جاليليو : وهم الذين كسبوا. ولا يوجد عمل علمي يستطيع إنسان بمفرده القيام به.

أندريا : إذن لماذا تبرأت من مذهبك؟

جاليليو : تبرأت لأني كنت أخاف من الآلام البدنية.

أندريا : ليس هذا صحيحا.

جاليليو : لقد أروني أدوات التعذيب.

أندريا : لم يكن ذلك منك إذن نتيجة حسابٍ قَدّرته؟

جالليو : لا.

أندريا : (بصوت قويّ) ليس للعلم غير قانون واحد، هو: الإسهام في العلم.

جالليو : وإسهامي قد قدّمته. فمرحبا بك في النهر، أي أخي في العلم، وابن عمي في الخيانة. أتأكل السمك؟ عندي سمك. والرائحة الكريهة لا تنبعث من سمكي، بل منّي أنا. أنا أبيع بأبخس الأثمان، وأنت المشتري. من يقاوم عندما يرى الكتاب، هذه السلعة؟ سيتدفق الماء في فمك ويغرق اللعنات وعاهرة بابل الكبرى، البقرة القاتلة ذات الغلالة القرمزية، تفتح ساقيها، وإذا بكل شيء قد تحول وتغيّر. ليتقدس اسم جماعتنا المحتالة، غاسلة العار، والخائفة من الموت.

أندريا الخوف من الموت أمر إنساني. وضروب الضعف الإنساني لا شأن لها بالعلم.

جالليو : هذا غير صحيح! يا عزيزي سارتي، حتى في الحالة التي أنا فيها، أشعر بأني لاأزال قادرا على أن أبين لك بإيجاز ما له شأن وما ليس له شأن بهذا العالم الذي أسلمت أنت إليه روحك وبدنك. (لحظة صمت قصيرة. جالليو يضع يديه متقاطعتين على بطنه متخذا موقف الأستاذ). في ساعات فراغي، وما أكثرها، راجعت حالتي من أولها إلى آخرها، وفكّرت في الحكم الذي سيطلقه عليها العالم العلمي الذي أحسب نفسي لم أعد أنتسب إليه. وحتى تاجر الأقمشة مضطر ليس فقط إلى أن يشتري بثمن رخيص ويبيع بثمن غال، بل وأيضا إلى أن يعمل على أن تستطيع تجارة الأقمشة أن تنمو وتتسع من دون عوائق. ويبدو لي أن ممارسة العلم تتطلب لهذا الغرض شجاعة خاصة. إن العلم يعمل بواسطة معرفة يتم الحصول عليها بالشك. والعلم وهو يزود الجميع بمعرفة عن جميع الأشياء يهدف

إلى أن يجعل من الجميع «شـــكاكا». لكن الأغلبية العظمى من النـــاس قد أبقاهم الأمراء، وكبار الملاك، ورجال الدين في ضباب خَـــدّاع من الخرافات والعبـــارات العتيقة التي تستر مؤامراتهم. وشقاء الأغلبية قديم قدم الجبال، ومنبر الكنيسة وكرســـي الجامعة يعلنان أن هذا الشقاء لا يمكن أن يزول، شأنه شـــأن الجبال. وأسلوبنا الجديد في الشك بعث الحماســـة في نفوس الجمهرة العظمى، فانتزعوا من أيدينا التلسكوب (المقراب) وصوّبوه إلى معذبيهم. والناس الأنانيـــون العنيفون، الذيـــن تملكوا ثمار العلم بشـــراهة، شـــعروا في الوقت نفســـه بنظرة العلم الباردة مصوبة نحو شـــقاء جاثم منذ آلاف السنين، لكنه مصطنع، تمكن إزالته بإزالتهم هم. فحاصرونا بالتهديدات والمناورات المفســـدة، التي لا تســـتطيع النفوس الضعيفـــة مقاومة إغرائها. لكن هـــل نســـتطيع أن نتخلى عـــن الجماهير ونبقـــى مع ذلك علمـــاء؟ إن حركات الأجرام الســـماوية صار من الســـهل إدراكها، أما بالنســـبة إلى الشـــعوب فحركات سادتها بقي من المستحيل تقديرها. ولقد كسبنا الكفاح من أجل قياس الســـماء، وذلك بفضل الشك، ولكن كفاح ربات البيوت في إيطاليا من أجل قدح من اللبن ســـيضيع هباء باســـتمرار، وذلك بســـبب ســـذاجة الاعتقاد. والعلم، يا سارتي، يخوض كلا الكفاحـــين. والإنســـانية وهي تتعثر في هذا الســـراب مـــن الخرافات والعبارات العتيقة منذ آلاف الســـنين، ومن الجهـــل بحيث لا تنمـــي طاقتها الخاصة تنميـــة عميقة – هذه الإنســـانية لن تكون قادرة على تنمية طاقات الطبيعة التي اكتشـــفتموها. من أجل ماذا تعملـــون أنتم؟ أعتقد أن الغـــرض الوحيد مـــن العلم هو العمل علـــى تخفيف عبء الحياة الإنسانية. لو اقتصر العلماء – بتخويف من السادة الأنانيين – على تكديس العلم من أجل العلم، فســـيكون من الممكن تشـــويه العلم، وآلاتكم الجديدة لن تفيد إلا في خلق

متاعب جديدة. وربما استطعتم مع الزمن أن تكتشفوا كل ما يمكن اكتشافه، ومع ذلك فإن تقدمكم لن يكون غير مواصلة للسير، تاركين الإنسانية وراء ظهوركم بمسافات بعيدة. والانقطاع بينكم وبينها يمكن ذات يوم أن يصير من العمق بحيث تكون الصيحة أمام انتصار جديد جوابها هو صيحة فزع. بوصفي عالما كانت لديّ إمكانية فريدة. عشت في العصر الذي فيه وصل علم الفلك إلى الساحات العامة. وفي هذه الظروف الخاصة، كان ثبات إنسان واحد ربما أحدث اضطرابات هائلة. لو أنني أنا قاومت، لأمكن علماء الطبيعة أن يضعوا شيئا شبيها بقَسَم أبقراط، قسَم الأطباء، أعني التعهد القاطع بعدم استخدام العلم إلا في خير بني الإنسان! لكن على حسب ما تجري عليه الأحوال الآن، فإن كل ما يمكن أن نراه هو الحصول على جنس من الأقزام المخترعين، يمكن أن ندفع لهم الأموال لعمل أي شيء. وفضلا عن ذلك، يا سارتي، صرت أعتقد اعتقادا جازما أنني لم أشعر قط بأنني في خطر حقيقي. وطوال عدة سنوات كنت قويا قوة السلطة. ووضعت علمي بين يدي أساتذة كي يفيدوا أو لا يفيدوا منه، أو ليسيئوا استخدامه، بحسب ما يخدم أهدافهم. (دخلت فرجينيا، حاملة صحنا، تتوقف) لقد خنت واجبات مهنتي.، وإن رجلا صنع مثل صنيعي لا يمكن قبوله بعد في جماعة رجال العلم.

فرجينيا : لقد قُبِلْتَ في جماعة المؤمنين.

(تقترب، وتضع الصحن على المنضدة)

جاليليو هذا صحيح. والآن عليّ أن أتناول الطعام. (أندريا يمد إليه يده. جاليليو يرى اليد، ولكنه لا يصافحه) أنت الآن أستاذ. فهل تخاطر بمصافحة يد مثل يدي؟ (يذهب نحو المنضدة). عابر مرّ من هنا وأرسل إليّ إوزتين. أنا دائما أحب أطايب الطعام.

أندريا : إذن لم يعد من رأيك أن عصرا جديدا قد بدأ؟

جاللي : بلـــى! خذ حذرك تماما وأنت تخترق ألمانيا والحقيقة تحت ثيابك.

أندريا : (وهو غير قادر على الرحيل) فيما يتعلق بتقديرك للمؤلف الذي تحدثنا عنه، لا أستطيع أن أقدم إليك جوابا. لكني لا أستطيع أن أتصور أن تحليلك القاسي هو الكلمة الأخيرة.

جاللي : شكرا، يا سيدي.

(يبدأ في الطعام)

فرجينيا : (وهي تصطحب أنـــدريا إلى الخارج) نحن لا نحب زيارات معارفه القدماء، لأنها تسبب له تهيجا.

(أندريا يخرج. فرجينيا تعود)

جاللي : هل لديك فكرة عمن عسى أن يكون قد بعث بالإوزتين؟

فرجينيا : من المؤكد أنه ليس أندريا.

جاللي : ربما. كيف حال الليل؟

فرجينيا : (وهي عند النافذة) صاف جدا.

* * *

(١٥)

(ســنة ١٦٣٤. «كتــاب الأقــوال» لجاليلــو يعبــر الحدود الإيطالية)

يا أعزائي احفظوا ذي الخاتمة:
عبر العلم الحدود، بينما
نحن طلاب المعارف
قد بقينا خلفها – أنا وهو.
فعلى نور العلوم – حافظوا!
من مزاياها استفيدوا، واحذروا
سوء الاستعمال خوفا أن تصير
سَقَرًا، يُحْرقنا، نُصْهَر فيه
كُلّنا نُصْهَر فيه أجمعين

مدينــة صغيرة على الحــدود الإيطالية. الصبــاح الباكر. بالقرب من حواجز المراقبة يلعب أطفال، وأندريا، بصحبة حــوذيّ ينتظر أن يفرغ حرس الحــدود من فحص أوراقه. يجلس على صندوق صغيــر ويقرأ مخطوطة جاليلو. وفي الناحية الأخرى من الحدود توجد العربة)

الأطفال (وهم يغنّون):

ماريّا بقميصٍ وردي
جلست، واللهِ، على الصخر
فتلطخ بالزبل وبالوحل
لكن شتاء مبتردا
جعل المسكينة تلبسه
أوّلى التلطيخُ من المِزَق

حارس الحدود	:	لماذا تغادر إيطاليا؟
أندريا	:	أنا عالم.
حارس الحدود	:	(مخاطبا الكاتب) اكتب: «الغرض من السفر: عالم». عليّ أن أفتش أمتعتك.
		(يفتش)
الطفل الأول	:	(مخاطبا أندريا) يجب عليك ألا تبقى جالسا في هذا المكان. (يشير إلى الكوخ الذي يجلس أمامه أندريا). هناك ساحرة تسكن.
الطفل الثاني	:	هذا غير صحيح. مارينا العجوز ليست ساحرة.
الطفل الثالث	:	بلى! إنها تطير في الهواء إبّان الليل.
الطفل الأول	:	ولماذا لا يعطيها أحد في المدينة حتى قدح لبن، إذا لم تكن ساحرة؟
الطفل الثاني	:	لكن كيف تستطيع أن تطير في الهواء؟ لا يوجد إنسان يستطيع ذلك. (مخاطبا أندريا) هل يمكن هذا؟
الطفل الأول	:	(من فوق رأس الطفل الثاني) هذا جوزيبي: وهو لا يعرف شيئا عن أي شيء، والدليل على ذلك أنه لا يذهب إلى المدرسة، وأنه ليست له سراويل مقبولة.
حارس الحدود	:	ما هذا الكتاب؟
أندريا	:	(دون أن يرفع عينيه) هذا كتاب للفيلسوف العظيم أرسطو.
حارس الحدود	:	(مرتابا) من هذا الرجل؟
أندريا	:	لقد مات منذ زمن.
		(الأطفال يدورون حول أندريا سخريةً منه وهم يتظاهرون بأنهم يقرأون كتابا)
حارس الحدود	:	(مخاطبا الكاتب) انظر، هل في هذا الكتاب شيء عن الدين.

الكاتب : (يتصفح أوراق الكتاب) لا أجد فيه شيئا.

حارس الحدود : الواقع أنه لا فائدة في البحث هكذا. ما يريد الإنسان إخفاءه لا يمكنه أن يعرضه هكذا. (مخاطبا أندريا)

عليك أن توقع على أننا فتشنا كل شيء.

(أندريا ينهض مترددا، ويتبع حارس الحدود إلى داخل مركز الحدود، وهو مستمر في القراءة)

الطفل الثالث : (مخاطبا السكرتير، وهو يريه الصندوق) هناك شيء آخر، ألا تراه؟

الكاتب : لم يكن موجودا من قبل؟

الطفل الثالث العفريت هو الذي وضعه هناك. إنه صندوق.

الطفل الثاني لا. إنه يخص المسافر.

الطفل الثالث أنا لن ألمسه. لقد سحر خيول باسيّ Passi الحوذي. وأنا بنفسي نظرت من خلال الثقب الذي أحدثته عاصفة الثلج في السقف، وسمعت كيف كانت تسعل.

الكاتب : (وكان قريبا من الصندوق، يتردد ويعود أدراجه) أمور عفاريت، أليس كذلك؟ على كل حال لا نستطيع أن نفتش كل شيء. أين نذهب؟

(يعود أندريا ومعه إبريق من اللبن. يعود إلى الجلوس على الصندوق ويستأنف القراءة)

حارس الحدود : (وهو يتبعه ومعه أوراق) أغلق الصناديق. هل كل الأمتعة عُلّمت؟

الكاتب كلها.

الطفل الثاني (مخاطبا أندريا) قل لنا، وأنت رجل عالم: هل يمكن الإنسان أن يطير في الهواء؟

أندريا انتظر قليلا.

حارس الحدود : تســتطيع أن ترحل. (أخذ الحوذي الأمتعــة. أندريا يأخذ الصندوق ويستعد للرحيل) قف! ماذا في هذا الصندوق؟

أندريا : (آخذا كتابه في يده) كتب.

الطفل الأول : هذا صندوق الساحرة.

حارس الحدود : غير معقول. كيف تستطيع هذه المرأة أن توجد صندوقا؟

الطفل الثالث : لأن العفريت يساعدها.

حارس الحدود : (ضاحــكا) هذا لا يخيل علينا هنا. (مخاطبا الكاتب) افتح هذا. (فتح الصندوق. دمدمة) كم عددها؟

أندريا : أربعة وثلاثون.

حارس الحدود : (مخاطبا الكاتب) كم من الزمن يستغرق فحص هذه؟

الكاتب : (وقد بدأ يفحص من دون انتباه) كلها مطبوعة من قبل. ثم إن الأمر قد يؤخر إفطارك، ثم إذا كان عليّ أن أتصفح كل هذه الكتب، فمتى أستطيع أن أذهب إلى بيت باسي Passi الحوذي لأحصِّل المبلغ المتأخر عليه من العوائد؟ سيباع بيته بالمزاد...

حارس الحدود : آه، صحيــح، لا بد لنا من العمــال. (يضرب الكتب بقدمه أوه، ماذا يمكن أن يكون فيها؟ (مخاطبا الحوذي) اكنس!

(أندريــا يجتاز الحدود مع الحوذي الذي يحمل الصندوق. ولما وصــل إلى الجانب الآخر من الحدود، وضع مخطوطة جاليليو في حقيبة سفره)

الطفل الثالث : (مشيرا إلى الإبريق الذي تركه أندريا) انظر!

الطفل الأول : والصندوق رحل. هاأنت ذا ترى أنه العفريت!

أندريا : (ملتفتا وراءه) لا، بل أنا. يجب أن تتعلم كيف تفتح عينيك. اللبن دفع ثمنه، وكذلك الإبريق. إنه من أجل المرأة العجوز. آه، يا جوزيي، لم أجب بعد عن ســؤالك. لا يمكن الإنسان

أن يطير في الهواء بواســطة عصا . لا بد من آلة، لكن هذه الآلة لم توجد بعد . ربما لن توجد أبدا ، لأن الإنســان ثقيل جــدا . لكن لا أحد يدري. يا جوزبــي، لايزال علمنا قليلا، ولايزال يعوزنا الكثير. الواقع أننا في البداية فقط.

* * *

هذه السلسلة:

للكويتيين تجربة مبكرة في المسرح، فقد أدرك رواد العمل الثقافي المستنيرون أهمية دوره الحيوي وما يمكن أن يقدمه من تطور وتنمية لمجتمعهم، وعلى الرغم من اقتران انطلاقة المسرح الأولى بالمؤسسة التعليمية (المدرسة) مع بداية ثلاثينيات القرن الماضي، فإنه لم يكن مسرحا تعليميا تربويا فقط، بل كان مسرحا يشارك بنصوص جادة، قدم بعض قضايا المجتمع والحياة العامة إلى جانب تناوله أمجاد العروبة وتاريخها الإسلامي، وامتدت عروضه خارج أسوار المدرسة خلال العطلات الصيفية وخارج الوطن بصحبة الدارسين في القاهرة في بيت الكويت.

وظلت الدولة على اهتمامها بهذا الفن وتشجيعه ورعايته بالتمويل والإشراف بعد انتقال مسؤوليته إلى دائرة الشؤون الاجتماعية، وتخصيصها إدارة للمسرح والفنون ورعاية شؤون الفرق المسرحية، حتى انتقلت إلى وزارة الإرشاد والأنباء (وزارة الإعلام في ما بعد)، وتطور معهد الدراسات المسرحية إلى معهد عال لدراسة الفنون المسرحية أكاديميا.

وفي سبيل تنمية الوعي الفني المسرحي وإثرائه فكريا وأدبيا، ارتأت الوزارة إصدار ونشر سلسلة من المسرحيات العالمية المترجمة، لكبار الكتاب المتميزين على الساحة المسرحية العالمية، وأن تكون ترجمتها للعربية عن اللغة الأصلية للنص المسرحي، وتخضع للتحكيم العلمي، وكان يشرف عليها الشاعر الراحل أحمد العدواني، والدكتور محمد موافي أستاذ الأدب الإنجليزي، والمسرحي الكبير زكي طليمات، وصدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر عام ١٩٦٩ يحمل عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم» للكاتب الغواتيمالي مانويل غاليتش، وترجمة

الدكتور محمود علي مكي، وتوالى صدورها إلى أن بلغت ٣١٣ عددا حتى عام ١٩٩٨، بعد أن انتقلت مسؤولية إصدار السلسلة إلى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وقد تناولت نحو ٤٢٠ مسرحية عالمية (مع ملاحظة أن بعض الأعداد قد اشتمل على أكثر من مسرحية)، ولكل مسرحية مترجم ومراجع ودراسة تحليلية فنية ونقدية شملت خصائص النص وكاتبه.

عندما قرر المجلس الوطني في نوفمبر ١٩٩٨ دمج هذه النصوص المسرحية العالمية المترجمة ضمن نصوص لأعمال أدبية أخرى مختلفة بين القصة والرواية وأدب الرحلات والسير الإبداعية، وصدرت تحت عنوان «إبداعات عالمية»، وبعد مضي تسعة أعوام على ذلك، أبدى كثير من المهتمين بشؤون الحركة المسرحية في البلاد وخارجها الشوق إلى إعادة طباعة بعض هذه النصوص المسرحية الإبداعية المختارة.

لقد اعتبرت سلسلة «من المسرح العالمي» أضخم مشروع قومي عربي من منظور الترجمة والتركيز على مجال فني متخصص واحد، وإنه ليسعد المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب إعادة هذا الكنز المفقود إلى أيدي عشاق المسرح وهواته في الكويت ومختلف أرجاء الوطن العربي، في هذا الإصدار الثاني الذي بدأ بإعادة طبع رائعة شكسبير «العين بالعين».

بدر سيد عبدالوهاب الرفاعي

سعر النسخة

الكويت ودول مجلس التعاون الخليجي	**نصف دينار**
الدول العربية الأخرى	**ما يعادل دولارا أمريكيا**
خارج الوطن العربي	**دولاران أمريكيان**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: **28623** - الصفاة - الرمز البريدي**13147**

دولة الكويت